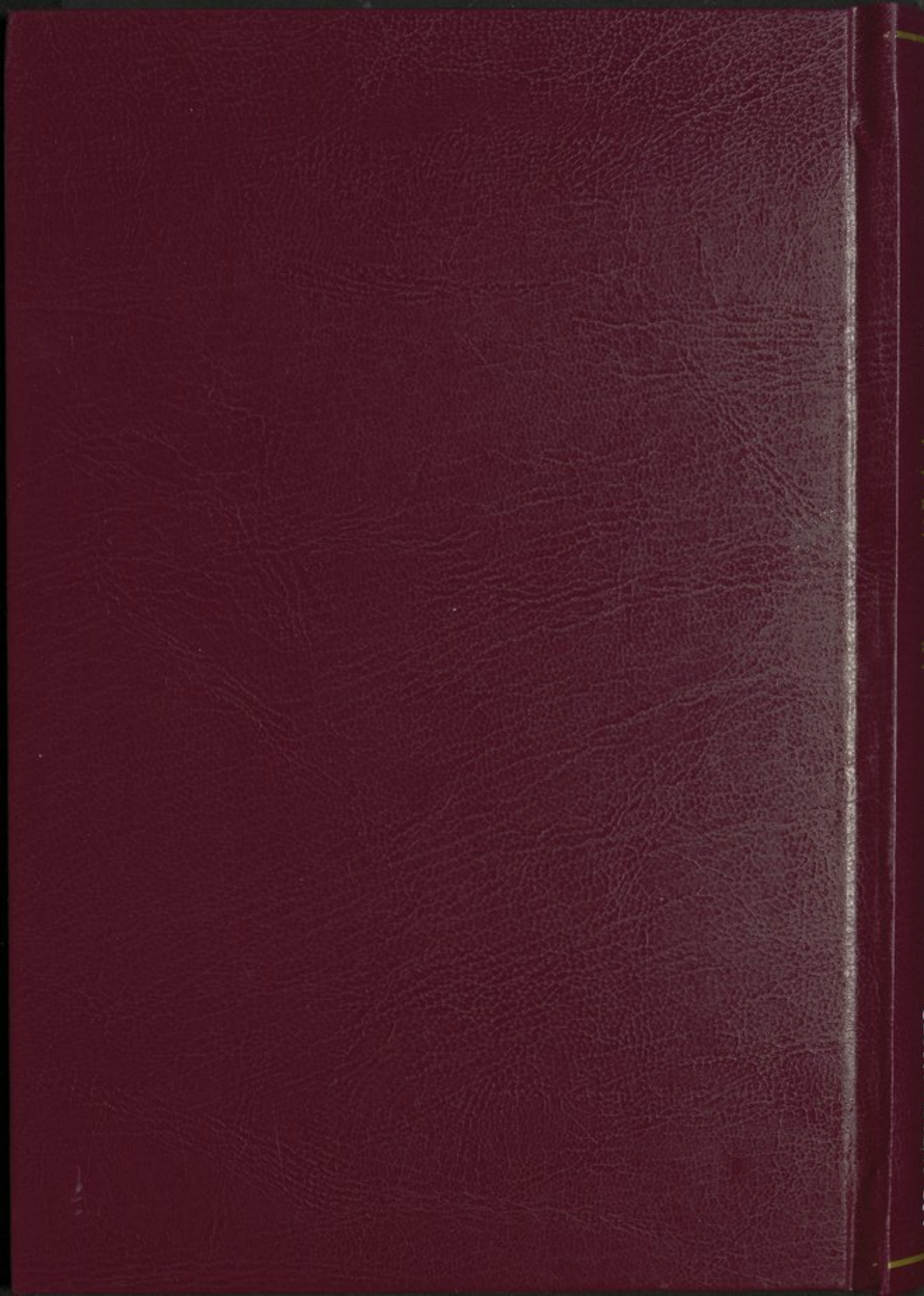




A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



AUB. LIBRARY

140

40

DE

71

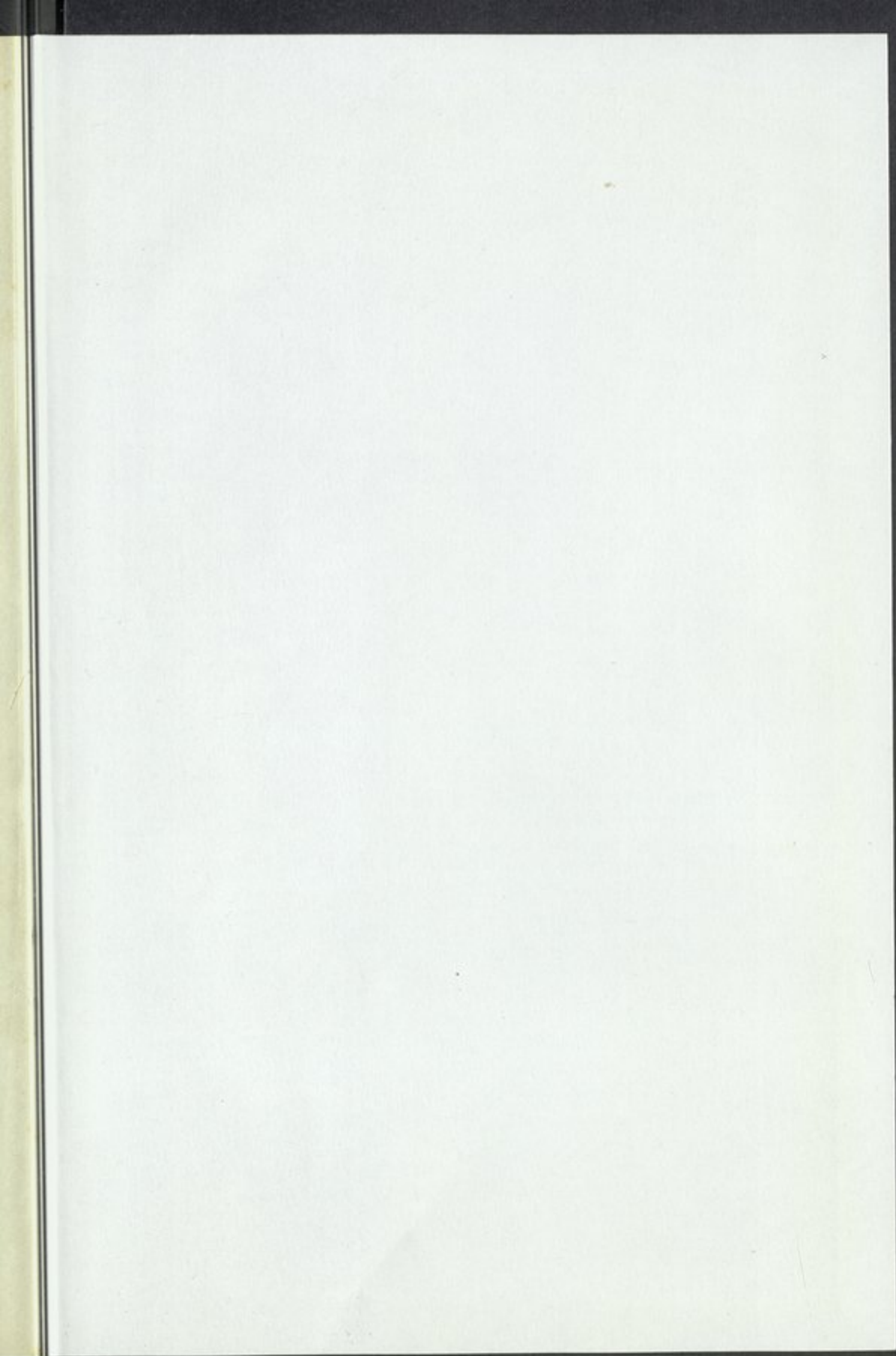
10-9

11M

1CE

18C-0

10M



أَصْلُ النَّفَاوُتِ
بَيْنَ النَّاسِ

تذکرہ افعال و افعال

سلسلہ انبیاء

320.1
R86aA
C.1

اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية
(الافونسكو)

جان جاك روسو

أصل النفس وأوت
بين الناس

ترجمة
عادل زعبيتر

دار المعارف بمصر

١٩٥٤



قرأ هذه الترجمة وفق أحكام منظمة الأونسكو :

توفيق الصباغ

كمال الحاج



(١)

مقدّمة المترجم

(1)

مجتهد القليل

كان جان جاك رُوشو في رسالته عن تأثير الفنون والعلوم في الأخلاق قد أقام الدليل على أنهما أفسدا الأخلاق وأوجبا شقاء الإنسان مدعيًا أن الترف والحضارة من نتائجهما قاتلاً بالرجوع إلى حال الطبيعة ، ومما ذهب إليه في هذه الرسالة كَوْنُ الثَّقَافَةِ أَقْرَبَ إلى الشرِّ منها إلى الخير ، وَكَوْنُ التفكير مناقضاً لطبيعة الإنسان وَكَوْنُ ، الفضيلة والأمانة والصدق لا أثمرَ لها في غير الحال الطبيعية حيث لا علوم ولا فنون .

وكتبَ رُوشو رسالته تلك بقلمٍ حارٍّ وعاطفةٍ جارفةٍ نجأت مبتكرةً في مجتمعٍ بلغ الغاية من المدنية مخالفاً لما عليه الجمهور ، ويُعدُّ رُوشو في رسالته تلك كالحمامي الذي يلتزم طرفاً واحداً في المرافعات فيضْعُبُ تصديقُ حِدَّتِهِ في تمثيل دوره ، ولذلك لا تتجلى أهمية رسالته تلك في اشتغالها على مذهب إيجابيّ ، بل في كونها مفتاحاً لنشوء رُوشو الذهنيّ وفي كونها مرحلةً مؤديةً إلى « أصل التفاوت » فإلى « العقد الاجتماعي » .

و « أصلُ التفاوت » هو ما تقدم ترجمته الآن بعد أن قدّمنا ترجمة « العقد الاجتماعي » .

نشرَ رُوشو كتابَ « أصلُ التفاوت » في سنة ١٧٥٥ مُقَدِّماً إلى جُمهُورية جَنييف ، وتدلُّ كلمة « الطبيعة » هنا على تطورٍ كبير ، فلا يعارض رُوشو بها شرور المجتمع معارضةً فارغة ، بل تنطوي على أمورٍ إيجابية ،

فترى نصف « أصل التفاوت » يشتمل على وصف خيالي لحال الطبيعة التي يكون الإنسان فيها محصوراً ضمن أضيق مجال مع قليل احتياج إلى أمثاله وقليل اكتراثٍ لِمَا وراء احتياجات الساعة الحاضرة .

وفي هذا الكتاب صرّح رُوشو بأنه لا يفترض وجود الحال الطبيعية فعلاً ، وإنما يستحسن حالاً من الهمجية متوسطة بين الحال الطبيعية والحال الاجتماعية يحافظ الناسُ بها على البساطة ومنافع الطبيعة ، ويظهر من تعليقات رُوشو على متن الكتاب أنه لا يريد رجوع المجتمع الفاسد الحاضر إلى حال الطبيعة ، وإنما يعدُّ المجتمع أمراً لا مفرَّ منه مع فسادِه ، وهو يُعَلِّل هذا الفساد بالتفاوت بين أفراد المجتمع في المعاملات والحقوق فيَتَغَنَّى بالإنسان الطبيعيّ الطاهر ، ويقول بتلك الحال المتوسطة حيث تسود المساواة .

وقد وُجِدَ من يؤخذ رُوشو على سلوكه منهاج التاريخ في « أصل التفاوت » ، مع أنه لم يَحْرِصْ على إلباس هذا الكتاب ثوباً تاريخياً ، وانتحال المناحي التاريخية الزائفة من خصائص القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ، ورُوشو لم يبال بهذه المناحي .

ويُعدُّ كتابُ « أصل التفاوت » هذا مَدْخَلاً لكتاب « العقد الاجتماعي » ، الذي ظهر سنة ١٧٦٢ ، لا بُدَّ منه للوقوف على ما اشتمل عليه « العقد الاجتماعي » من أصول ومبادئ ، وقد نقلنا إلى العربية كتاب « العقد الاجتماعي » العظيم الشأن وتمَّ نشره مستقلاً ، « وفي العقد الاجتماعي » حَمَل رُوشو على الرّق وعدم المساواة وناضل عن حقوق الإنسان وأقامها على طبيعة الأمور ، وقال إن هدف كلِّ نظام اجتماعي وسياسي هو حفظ حقوق

كل فرد وإن الشعب وحده هو صاحب السيادة ، وكان رُوشو يهدف في « العقد الاجتماعي » إلى النظام الجمهوري ، فتَحَقَّق هذا النظام بالثورة الفرنسية بعد ثلاثين سنة حين اتَّخَذَ « العقد الاجتماعي » إنجيلَ هذه الثورة . ولم يَقُلْ رُوشو بحكومات زمنه لمنافاتها للطبيعة ، ويقوم مذهبه على كون الإنسان صالحاً بطبيعته محباً للعدل والنظام ، فأفسده المجتمع وجعله بائساً ، والمجتمع سيئٌ لأنه لا يساوي بين الناس والمنافع ، والتملكُ جائزٌ لأنه مُقْتَطَعٌ من المِلْكِ الشائع الذي يجب أن يكون خاصاً بالإنسانية وحدها ، فيجب أن يُقْضَى على المجتمع إذن ، وأن يُرْجَعَ إلى الطبيعة ، وهناك يتفق الناس بعقدٍ اجتماعيٍّ على إقامة مجتمع يَرْضَى به الجميع ، فيقيمون بذلك هيئةَ تَمْنَحُ الجميع ذاتَ الحقوق وتقوم سيادةُ الشعب مقامَ سيادة الملك ، ويتساوى فيها الناس ، وتُنظَّم فيها الثروة والتربية والديانة .

ويعدُّ رُوشو من أعظم من أنجبت بهم فرنسا من الكتاب ، غير أن آراءه تُقْبَلُ أو تُرْفَضُ على حسب الأزمنة ، وهو يُحِبُّ أو يُكْرَهُ كتابي أوحى بالثورة الفرنسية قبل كل شيء .

ويوجدُ لكتب رُوشو مَعْنَيَانِ ، فبها يُنْفَذُ إلى الذهنية التي كانت سائدةً للقرن الثامن عشر ، وهي ذاتُ أثرٍ بالغٍ في حوادث أوربة التي وقعت فيما بعد ، وبهذه الكتب يُمَثِّلُ رُوشو في عالم الفكر السياسي مرحلةَ الانتقال من النظرية التقليدية للدولة في القرون الوسطى إلى الفلسفة الحديثة حول الدولة .

ولم يعالج رُوشو نُظْمَ الدول الموجودة ، خلافاً لما صنَعَ مونتسكيو وفولتير ،

الكتاب
العقد الاجتماعي

فبينما كان مونتسكيو وفولتير ، اللذان هما من أبناء الطبقة العليا ، يقتصران على المطالبة بالإصلاح السياسى والدينى وثلم شوكة الاستبداد كان ابنُ الشعب رُوشو ، الذى قضى شباباً قاسياً ، ينتهى بآلامه إلى ضرورة تجديد الدولة والمجتمع تجديداً كلياً ، ومن قول رُوشو: « لم يَهْدَف مونتسكيو إلى معالجة مبادئ الحق السياسى ، وإنما كان يكتفى بمعالجة الحق الوضعى (القانون) للحكومة القائمة ، فلا يُمكن أن يَبْدُو اختلافُ بين دراستين أكثرَ من هذا » ، ومن ثمَّ يكون رُوشو قد تَمَثَّل موضوعه مختلفاً عن موضوع « روح الشرائع » كلَّ الاختلاف .

ولا نرى أن نَدْرُس حياةَ رُوشو فى هذه المقدمة ، فقد فعلنا ذلك فى مقدمتنا لترجمة « العقد الاجتماعى » التى اقتطفنا ما تقدم منها ، والتى نُعدُّ مقدمةً لهذا الكتاب أيضاً ، فعلى هذا القصد نُتَمِّيك القلمَ عن بيان سيرة رُوشو هنا مكتفين بما تقدم مُحْيِلِينَ القارئ على تلك المقدمة .

عادل زعيتر

« نابلس »

(٢)

الترجمة

(7)

الحمد لله

رسالة

في هذا السؤال الذي اقترحتة أكاديمية ديجون :
ما أصل التفاوت بين الناس ، وهل أجازة القانون
الطبيعي ؟
« يجب علينا أن نعدَّ طبيعيًا ما نُظِّمُ وَفْقَ الطبيعة
من أمور ، لا ما فَسَدَ منها » .

(أرسطو ، السياسة ، باب ١ ، فصل ٢)

قال

: يا بني فبلا صفة رقة رائحة لله
منها ما ياتي راحة الروح من شوقها راحة له
فيها ؟
فبلا رقة له ليلتها راحة لله
... له رقة له لا رقة له

(راحة راحة راحة راحة)

إلى جُمْهُورِيَّةِ جَنيف

أيها السادة المَبْجَلُونَ الأَجَلَاءُ الكرام !

بما أننى اعتقدتُ أنه لا يستطيع غيرُ المواطن الصالح أن يُقدِّم إلى وطنه من التكريم ما يُمكنه قبوله فإننى عَمِلْتُ ثلاثين سنةً لأكون أهلاً لأن أقدم إليكم تحيةً عامةً ، فتقوم هذه الفرصة السعيدة من بعض الوجوه مقامَ ما قد تنطوى عليه جهودى من نقصٍ ، وحسبتُ أنه يُباح لى التأملُ فى الغيرة التى تُغرينى أكثرَ مما فى الحقِّ الذى يجب أن يُمهَّد لى السبيل ، وبما أنه كان لى شرفُ الولادة بينكم فكيف يُمكننى أن أنعم النظر فى المساواة التى وضعتها الطبيعة بين الناس وفى التفاوت الذى أقاموه من غير أن أفكرُ فى الحكمة البالغة التى مُرِجَت بها تلك وهذا مُزَجاً مُوفِّقاً فى هذه الدولة فيسعيان من أقرب الطرق إلى القانون الطبيعى ، ومن أكثرها ملاءمةً إلى المجتمع ، حفظاً للنظام العام وسعادة الأفراد ؟ وإنى ، حين بحثُ عن أصلح القواعد التى يُمكن العقل الرشيد أن يُمليها حوْل نظامِ حكومةٍ ، بلغتُ من بهرِ النظر باكتشافى وجودها كلها جاريةً فى حكومتكم ما كنتُ أرى معه عدمَ استطاعتى إعفاء نفسى من تقديم هذه الصورة عن المجتمع البشرى إلى هذا الشعب الذى يُلوح أنه أكثرُ الشعوب أخذاً بحاسنها واجتناباً لمساوئها ، ولو لم أكن قد وُلِدْتُ داخلَ أسواركم .

ولو كان لى اختيارُ محلٍّ ولادئى لاخترتُ مجتمعاً بالغاً من الاتساع ما يُحَدُّ معه بَمَدَى الخصائص البشرية ، أى بإمكان حُسْنِ الحكومة ، حيث كلُّ واحدٍ مساوٍ لعمله ، فلا يُلْزَمُ أحدٌ بأن يُفَوِّضَ إلى آخرين بوظائفَ كان قد عهِدَ إليه فيها ، وإن دولةً يتعارف جميع الناس فيها لا يُمكنُ مكايِدَ الرذيلةِ الخفية ، ولا انْتِصَاعَ الفضيلةِ ، أن يغيبا عن أنظار الجمهور وحُكْمِهِ فيها ، فَتَجْعَلُ هذه العادةُ اللطيفة فى الالتقاء والتعارف حُبَّ الوطن حُبًّا للمواطنين أكثر من جعله حُبًّا للأرض .

الأرض على قدر الانسجام
لا إلى حد

وكنْتُ أودُّ أن أولد فى بلدٍ لا يُمكنُ أن يكون للسيد والشعب فيه غيرُ مصلحةٍ واحدةٍ بذاتها ، وذلك لكى تميل جميع حركات الآلة إلى السعادة العامة ، وبما أن هذا لا يُمكنُ أن يكون ما لم يكن الشعب والسيد شخصاً واحداً فإننى أودُّ لو وُلِدْتُ فى كَنَفِ حكومةٍ ديموقراطية معتدلة بحكمة .

وكنْتُ أودُّ أن أحيأ وأموتَ حُرّاً ، أى أن أبلغ من الخضوع للقوانين ما لا أستطيع معه ، ولا يستطيع أحدٌ معه ، إلقاء النيرِ المُكْرَمِ عن الكاهل ، هذا النيرَ الشافى الهينَ الذى تَحْمِلُهُ أكثر الرؤوس تكبراً بِدَعَةٍ كما لو كانت قد خُلِقَتْ لكَيْلا تَحْمِلَ غيره .

وكنْتُ أودُّ ، إذنْ ، ألا يكون فى الدولة مَنْ يَقْدِرُ أن يقول إنه فوق القوانين ، وألا يكون فى الخارج مَنْ يَقْدِرُ أن يُعْمِلَ ما تُحْمَلُ به الدولة على الاعتراف بسلطانها ، وذلك لأنه ، إذا ما وُجِدَ فى الحكومة ، مهما أُمكِنَ أن يكون نظامها ، رجلٌ غيرُ خاضعٍ

للقوانين كان الباقون تابعين لهواه « ١ » ، وذلك لأنه ، إذا ما وُجدَ رئيسٌ قوميٌّ وآخرٌ أجنبيٌّ فإنه ، مهما كان اقتسامُ السلطة الذي يُمكنهما أن يأتياه ، يتعذر أن يُطاع كلٌّ منهما كما يجب ، وأن تُحسَّن إدارة الدولة .

وما كنتُ لأختارَ العيش في جمهورية ذات نظام جديد ، مهما أمكن أن تكون قوانينها صالحةً ، وذلك خشية أن تكون الحكومة قد كوّنت على غير مقتضيات الوقت فتختلف هي والمواطنون الجدد ، أو يختلف المواطنون والحكومة الجديدة ، وتكون الدولة عرضةً للارتجاج والانهيار منذ ولادتها تقريباً ، وذلك لأن الحرية هي كتلك الأغذية الجامدة والعصارية أو تلك الخمور السخية الصالحة لتغذية وتقوية البذات القوية المتعودّة إيّاها ، ولكن مع إرهابها وتقويضها وإسكارها الضعفاء والنحاف الذين لم يُخلّقوا لها قط ، وإذا ما تعودت الشعوب سادة ذات مرة عادت لاستغنى عنهم ، وإذا ما حاولت الشعوب إلقاء الثّير ابتعدت عن الحرية بالمقدار الذي تحوّلها به إلى تحلّل جامع معاكس لها ، وتسليمها ثوراتها دائماً تقريباً إلى غواة لا يفعلون غير إثقال قيودها ، ولم يكن الشعب الروماني نفسه قط ، هذا الشعب الذي هو مثال لجميع الشعوب الحرة ، قادراً على الحكم في نفسه عند ما تقلّت من ظلم آل تاركن ، فهو إذ أُذلّ بالعبودية والأعمال الشائنة التي قرّضوها عليه لم يعد في البداءة غير كونه رعاة أغبياء تجب مداراتهم والحكم فيهم بأعظم حكمة ، وذلك لكي تنال بالتدريج هذه النفوس الواهنة ، وإن

* تجد مدلول هذا الرقم وما يليه من الأرقام التي هي بين هذه الأقواس في قسم التعليقات الواقعة في آخر هذا الكتاب .
(المترجم)

شئت فقل المتوحشة في عهد الطغيان ، بتَعَوُّدها استنشاق هواء الحرية الصحيِّ مقداراً فقديراً ، تلك المِثانة الخُلُقِيَّة وتلك العِزَّة الباسلة اللتين جعلتاها أكثر الشعوب أهلاً للاحترام ، وكان علىَّ أن أبحث لوطني ، إذن ، عن جُمهوريَّة سعيدة هادئة ضاعَ قَدَمُها في ليل الزمن من بعض الوجوه ، فلم تُخْتَبَرْ بغير صَدَمَاتٍ صالحةٍ لإظهارها وتمكينها خُلُقَ الشجاعة وحبِّ الوطن ، وحيث يكون المواطنون المتعَوِّدون استقلالاً حكيماً زمناً طويلاً جديرين بأن يكونوا أحراراً ، لا أحراراً فقط .

وكنتُ أودُّ أن أختار لنفسي وطناً مصروفاً عنه لعجزِ جَدُودِ^(١) ، وعن حبِّ ضارٍ للفتوح ، مضموناً بموقعٍ أكثرَ حظاً أيضاً ، وذلك عن خَوْفِ غُدُوِّه فتحةً لدولة أخرى ، وذلك كمدينةٍ حُرَّة واقعةٍ بين شعوبٍ كثيرةٍ ليس لأىٍّ واحد منها مصلحةٌ في الاستيلاء عليها ، ويكون لكلٍّ واحد منها مصلحةٌ في منع الأخرى من الاستيلاء عليها ، أى أن أختار جُمهوريَّةً لا تُثِيرُ طموحَ جارِها مطلقاً ، ويُمكن أن تعتمد على مساعدة هذه الجارات اعتماداً مناسباً عند الضرورة ، ومن ثَمَّ لا يُمكن الدولة الجُمهوريَّة ذاتَ الخطِّ في موقعها بهذا المقدار أن تَحْشَى غيرَ نفسها ، فإذا كان مواطنوها يمارسون استعمالَ الأسلحة فذلك لِيُثَبِّقُوا في بلدِهم تلك الحميةَ الحربيةَ وتلك العِزَّة الباسلة الملائمتين للأحرار واللتين تُفَدِّيان ذوقَهم أكثرَ من ضرورة تَوَلِّيهم أمرَ دفاعهم الخاصِّ .

وكان علىَّ أن أبحث عن بلدٍ يكون حقُّ الاشتراع فيه مشتركاً بين

(١) المجلود : ذو الخط .

جميع المواطنين ، فمن ذا الذى يستطيع أن يَعْلَمَ أحسن من هؤلاء شروطَ العيش معاً فى المجتمع عينه ؟ ولكننى ما كنتُ لأستحسن استفتاءاتٍ مماثلةً لِمَا قام به الرومان حيث كان رؤساء الدولة وَمَنْ هم أحرصُ الناس على بقائها ممنوعين من المباحثات التى تتوقف عليها سلامتها فى الغالب ، وحيث كان الحكام محرومين ، عن تناقضٍ محالٍ ، ما يتمتع به أحقر المواطنين من حقوق .

وكنتُ ، على العكس ، أرغبُ لوقف المشاريع المُغْرِضَةِ السيئةِ المفهومِ والبدعِ الخطرة التى قَضَتْ على الأثنيين فى نهاية الأمر ألا يكون لكلِّ واحدٍ سلطةٌ اقترحِ قوانينَ جديدةٍ وَفَقَ هواه ، أن يكون هذا الحقُّ خاصاً بالحكام وحدهم ، وأن يقوم هؤلاء بذلك مع حَذَرٍ كثيرٍ ، وأن يكون الشعب من الاحتفاظ بحقه فى الموافقة على هذه القوانين ، وأن يكون نشرُها من التعذر بغير احتفال كبير ما يكون معه قبل قلب النظام من الوقت الكافى ما يُفْنَع فيه بكون قِدَم القوانين البالغِ على الخصوص هو الذى يجعلها مقدسةً محترمةً ، وأن يَزْدَرى الشعبُ من فَوْره ما يرى تبدله كلَّ يومٍ من القوانين ، وأن يُعْلَمَ أنه بتَعَوُّدِ إهمال العادات القديمة بحجة الإصلاح تُتَّخَذُ فى الغالب شُرورٌ كبيرةٌ إصلاحاً لِمَا هو دونها .

وكنتُ أجتنبُ على الخصوص ، كسيئةِ الإدارةِ بحكم الضرورة ، جُمهوريةً يَعْتَقِدُ الشعبُ فيها إمكانَ استغنائها عن حكمائه أو عدمَ تركه لهم غيرَ سلطةٍ وقتيةٍ فيحتفظ عن عدم تَرْوٍ بإدارة الأمور المدنية وتنفيذِ قوانينه الخاصة ، فهذا ما وَجَبَ أن كان عليه نظامُ الحكومات الأولى الغليظُ فَوَرَّ

خروجها من الحال الطبيعية ، وهذا ما كانت عليه إحدى النقائص التي قضت على بُهورية أثينة .

ولكنني كنتُ أختار مجتمعاً يكتفى الأفراد فيه بتأييد القوانين وبتقريرهم أهمّ الشؤون العامة ضمن هيئةٍ وبناءٍ على طلب الرؤساء فيُنشئون محاكم محترمةً ، ويميّزون بين مختلف الدوائر بعناية ، وينتخبون بين عامٍ وعامٍ أقدر مواطنيهم وأنزههم لإدارة العدل والحكم في الدولة ، كنتُ أختار مجتمعاً تكون فضيلةُ الحكم فيه شاهدةً على حكمة الشعب فيوجبُ كلُّ من الفريقين شرفَ الآخر مقابلةً ، فإذا ما ظهر في مثل هذه الحال من سوء التفاهم المشؤوم ما يُكدر الوفاقَ العامَّ فإن أدوارَ العماية والضلال نفسها تُوسمُ بدلائل الاعتدال والتقدير المتبادل واحترامٍ شامل للقوانين ، أي بعلاماتٍ وضامناتٍ لوفاقٍ صادق دائم .

فتلك هي ، أيها السادة المُبجّلون الأجلّاء الكرام ، ما كنتُ أبحث عنه من المنافع في الوطن الذي كنتُ أختاره لنفسى ، ولو أن العناية الإلهية أضافت إلى ذلك موقعاً رائعاً وإقليماً معتدلاً وبلداً خصيباً وأرغد ما يكون تحت السماء ما كنتُ أرغبُ لكمال سعادتي في غير التمتع بجميع هذه الأطايب في صميم هذا البلد السعيد عائشاً هادئاً في مجتمعٍ ناعمٍ مع مواطنيَّ مباشرةً الإنسانية والمحبةً وجميع الفضائل نحوهم وعلى مثالهم تاركاً ورائي ما لرجل الخير والوطنى الشريف من الذكري المكرّمة .

ولو كنتُ أقلَّ سعادةً وأكثرَ حكمةً ، فوجدتُني مُلزماً بأن أختتم حياةً عاجزةً ذاويةً في أقاليمٍ أخرى ، أسفاً بلا طائل على الراحة والسكينة

اللتين كانت تحرمنى إياهما شُبُوبِيَّةٌ غافلةٌ ، لَغَذِيْتُ نَفْسِي بِتِلْكَ المِشَاعِرِ الَّتِي
لَمْ أَكُنْ لَأَقْدِرُ عَلَى اتِّخَاذِهَا فِي بِلَدِي ، وَلَوْ كُنْتُ مُفْعَمًا بِمَوْدَّةٍ رَقِيقَةٍ نَزِيهَةٍ
تَجَاهُ مَوَاطِنِي البُعْدَاءِ لَوَجَّهْتُ إِلَيْهِمُ الكَلِمَةَ الْآتِيَةَ تَقْرِيبًا :

« مَوَاطِنِي الْأَعْزَاءِ ، بَلْ إِخْوَانِي ، بَمَا أَنَّ رَوَابِطَ الدَّمِ وَالْقَوَانِينِ تُوَحِّدُ
بَيْنَنَا جَمِيعًا تَقْرِيبًا فَإِنَّهُ يَحُلُّو لِي أَلَّا أُسْتَطِيعَ التَّفَكِيرُ فِيكُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَفْكَرُ
فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ فِي جَمِيعِ الْأَطْيَابِ الَّتِي تَتَمَتَّعُونَ بِهَا ، وَالَّتِي لَا يَوْجَدُ بَيْنَكُمْ
عَلَى مَا يَحْتَمِلُ مَنْ يَشْعُرُ بِقِيَمَتِهَا أَحْسَنَ مِنِّي ، أَنَا الَّذِي أَضَاعَهَا ، وَكَلَّمَا أَنْعَمْتُ
النَّظَرَ فِي وَضْعِكُمُ السِّيَاسِيَّ وَالْمَدَنِيَّ قَلَّ إِمْكَانُ تَصَوُّرِي اسْتَطَاعَةَ أُمُورِ الْبَشَرِ
أَنْ تَحْتَمِلَ مَا هُوَ أَطْيَبُ مِنْهَا ، وَعِنْدَ مَا يُبْحَثُ فِي جَمِيعِ الْحُكُومَاتِ الْأُخْرَى
عَنْ ضَمَانِ أَعْظَمِ خَيْرٍ لِلدَّوْلَةِ يَفْتَضِرُّ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى خِطِّطٍ فِي الْأَفْكَارِ دَائِمًا ،
وَعَلَى الْمُمْكَنَاتِ الْبَسِيطَةِ جُهْدِ الاسْتَطَاعَةِ ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَإِنْ سَعَادَتِكُمْ قَدْ كَمَلَتْ ،
وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ غَيْرُ التَّمَتُّعِ بِهَا ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ لَتَكُونُوا سَعْدَاءَ تَمَامًا غَيْرُ مَعْرِفَتِكُمْ
كَيْفَ تَقْنَعُونَ بِأَنْ تَكُونُوا هَكَذَا ، وَأَخِيرًا غَدَّتْ سِيَادَتُكُمُ الْمَكْتَسِبَةُ أَوْ
الْمُسْتَرْدَّةُ بِحِدِّ السِّيفِ ، وَالَّتِي حَفِظَتْ مَدَّةَ قَرْنَيْنِ عَنْ قِيَمَةٍ وَحَكْمَةٍ ،
مَعْتَرَفًا بِهَا اعْتِرَافًا تَامًا عَامًّا ، وَتُعَيَّنَ حَدُودُكُمْ وَتُوَيَّدَ حَقُوقُكُمْ وَتُوَطَّدَ رَاحَتُكُمْ
مَعَاهدَاتُ مُكْرَمَةٍ ، وَنِظَامُكُمْ رَائِعٌ ، فَقَدْ أَمْلَأَهُ عَقْلٌ عَالٍ ، وَضَمِنَتْهُ دَوْلٌ
صَدِيقَةٌ وَمَحْتَرَمَةٌ ، وَدَوْلَتُكُمْ مَطْمَئِنَّةٌ ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَخْشَوْا حُرُوبًا وَلَا
فَاتِحِينَ ، وَلَيْسَ عِنْدَكُمْ سَادَةٌ غَيْرُ مَا وَضَعْتُمُوهُ مِنَ الْقَوَانِينِ الْحَكِيمَةِ ، وَيَعْمَلُ
بِهَذِهِ الْقَوَانِينِ حُكَّامٌ صَالِحُونَ مِنْ اخْتِيَارِكُمْ ، وَلَسْتُمْ مِنَ الْغَنَى مَا تَتَخَنَّثُونَ
مَعَهُ عَنْ نَعِيمٍ وَمَا تَخْشَرُونَ مَعَهُ ذَوْقَ السَّعَادَةِ الْحَقِيقَةِ وَالْفَضَائِلِ الْمَتِينَةِ فِي

الأطايب الفارغة ، ولستم من الفقر ما تحتاجون معه إلى المساعدات الأجنبية التي لا تُنعم صِناعَتكم بها عليكم ، ولا يُكَلِّفكم شيئاً تقريباً حفظُ هذه الحرية الثمينة التي لا تُصانُ لدى الأمم العظيمة بغير الضرائب المُفرطة .

« وهل تستطيع أن تدوم إلى الأبد ، وفي سبيل مواطنيها ، ولتكون مثلاً للشعوب ، جمهوريةٌ تُدارُ بحكمةٍ بالغةٍ وتوفيقٍ كبير ! هذا هو الأمل الوحيد الذي يبقى لكم أن تصنعوه والحدُرُ الوحيد الذي يبقى لكم أن تتخذوه ، وعليكم وحدكم يتوقف في المستقبل أن تجعلوا تلك السعادة دائمةً بحكمةٍ حُسنِ استعمالها ، لا أن تصنعوا سعادَتكم ، فقد كفاكم أجدادُكم مؤونةً ذلك ، ويتوقف بقاؤكم على اتحادكم الدائم وعلى إطاعتكم القوانين وعلى احترامكم من يقومون بها ، وإذا ما بقيَ بينكم أقلُّ أثرٍ مرارةٍ أو ترثيبٍ فسارعوا إلى تبديده كخميرةٍ شؤمٍ ينشأ عنها شقاؤكم وخرابُ الدولة عاجلاً أو آجلاً ، أستحلفكم جميعاً أن تعودوا إلى فؤادكم وأن تستمعوا إلى صوت ضميركم الخفي ، وهل يوجد بينكم من يعرف في العالم كياناً أكثرَ صلاحاً ونوراً واحتراماً من حاكميتكم ؟ ألا يُعطيكم جميع أعضاءها مثالَ الاعتدالِ وبساطةِ الطُّباعِ واحترامِ القوانين وأصدقِ وفاقٍ ؟ ضمُّوا بلا تحفُّظٍ ، إذن ، في رؤساءِ بالغي الحكمة تلك الثقة النافعة التي يكون العقلُ مديناً بها للفضيلة ، وفكروا في كونهم ممن اخترتم ، وفي كونهم يُزَكُّون هذا الاختيار ، وفي كون ضروبِ الشرف التي تحفُّ من رفعتهم تعود إليكم بحكم الضرورة ، ولا يرى بينكم أحداً من قلة المعرفة ما يجْهَلُ معه كون ضياعِ قوةِ القوانين وسلطانِ هِمَّاتها يؤدي إلى عدم استطاعة أحدٍ أن يتمتع بالسلامة والحرية ، ولم تتردّدون ، إذن ، أن تصنعوا

عن طيبة قلبٍ وطُمأنينة نفسٍ ما أنتم مُلزمون بصنعه عن مصلحةٍ حقيقية وعن واجبٍ وعقلٍ ؟

« ولا تدعوا أثماً ولا حلياً مشؤوماً ، قائماً على حفظ النظام ، يغريكم عند الضرورة بإهمال ما لاكثركم نُوراً وغيره من آراءٍ حكيمة ، ولكن ليدُم الإنصافُ والاعتدالُ والرزانةُ البالغةُ الحرمةُ أموراً نازمةً لجميعِ خطواتكم دالةً جميعَ العالمِ فيكم على مثالِ شعبِ فخورٍ متواضعٍ محبٍّ لجده حُبّه لحرية ، واحذروا خاصةً ، وهذه آخرُ نصيحةٍ مني ، أن تُصغوا إلى التفسيراتِ الضارةِ والأحاديثِ السامةِ التي تكونُ عواملها الخفيةُ أشدَّ خطراً من الأفعالِ التي هي موضوعها ، أجلٌ ، إن المنزلَ بأسره يستيقظ وينتبه إلى أولِ صُراخٍ من كلبِ الحراسةِ الصالحِ المخلصِ الذي لا يعوى إلا عند اقترابِ اللصوصِ ، غير أننا نَمُتُّ إزعاجَ تلكِ الكلابِ الصَّخَّابةِ التي تُقلقُ الراحةَ العامةَ بلا انقطاعٍ فلا تؤدي تحذيراتها المستمرةُ التي هي في غير محلِّها إلى الإصغاءِ وقتما تكونُ ضروريةً . »

وأنتم أيها السادةُ المُبَجَّلُونَ الأجلاءُ ، وأنتم أيها الحكامُ الأفاضلُ المحترمون ، اسمحوا لي بأن أقدم إليكم تحياتي وواجباتي على الخصوص ، فإذا وُجِدَ في العالمِ مقامٌ صالحٌ لتكريمِ من يَشغُلونه فذلك المقام هو الذي تُنعمُ به المواهبُ والفضيلةُ ، فذلك هو المقامُ الذي جَعَلتم به أنفسكم أكفيا ، فذلك هو المقام الذي رَفَعكم إليه مواطنوكم ، وتُضيفُ مزيتهُم الخاصةَ إلى مزيتهُم بهاءٍ جديداً ، وبما أنه وقع اختياركم من قِبَلِ أناسٍ قادرين على الحكمِ في أناسٍ آخرين ، وذلك للحُكْمِ فيهم ، فإنني أُجِدُّكم أعلى من جميعِ

الحكام الآخرين ، وذلك بالمقدار الذى يكون به شعبٌ حرٌّ ، ولا سيما الشعبُ الذى لكم شرفُ قيادته ، فوق عامَّة الدول الأخرى ببصائرهِ وعقلهِ .
وليسمَح لي بأن أذكرُ مثلاً يجب أن يبقى منه أحسنُ الآثار ، وأن يظلَّ ماثلاً لقلبي على الدوام ، ولا أذكر من غير أحلى حَنانٍ ذكرى ذلك المواطن الفاضل الذى أرانى مَدِيناً له بوجودى والذى عَلَّمَنى فى صباى غالباً أن أقوم بالاحترام الواجب نحوكم ، ولا أزال أراه يعيش من عمل يديه ويُغذِّى روحه بأعلى الحقائق ، وأبصر تاسييتَ وِطْلوتَاركَ وغرُوسِيوس مختلطين أمامه بين آلات حِرْفته ، وأبصر بجانبه ابناً عزيزاً يتناول مع قليلِ ثمرةٍ أرقَّ ما يصْدُر عن أصلح الآباء من تعاليم ، ولكن إذا كانت سَمَائَاتُ شبابِ طائش جعلتنى أنسى دروساً بالغةً تلك الحكمة ذات حينٍ فإن لي فى نهاية الأمر سعادةَ الإحساس بأنه ليس من السهل على تربيةٍ مازجت القلب أن تَصِيعَ إلى الأبد مهما كان من مَثَلٍ إلى المُنْكَر .

أولئك ، أيها السادةُ المُبَجَّلُونَ الأجلاء ، مَنْ وَلِدُوا فى الدولة التى تَحْكُمُونَ فيها من المواطنين ، ومن عامة السكان أيضاً ، وأولئك هم الرجال الأذكياء المُعَلَّمُونَ الذين تدور حولهم لدى الأمم الأخرى ، وذلك باسم العمال والشعب ، أفكارٌ بالغةُ الحِصَّةِ والإفك ، ولم يكن والدى ممتازاً بين مواطنيه مطلقاً ، وهذا ما أعترف به مسروراً ، وهو لم يكن على غير ما كان عليه الآخرون ، وهو ، مع ما كان عليه ، لا تَجِدُ بلداً لم يُبَحَثْ فيه عن مجتمعه ولم يُتَمَهَّدْ فيه مجتمعه ، حتى بمنفعةٍ ، من قَبْلِ أَكْثَرِ الناس صلاحاً ، وليس من شأني والحمدُ لله ، وليس من الضروريِّ ، أن أُحدِّثكم عن الإكرام

الذى يُمكن أن ينتظره منكم أناسٌ من هذه الجيلَّة ، أناسٌ يساوونكم بالتربية وبحقوق الطبيعة والولادة ، أناسٌ يُعدُّون دونكم بإراداتهم وبما هم مَدِينُونَ به لفضلكم من أرجحية يَمْنَحُونَهُ إياها ، فتكونون من أجَلِها مَدِينِينَ لهم بضربٍ من الشُّكران بدوركم ، وأَعْلَمُ مع السرور الحارِّ مقدارَ اللطف والعطف اللذين تُعدُّلون بهما معهم اتزانَ حَفَظَةِ القانون ، ومقدارَ ما تَرُدُّونه من الاعتبار والعناية إلى من هم مُلْزَمُونَ بالإجلال والطاعة نحوكم ، وهذا السلوكُ زاخرٌ بالعدل والحكمة ، وهو يَصْلُحُ لأن يُبْعِدَ بالتدرُّج ذكرى ما يجب نسيانه من الحوادث السيئة لكيلا يَرى ثانيةً ، وهذا السلوكُ هو من الحِصَافَةِ ما يَجِدُ معه هذا الشعبُ للنصف الكريم لذةً في القيام بواجبه ، وما يُحِبُّ معه أن يُمَجِّدَكم عن طبيعة ، وما يكون معه أشدُّ الناس حماساً لتأييد حقوقهم أكثرهم استعداداً لاحترام حقوقكم .

ولا يَنْبَغِي أن يُحَارَّ من حُبِّ رؤساء المجتمع المدنيِّ لمجده وسعادته ، ولكن من الشاقِّ على قرار الناس أن يُبْدَى مَنْ يُعدُّون أنفسهم حُكَّاماً ، وإن شئت فقلُّ سادةً ، لوطنٍ أكثرَ قدسيةً وُسموا ، حُباً لوطنٍ دنيويٍّ يُغْذِيهم ، ويا لَمَّا أُجِدُّ من حلاوةٍ في إمكان قِيامى باستثناء بالغِ النُدرة نفعاً لنا ، فأضع في صَفِّ أصلحِ مواطنينا حَفَظَةَ العقائد المقدسةِ الغُيرِ المَجَازَ لهم بالقوانين ، رُعاةَ النفوس الأجلَّاء الذين تَحْمِلُ فصاحتهم الحَيَّةُ العَدْبَةُ إلى الأفتدة ما يأخذون في ممارسته بأنفسهم دائماً من مبادئ الإنجيل ! يَعْلَمُ جميعُ العالمِ مقدارَ ما يُزْأَلُ به من نجاحٍ فَنُّ الوعظ في جَنيف ، غير أن من الناس مَنْ بَلَّغُوا من عادة سماعهم القَوْلَ حَوْلَ أمرٍ وملاحظتهم العملَ

بأمرٍ آخرٍ ما تجِدُ معه أناساً قليلين يَعْلَمُونَ مقدارَ استيلاءِ روحِ النصرانية ،
 وقُدسيةِ الطَّبَاعِ والقسوةِ على النفسِ والرافةِ بالآخرين ، على هيئةِ واعظينا ،
 ومن المحتمل أن كانت مدينةِ جَنِيْفٍ وحدَها هي التي تُقدِّمُ مثلاً ممتعاً عن
 اتحادٍ كاملٍ بين مجتمعٍ من علماءِ اللاهوت ورجالِ الأدب ، فترانى أُقيمُ أُملى
 في اطمئنانها الأبدى على حكمتهم واعتدالهم المعروفِ أمرُها ، وعلى غَيْرَتهم
 حَوْلَ سعادةِ الدولة ، لمدى واسع ، وألاحظُ في الوقتِ نفسه ، ومع غِبْطَةٍ
 ممزوجةٍ بعَجَبٍ واحترامٍ ، مقدارَ ما يساورهم من مقتٍ لِمَا يَحْمِلُ من مبادئِ
 كراهيةِ هؤلاءِ الناسِ المقدَّسونَ البرابرةِ الذين يُقدِّمُ تاريخُهم غيرَ مثالٍ
 فتراهم أقلَّ ضيقاً بالدمِ البشرى لتأييدِ حقوقِ الرِّبِّ المزعومة ، أى لتأييدِ
 حقوقهم الخاصة ، وذلك بنسبةِ ما يُعَلِّلُون به أنفسهم من احترامِ دمهم
 على الدوام .

وهل أستطيع أن أنسى ذلك النصفَ من الجمهوريةِ العالى الذى
 يُوجبُ سعادةَ النصفِ الآخرِ ، فما يَنْطَوِي عليه من حِلْمٍ وحكمةٍ يودى
 إلى حفظِ السلامِ وحُسْنِ الطَّبَاعِ فيه ؟ فيا أيها المواطنين المحبوباتِ الفاضلاتِ
 « بناتِ جَنِيْفٍ » ، إن من نصيبِ جنسكن أن يَحْكُمَ فى جنسنا دائماً ،
 ويا للسعادةِ عند ما يُشْعِرُ سلطانُكن الطاهرُ ، المزاوِلُ فى القرآنِ الزَّواحى
 وحدَه ، بنفسه فى سبيلِ مجدِ الدولةِ والنعيمِ العامِّ فقط ! هكذا كان النساءُ
 يَقْدُنَ فى إسْيارِطَةٍ ، وهكذا يستأهِنُ القيادةَ فى جَنِيْفٍ ، وأى رجلٍ من
 البرابرةِ يَقْدِرُ أن يقاومَ صوتَ الشرفِ والعقلِ من فَمِ زوجةٍ حَنُونٍ ؟
 ومن ذا الذى لا يزدري ترفاً باطلاً عندما يَرى حِلْيَةً تَكُن البسيطةُ

المتواضعة التي تُلوح ، بما تقتبسه من بهائسكن ، أنها أكثر ما يلائم
الجمال ؟ وعليكن أن تَصُنَّ بسطانسكن البريء المحبَّب وروحكن الفتانة
حبَّ القوانين في الدولة والوفاق بين المواطنين ، وأن تَجْمَعْنَ بين الأسر
المُفرقة بزواجٍ مُوقَّعة ، وأن تُصْلِحْنَ ، على الخصوص ، بدروسكن ذاتِ
الوداعة المُتَمَنِّعة ، وبمديشكن ذى الألفاظ المعتدلة ، ما يكتسبه شباننا من
سوء سلوكِ البلدان الأخرى التي لا يَحْيِلُونَ منها ، مع لهجة صيدانية
وأوضاعٍ مضحكةٍ مقتبسةٍ من نساء فاجرات ، وبدلاً من أمورٍ مفيدةٍ كثيرةٍ
يمكنهم أن يستفيدوها منها ، غيرَ إعجابٍ بما لا أدرى ما يكون من عظمة مزعومة
وتعويضاتٍ حقيرةٍ عن عبوديةٍ لا تساوى الحرية المُبَجَّلَة ، فكنَّ دائماً ،
إذن ، أننَّ حارساتِ الأخلاقِ الطاهراتِ وروابطِ السلامِ العذباتِ ،
وداوِمنَ على استغلالِ حتوقِ القلبِ والطبيعةِ نفعاً للواجبِ والفضيلةِ .

وأتملقُ نفسى إذ لم يُكذِّبْنى الحادثُ بإقامتى على مثل هذه الأسس
أملَ السعادةِ العامة للمواطنين والمجد للجمهورية ، وأعترفُ ، مع جميع هذه
المنافع ، بأنها لا تَسْطَعُ بذلك الضياء الذى يُعْشَى معظمَ العيونِ والذى يُعدُّ
ذوقه الصبائى المشؤوم عدوَّ السعادة والحرية الأزرق .

وليدُهبُ شبابٌ منحلٌّ للبحثِ فى مكانٍ آخرَ عن مَلَادٍ سهلةٍ
وتَوَاتٍ طويلةٍ ، وليُعْجَبُ ذوو الذوقِ المزعوم ، فى أماكنٍ أخرى ،
بعظمة القصور وجمالِ الأجهزة ، وبالأمتعةِ الرائعةِ والمناظرِ البهية ، وبجميع
دقائقِ الترفِّ والتخنثِ ، فلا يوجد فى جَنيفَ غيرُ رجالٍ ، غير أن لمثل
هذا المَحْضَرِ ثمنه مع ذلك ، ومن يَبْحَثُونَ عنه يساوون المُعْجَبِينَ بالباقي .

فتفضلوا ، أيها السادة المَبَجَّلون الأجلاء الكرام ، أن تَقَبَّلُوا ، جميعاً ،
 بذات الحِلْم ، هذا الدليل البالغ الاحترام على اهتمامي بإقبالكم الشامل ،
 فإذا كنتُ من الشقاء ما أُعَدُّ معه مذنباً بهيجانٍ مَذْبِاعٍ في قلبي الناريِّ
 المفتوح فإنني أَلْتَمِس العفوَ عنه لِمَا ينطوى عليه من وُدٍّ وطنيٍّ صادق
 وللغَيْرَةِ الحارَّةِ الشرعية في رجلٍ لا يَرى لنفسه سعادةً غيرَ رؤيته إياكم
 سعداء جميعاً .

ويا أيها السادة المَبَجَّلون الأجلاء الكرام أُجِدُّنِي ، مع الاحترام البالغ ،
 خادمكم ومواطنكم الكثير الخضوع والطاعة .

جان جاك روسو

شأنبري ، في ١٢ من يونيو سنة ١٧٥٤

المقدمة

يَبْدُو لِي أَنْ مَعْرِفَةَ الْإِنْسَانِ^٢ هِيَ أَنْفَعُ جَمِيعِ الْمَعَارِفِ الْبَشَرِيَّةِ وَأَقْلَاهَا تَقْدَمًا ، وَأَجْرُوهُ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْكِتَابَةَ الْوَحِيدَةَ عَلَى مَعْبَدِ دِلْفِ كَانَتْ تَشْتَمِلُ عَلَى حُكْمٍ أَهَمٍّ وَأَصْعَبَ مِنْ جَمِيعِ كُتُبِ عُلَمَاءِ الْأَخْلَاقِ الضَّخْمَةِ ، وَكَذَلِكَ فَإِنِّي أَعُدُّ مَوْضِعَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ مِنْ أَكْثَرِ الْمَسَائِلِ ، الَّتِي تَسْتَطِيعُ الْفَلَسَفَةُ أَنْ تَعْرِضَهَا ، إِمْتَاعًا ، وَمِنْ أَكْثَرِ الْمَسَائِلِ ، الَّتِي يَسْتَطِيعُ الْفَلَسَفَةُ أَنْ يَحْلُوَهَا ، صُعُوبَةً وَيَا لِلْأَسْفِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَيْفَ يُعْرَفُ مَصْدَرُ التَّفَاوُتِ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا لَمْ يُبْدَأْ بِمَعْرِفَتِهِمْ ؟ وَكَيْفَ يَأْمُلُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَرَى نَفْسَهُ كَمَا صَنَعَتْهُ الطَّبِيعَةُ مِنْ خِلَالِ جَمِيعِ التَّغْيِيرَاتِ الَّتِي وَجَبَ أَنْ يَكُونَ تَعَاقِبُ الْأَزْمَانِ وَالْأَشْيَاءِ قَدْ أَحْدَثَهَا فِي نِظَامِهِ الْأَصْلِيِّ ؟ وَكَيْفَ يُمَكِّنُهُ أَنْ يُمَيِّزَ مَا هُوَ أَسَاسِيٌّ فِي طَبِيعَتِهِ مِنَ التَّغْيِيرَاتِ أَوْ الْإِضَافَاتِ الَّتِي اتَّفَقَتْ لِحَالِهِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ نَاشِئَةً عَنِ الْأَحْوَالِ وَالتَّرَقِّيَّاتِ ؟ وَتُشَابِهَ النَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ تَمَثَّلَ غُلُوكُوسِ الَّذِي بَلَغَ مِنَ التَّشْوِيهِ بِفَعْلِ الزَّمَنِ وَالْبَحَارِ وَالْعَوَاصِفِ مَا صَارَ مَعَهُ يَمَاقِلُ حَيَوَانًا ضَارِيًا أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَمَاقِلَ إِلَهًا ، فُغَيِّرَتْ تِلْكَ النَّفْسُ فِي الْمَجْتَمَعِ بِأَلْفِ عِلْمٍ مُتَجَدِّدَةٍ بِلَا انْقِطَاعٍ وَبِاِكْتِسَابِ طَائِفَةٍ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْأَصَالِيلِ ، وَبِتَحَوُّلَاتٍ طَرَأَتْ عَلَى نِظَامِ الْأَبْدَانِ وَبِتَصَادُمِ الْأَهْوَاءِ عَلَى الدَّوَامِ ، غُيِّرَتْ فِي الْمَظْهَرِ مَا نُسَكَّرَتْ مَعَهُ تَقْرِيبًا ، فَعَادَ لَا يَرَى فِيهَا غَيْرُ تَنَاقُضٍ مُشَوَّهٍِ لِلْهَوَى الَّذِي يَرَى أَنَّهُ يَتَعَقَّلُ ، وَلِلْإِدْرَاكِ الَّذِي يَغْدُو هَذْيَانًا ، وَذَلِكَ بَدَلًا مِنْ كَائِنٍ يَسِيرُ دَائِمًا وَفَقَى

مبادئ ثابتة لا تتحول ، وبدلاً من تلك البساطة العلوية الجلية التي طبعها بها خالقها .

ومن أشد الأمور قسوة أيضاً هو أن جميع ترقيات النوع البشرى كما أبعده من حاله الابتدائية بلا انقطاع جعنا معارف جديدة ونزعنا من أنفسنا وسائل اكتساب ما هو أهم من جميعها ، وتلك من بعض الوجوه قوة دراسة الإنسان الذي جعلنا معرفته خارج طاقتنا .

ومن السهل أن يُدرك وجوب البحث ، في التحولات المتعاقبة التي اعتورت النظام البشرى ، عن الأصل الأول للفروق التي تميز بين الناس المتساوين فيما بينهم بحكم الطبيعة كما كانت حيوانات كل نوع قبل أن تدخل علل فزيوية كثيرة إلى بعضها من الاختلافات ما نلاحظه فيها .
والواقع أن مما لا يتصور أن يكون جميع هذه التحولات الأولى ، مهما كانت الوسيلة التي وقعت بها ، قد غيرت ، دفعة واحدة وعلى نمط واحد ، جميع أفراد النوع ، ولكن بما أن بعضهم قد كمل أو فسد ، وبما أن بعضهم قد اكتسب صفات مختلفة حسنة أو سيئة ، لم تكن ملازمة لطبيعتهم قط ، فإن الآخرين قد ظلوا على حالهم الأصلية زمناً أكثر طولاً ، وقد كان هذا مصدر التفاوت الأول بين الناس ، هذا التفاوت الذي يسهل إثباته على العموم هكذا أكثر من تعيين علله الحقيقية بالضبط .

ولا يتصور قرأى ، إذن ، أنني أزعم رؤيتي ما تظهر لى رؤيته صعبة جداً ، فقد بدأت ببعض البرهانات ، وقد أتيت مخاطراً ببعض الفرضيات ، فكنت أقل أملاً في حلّ المعضلة من قصدي أن ألقى نوراً

عليها وأردّها إلى حالها الحقيقية ، ويستطيع آخرون أن يسيروا إلى ما هو أبعد من هذا في ذات الطريق ، وذلك من غير أن يسهل على أحد وصوله إلى الحدّ ، وذلك لأنه ليس من الجهود الخفيفة أن يُفرّق في طبيعة الإنسان الحاضرة بين ما هو أصليّ وما هو مصنوع ، وأن تُعرّف جيداً حالّ عادت غير موجودة ، حالّ لم توجد قطّ على ما يحتمل ، حالّ لن تكون مطلقاً على الراجح ، مع أن من الضروريّ أن تُكوّن عنها معارفٌ سديدة وصولاً لحسن الحكم في حالنا الحاضرة ، حتى إنه لا بدّ من فلسفة أكثر مما يلوح لذلك الذي يحاول أن يُعيّن بالضبط ما يجب اتخاذه من احترازاات للقيام بملاحظاتٍ متينةٍ حول هذا الموضوع ، ولا يظهر لي حلّ المُعضلة الآتية حلاً حسناً غير جدير بما في عصرنا من أرسطو وپلينى ، والمُعضلة هي : ما التجارب الضرورية للوصول إلى معرفة الرجل الطبيعيّ ، وما وسائل القيام بهذه التجارب في صميم المجتمع ؟

وإني مع بُعدي من محاولة حلّ هذه المُعضلة أراي قد بلغت من التفكير في الموضوع ما أجروّ معه على الجواب مقدّماً بأن أعظم الفلاسفة لا يكونون كثيرى الصلاح لتوجيه هذه التجارب ولا يكون أقوى الملوك كثيرى الصلاح للقيام بها ، أى أن يأتوا بمسابقةٍ ليس من الصواب توقّعها ، لما تقتضيه من الثبات على الخصوص ، وإن شئت فقلّ من تعاقب الذكاء والوئام الذى لا بدّ من توفّره في كلا الفريقين لبلوغ النجاح .

وهذه المباحث التى يصعب القيام بها كثيراً ، والتى فكّر فيها قليلاً جداً حتى الآن ، هي ، وحدّها مع ذلك ، كلّ ما بقى لنا من الوسائل لإزالة

طائفة من المصاعب التي تَحْجُبُ عنا معرفة الأُسُسِ الحقيقية للمجتمع البشري ، وهذا الجَهْلُ لطبيعة الإنسان هو الذي يُبْلِقِي كثيرَ ارتيابٍ وغموضٍ على تعريف الحقوق الطبيعية الصحيح ، وذلك لأن فكرة الحقوق ، وأكثرُ منها فكرةُ الحقوق الطبيعية ، هما ، كما قال مسيو بُوْرْ لَآمَكي ، فكرتان خاصتان بطبيعة الإنسان كما هو ظاهر ، فمن طبيعة الإنسان ونظامه وحاله يجب ، إذَنْ ، استنباطُ مبادئ هذا العلم كما قال ذلك مداوماً .

وليس من غير حيرةٍ ونُفُورٍ أن نلاحظ ما بين المؤلفين الذين عالجوا هذا الموضوع المهمَّ من اتفاق قليل ، ولا تكاد تجِدُ بين أكثر الكتاب اتزاناً اثنين يكونان على رأيٍ واحدٍ حَوَّلَ هذه النقطة ، وإني ، من غير قولٍ عن قدماء الفلاسفة الذين لم يَأْلُوا جُهداً في مناقضة بعضهم بعضاً عن عمْدٍ في أكثر المبادئ جَوْهراً كما يلوح ، أجِدُ فقهاء الرومان قد أخضعوا الإنسان والحيوانات الأخرى ، بلا تمييزٍ ، لذات القانون الطبيعي ، وذلك لأنهم يَرَوْنَ تحت هذا الاسم ما تَفَرِّضُه الطبيعة على نفسها من قانونٍ أكثر من رؤيتهم القانونَ الذي تَفَرِّضُه على الآخرين ، أو على الأصح للاصطلاح الخاص الذي يُدْرِكُ به هؤلاء الفقهاء كلمة « القانون » ، هذه السكمة التي يَلُوح أنهم لم يتخذوها في هذه الفرصة إلا للتعبير عن الصلات العامة التي أقامتها الطبيعة بين جميع ذوات الحياة من أَجْلِ بقائها ، وبما أن المعاصرين لا يَعْرِفُونَ تحت اسم القانون غيرَ قاعدةٍ مفروضة على موجودٍ أدبيٍّ ، أي موجودٍ عاقلٍ خَرَّ من حيث صِلَاتُهُ بالموجودات الأخرى ، فإنهم يَقْصِرُونَ اختصاصَ القانون الطبيعي ، من حيث النتيجة ، على الحيوان الوحيد المزِين بالعقل ، أي الإنسان ،

ومع أن كل واحد منهم يُعرّف هذا القانون على شاكلته فإنهم يقيمونه على مبادئ بالغة من اللاهوتية ما تجدد معه بيننا أناساً قليلين قادرين على فهم هذه المبادئ بعيدين من إمكان اكتشافها بأنفسهم ، وذلك من حيث كون جميع تعاريف هؤلاء العلماء ، المتناقضين فيما بينهم تناقضاً أزلياً ، تتفق ، فقط ، على كونه يتعذر على المرء فهم قانون الطبيعة ، ومن ثم إبطائه ، من غير أن يكون محتاجاً كبيراً ولاهوتياً عميقاً ، ومعنى هذا هو أن الناس قد اضطربوا لإقامة المجتمع إلى بصائر لا تنشأ إلا بمشقة عظيمة ولأناس قليلين في صميم المجتمع نفسه .

وإذا ما عرفت الطبيعة قليلاً ، وإذا ما كان الاتفاق حول معنى كلمة « القانون » شيئاً ، فإن من الصعب أن يُجمع على تعريف حسن للقانون الطبيعي ، وإذا عدوت ما تنطوى عليه جميع التعاريف التي توجد في الكتب من نقص في الانسجام وجدتها تشتمل على خطأ آخر ناشئ عن اشتقاقها من أنواع للمعرفة مختلفة ليست لدى الناس بحكم الضرورة ، ومن فوائد لا يمكنهم تمثيل فكرتها إلا بعد خروجهم من حال الطبيعة ، وقد بدى بالبحث عن أى القواعد يلائم اتفاق الناس عليها في سبيل المصلحة المشتركة ، فأطلق اسم القانون الطبيعي على مجموعة من تلك القواعد من دون دليل آخر غير النفع الذي ينشأ عن تطبيقها العام ، وهذه هي طريقة ملائمة جداً لوضع التعاريف وإيضاح طبيعة الأمور بمطابقات مرادية .

بيد أننا ما دُمنا لا نعرف الإنسان الطبيعي كان من العبث أن نحاول تعيين القانون الذي فرض عليه أو القانون الذي هو أحسن ملائمة لنظامه ،

(٣)

وكلُّ ما نستطيع أن نُبَصِّرَه بوضوحٍ بالغٍ حَوْلَ موضوع هذا القانون هو ضرورةُ حديثه بصوت الطبيعة من فَوْره ليكون طبعياً ، وضرورةُ خضوع مَنْ يُلْزِمُه له مع علمه بهذا ليكون قانوناً أيضاً .

ولِنَدْعُ ، إِذَنْ ، جميعَ الكتبِ العلمية التي لا تُعَلِّمُنَا غيرَ رؤيةِ الناسِ كما صَنَعُوا أَنْفُسَهُمْ ، ولننعمَ النظرَ في أولِ أعمالِ الروحِ البشريةِ وأكثرها بساطةً ، فأرى أنه يمكنني أن أَبْصِرَ فيها مبدئينِ سابقين للعقل ، فيَخْصُصُ أحدهما بجماعةٍ رفاهيئتنا وبقاءنا ويُوَحِّى الآخرُ إلينا بنفورٍ طبعيٍّ من مشاهدةِ هلاكٍ ، أو تَوَجُّعٍ ، كلُّ كائِنٍ حَسَّاسٍ ولا سيما أمثالنا ، فمن الاتفاقِ والتركيبِ اللذينِ تَصْنَعُهُما نفسُنا من هذينِ المبدئينِ ، ومن غيرِ أن تكون هنالك ضرورةٌ لإدخالِ مبدأِ الأُنسِ ، يُلَوِّحُ لى اشتقاقِ جميعِ قواعدِ الحقوقِ الطبيعيةِ ، هذه القواعدُ التي يُضْطَرُّ العقلُ بعدئذٍ إلى إقامتها ثانيةً على أُسُسٍ أخرى عندما ينتهى إلى كِبَتِ الطبيعةِ بنُشُوئه المتعاقبِ .

وهكذا فإننا لسنا مُلْزَمِينَ بأن نجعل من الإنسان فيلسوفاً قبل أن نجعل منه إنساناً ، ولم تُرَسِّمْ واجباتُهُ نحو الآخرين بدروسٍ متأخرةٍ من الحكمةِ فقط ، وهو مادام لا يقاوم دافعَ الرأفةِ الباطنيَّ مطلقاً لا يؤذى إنساناً آخرَ ، ولا أياً كائِنٍ ذى إحساسٍ ، أبداً ، وذلك خلا الحالِ الشرعيةِ التي يكون بقاءه موضعَ عنايةٍ فيها فيكون مضطراً إلى تفضيلِ نفسه ، وبهذه الوسيلةِ تُخْتَمُ المجادلاتُ القديمةُ ، أيضاً ، حَوْلَ اشتراكِ الحيواناتِ في القانونِ الطبيعيِّ ، وذلك لأن من الواضح أنها لا تستطيع معرفةَ هذا القانونِ لُخْلُوعاً من الذكاءِ والحريةِ ، ولكن بما أنها تَمَّتْ إلى طبيعتنا بصلةِ الإحساسِ

المتصفة به من بعض الوجوه فإنه يُحكَم بضرورة اشتراكها في الحقوق الطبيعية أيضاً فيكون الإنسان خاضعاً بنوعٍ من الواجبات نحوها ، ويُلوَّح أن الواقع يقضى بأننى إذا كنتُ مُلزماً بالآأصنع أىَّ سوءٍ لمثلى فذلك لأنه كائنٌ ذو إحساسٍ أكثرَ من أن يكون ذا عقلٍ ، وبما أن صفةَ الإحساس مشتركةٌ بين الحيوان والإنسان فإن من الواجب أن تمنَح أحدهما ، على الأقلِّ ، حقَّ عدم معاملته بسوءٍ من قِبَل الآخر على غير جدوى .

ودراسة الإنسان الأصليِّ هذه مع احتياجاته الحقيقية ومبادئ واجباته الأساسية هى الوسيلةُ الصالحةُ أيضاً التى يُمكن استعماؤها لإزالة تلك المشاكل التى تَبْدُو حَوْلَ أصلِ التفاوت الأدبى ، وحَوْلَ الأسسِ الحقيقية للبيئة السياسية ، وحَوْلَ حقوق أعضاءها المتبادلة ، وحَوْلَ ألفِ مسألةٍ مماثلةٍ أُخرى غامضةٍ بمقدار أهميتها .

وإذا نُظِرَ إلى المجتمع البشرىِّ بعينٍ هادئةٍ خاليةٍ من الغرضِ ظَهَرَ أنه لا يَدُلُّ فى البُداءة على غيرِ عنفِ الأقوياء من الناس واضطهادِ الضعفاء ، وتُثَوِّر النفس على قسوةِ فريقٍ أو تحمِّل على الرِّثاء لعمى الآخر ، وبما أنه لا يوجد بين الناس ما هو أقلُّ ثباتاً من هذه الصلات الخارجية التى تؤدى إليها المصادفةُ أكثرَ مما تؤدى إليها الحكمةُ فى الغالب ، والتى تُسمَّى ضعفاً أو قوةً وِغنى أو فقرًا ، فإن النُّظْمَ البشرية تُلَوِّح أولَ وهلةٍ قائمةً على كُشْبَانٍ من الرمل المتحرك ، وليس بغيرِ البحث فيها عن كَشَبٍ ، وليس بغيرِ إبعاد الغبار والرمل المحيطين بالبناء ، ما تُرى القاعدةُ الثابتةُ القائمُ عليها وما يُعلمُ احترامُ أُسُسِهِ ، والواقعُ أنه إذا لم يُبحث فى الإنسان وفى

خصائصه الطبيعية ونشوتها المتعاقب بحثاً جدياً لم يمكن إتيان هذه التفصيلات أو أن يمتاز في نظام الأمور الحاضر ما صدر عن الإرادة الإلهية مما زعم الفن الإنساني صنعه ، فالمباحث السياسية والأخلاقية التي توجبها المسئلة المهمة التي أبحث فيها هي مفيدة من جميع الوجوه إذن ، ويكون تاريخ الحكومات الافتراضى درساً ممتعاً للإنسان من جميع النواحي .

وإذا نظرنا إلى ما نصير إليه ، عندما نُترك لأنفسنا ، وجب علينا أن نعلمَ حمدَ ذلك الذى أصلح بيده الكريمة نظمنا ومنَّ عليها بقاعدة ثابتة فتدارك ما كان ينشأ عنها من فوضى وأدَّى إلى سعادتنا بوسائل كانت تغمُر بؤسنا كما يلوح .

« تعلم ما أمرك الله أن تكون ، وتعلم الناحية الإنسانية التي أنت

فيها » .

(برسيوس ، الأهاجى ٣ ، ٥ ، ٧١)

كَلِمَةٌ حَوْلَ أَصْلِ التَّفَاوُتِ وَأَسَاسِهِ بَيْنَ النَّاسِ

أَتَكَلَّمُ عن الإنسان ، وأَعْلَمُ من المسئلة التي أبحث فيها أنني أَكَلِّمُ الناس ، وذلك لأن المسائل التي هي من هذا النوع لم يُسأل عنها من قَبْل من يخافون تَكْرِيمَ الحقيقة ، وَلِذَا فَإِنِّي أدافع مطمئناً عن قضية الإنسانية أمام حُكَّاء يَدْعُونَنِي لِأَصْنَع هذا ، ولا أَكون غير راضٍ عن نفسي إذا ما جعلتُ نفسي أهلاً لموضوعي خليقاً بقضائي .

وَأَنصَوِّرُ وجودَ نوعين للتفاوت في الجنس البشري ، فالنوعُ الأول هو ما أدعوه الطبيعيَّ أو الفِيزِيَوِيَّ لأنه من وَضْع الطبيعة ، ويقوم على اختلاف الأعمار والصحة وقُوَى البدن وصفات النَّفْس أو الروح ، والنوعُ الثاني هو ما يُمكن أن أدعوه التفاوتَ الأدبيَّ أو السياسيَّ لتوقفه على ضَرْبٍ من العهد ولقيامه ، أو للإِذْن فيه على الأقلِّ ، بتراضى الناس ، ويتألف هذا النوع من مختلف الامتيازات التي يتمتع بها بعضهم إجحافاً بالآخرين كأن يكون أكثر من هؤلاء ثراءً أو إكراماً أو قُوَّةً ، أو أن يكون في وَضْعٍ ينتزع فيه الطاعة .

ومن العبث أن يُسأل عن مصدر التفاوت الطبيعيِّ لوجود الجواب في تعريف الكلمة البسيط ، وأقلُّ من ذلك إمكانُ البحث عن وجود ارتباطٍ جوهرى بين التفاوتين ، وذلك لأن هذا يَعْنِي ، فقط ، أن يُسأل بكلماتٍ

أخرى عن كون القابضين على زمام القيادة أفضل ممن يُطيعون بحكم الضرورة ، وعن وجود قوة البدن أو الروح ، وعن وجود الحكمة أو الفضيلة ، في الأفراد أنفسهم دائماً ، وعلى نسبة قُوَّتهم أو ثرائهم ، وقد يكون من الخير إثارة هذا السؤال بين العبيد على مسمع من سادتهم ، ولكن مع عدم ملاءمته لأناسٍ من العقلاء والأحرار الذين يبحثون عن الحقيقة .

وما يكون موضوعُ هذه الرسالة بالضبط إذن ؟ يقوم موضوعها على ملاحظتنا في نشوء الأشياء ذلك الوقت الذي يَغْقُبُ الحقُّ فيه العنف وتَخَضُّع الطبيعة فيه للقانون ، وعلى إيضاحنا سياقَ الحوارِ الذي أزعج به القوى أن يَخْدُمَ الضعيفَ وأن يشتريَ الشعبُ راحةً خياليةً بسعادة حقيقية . وقد شَعَرَ الفلاسفة الذين بحثُوا في أُسُسِ المجتمع بضرورة العود إلى حال الطبيعة ، ولكن أحداً منهم لم يَنْقُتْه إليها ، ولم يتردّد بعضهم في عزوهم إلى الإنسان في هذه الحال فكرةَ العادل وغيرِ العادل من غير أن يكثرُوا لإثباتِ كونه قد أُخِذَ بهذه الفكرة ، وكونها نافعةً له أيضاً ، وقد تكلمَ آخرون عن الحقوق الطبيعية فيما لكلِّ واحدٍ أن يحفظَ ما يَخُصُّه من غير أن يوضحوا ما يَقْصِدُونَ بكلمة « يَخُصُّه » ، وأعطى آخرون في البُداء سلطاناً للأكثرِ قوَّةً على الأكثرِ ضعفاً فأوجبوا ولادةَ الحكومة حالاً من غير أن يُفَكِّروا في الوقت الذي وَجَبَ انقضاؤه قَبْلَ إمكان وجود معنى كلمتي السلطان والحكومة بين الناس ، وأخيراً تكلمَ الجميع بلا انقطاع عن الاحتياج والطمع والضغط والرغبة والزهو فنقلوا إلى حال الطبيعة أفكاراً اكتسبوها في المجتمع ، فحدّثوا عن الإنسان الوحشي ووصفوا

الإنسان المذنب ، حتى إنه لم يرد خاطرُ مُعْظَمِ كتابنا أن يَطُنُّوا وجودَ حال الطبيعة لِمَا يظهر من مطالعة الكتب المقدسة كونُ الإنسان الأول أخذَ عن الله معارفَ وتعاليمَ من قَوْره فلم يكن في هذه الحال قَطُّ ، وأنه إذا ما اعْتُمِدَ على أسفار موسى التي يُعَدُّ كلُّ فيلسوفٍ نصرانيٍّ مَدِينًا لها وَجَبَ إنكارُ وجودِ الناس في الحال الطبيعية المَحْضِ حتى قبل الطوفان ما لم يكونوا قد وَقَعُوا فيها ثانيةً بفعل بعض الحوادث العجيبة ، فهذا الرأيُ الغريب مما يُورِثُ الدِّفاعُ عنه ارتباكاً ويتعذرُ إثباتُه تماماً .

ولنبدأ بطَرْحِ جميعِ الوقائعِ جانباً لعدمِ تناولها المسئلةَ مطلقاً ، ولا ينبغي عَدُّ المباحث التي تُتَخَذُ في معالجة هذا الموضوع من الحقائق التاريخية ، بل من البراهين الافتراضية الشرطية الصالحة للإلقاء نورٍ على طبيعة الأمور أكثرَ من صلاحها لإثبات أصلها الحقيقي والمشابهة للبراهين التي يأتيها كلُّ يومٍ طبيعيتُنا حَوْلَ تكوينِ العالمِ ، ويأمرنا الدين بأن نعتقد أن الله ذاته إذ أخرج الناس من حال الطبيعة قَوْرَ الخِلْقَةِ فإنهم يكونون متفاوتين لأنه أراد أن يكونوا هكذا ، غير أن الدين لا يمنعنا من وَضْعِ افتراضاتٍ مستنبطة من طبيعة الإنسان والموجودات المحيطة به فقط ، وذلك حَوْلَ ما كان يُمكن أن يَكُونَهُ الجنسُ البشريُّ لو بَقِيَ متروكاً لنفسه ، وهذه هي المسئلةُ المعروضةُ على ، وهذا ما أرى درسه في هذه الرسالة ، وبما أن موضوعي يُهِيمُ الإنسان على العموم فإنني سأحاول انتحالَ لهجةٍ تلائمُ جميعَ الأممِ ، وإن شئتَ فقلْ بما أننى أنسى الأزمنةَ والأمكنةَ لكيلا أَفْكَرُ في غيرِ الناس الذين أخطبهم فإننى أفترض نفسى في مدرسة أثينة مُكَرَّرًا دروسَ أساتذتى متخذاً أمثالَ

أفلاطون وإكزِينوقراط قضاةً والنوعَ البشرىً مستمعاً .
 فيا أيها الإنسان ، كُنْ من أىِّ بلدٍ شئتَ ، ولتكن آراؤك كما أردتَ ،
 واستمعْ ، فهذا هو تاريخك كما أرى قراءته ، لا فى كُتُب أمثالك الذين هم
 كاذبون ، بل فى الطبيعة التى لا تكذب مطلقاً ، وكلُّ ما يأتى من
 الطبيعة يكون صادقاً ، ولن تجدَ ما هو كاذبٌ غيرَ ما أضَعَه من عندى
 بلا قصد ، والأزمنةُ التى أتكلّم عنها بعيدةٌ إلى الغاية ، وما أكثرَ
 ما غيَّرتَ ما كنتَ عليه ! ولذلك فإن حياة نوعك هى التى أصِفُها لك
 وفوق الصفات التى نلتها والتى استطاعت تربيتك وعاداتك إفسادها ، ولكن
 من غير أن تقدِّرا على محوها ، ويوجد ، كما أحسُّ ، جيلٌ يَرجو
 الفردُ أن يقفَ عنده ، وأنت تَبَحِّث عن الجيل الذى تَوَدُّ وقوفَ نوعك
 عنده ، وبما أنك ساخطٌ على حالك الحاضرة لأسبابٍ تُنفِذِر عَقَبَكَ التَّعَسَّ
 بأعظم كَدَرٍ فإنك تريد القدرةَ على العود إلى الوراء على ما يحتمل ، فيجب
 أن يكون هذا الشعورُ ثناءً على أجدادك الأولين وانتقاداً لمعاصريك وهؤلاء
 لَمَن يُكْتَب لهم شقاء الحياة بعدك .

القسم الأول

لا أَتَّبَعُ نظامَ حالِ الإنسانِ الطبيعيةِ من خِلالِ نشوئِها المتعاقبِ مهما كان من المهمِّ أن يُنظَر إليها منذ أصلِها ، أى فى الجَنينِ الأولِ للنوع ، وذلك للحُكْمِ جَيِّدًا فى تلكِ الحال ، ولا أَقِفُ عند حَدِّ البَحْثِ فى النظامِ الحيوانىِّ عَمَّا يُمكن أن يَكُونَهُ هذا النظامُ فى البُدْءِ لِيُصْبِحَ ما هو عليه فى آخرِ الأمرِ ، فلا أسأل ، كما يَرى أرسطو ، هل كانت أَظافِرُهُ الطويلةِ مَخالبَ عُفْفًا فى أولِ الأمرِ ، وهل كان أَشْعَرُ كالدَّبِّ ، أو كان ، وهو يَمْشَى على أربعِ أرجلٍ « ٢ » ، لا يلاحظُ بِأنظارهِ المتجَهِّةِ نحو الأرضِ ، والمقصورةِ على أَفْقٍ يَضَعُ خُطواتِ ، طبيعةَ أَفكارِهِ وحدودَها معًا ، ولا أَستطيعُ أن أَكُونُ حَوْلَ هذا الموضوعِ غيرَ افتراضاتٍ مبهمَةٍ ، خياليةٍ تقريبًا ، ولم يَتَّفِقْ لِعِلْمِ التَّشْرِيحِ المقارَنِ غيرُ تَقَدُّمٍ قليلٍ ، ولا تَزَالُ مَلاحِظَاتُ الطَّبِيعِيِّينَ غيرَ ثابتَةٍ ، فلا يُمكنُ أن تُقَامَ على مِثْلِ هذه الأُسُسِ قاعِدَةٌ استدلاليةٌ متينةٌ ، وهكذا ، ومن غيرِ رجوعٍ إلى المعارفِ الخارقةِ للطبيعةِ التى هى لدينا حَوْلَ هذه النقطةِ ، ومن غيرِ نظَرٍ إلى التحوُّلاتِ التى لا بُدَّ من حدوثِها فى تكوينِ الإنسانِ داخِلًا وخارجًا ما طَبَّقَ أعضاؤه على منافعٍ جديدةٍ وَتَغَدَّى بِأطعمةٍ جديدةٍ ، أَفترضُ هذا التكوينَ فى كُلِّ زمنٍ كما هو عليه اليومَ ، وذلك أَنَّهُ سارَ فى كُلِّ وقتٍ على رجلينِ واستعملَ يديه كما نَصْنَعُ بِأرجلنا وأيدينا ، وأَنَّهُ وَجَّهَ أنظارَهُ إلى جميعِ الطبيعةِ وقاسَ السماءَ الواسعةَ بعينيهِ .

وَإِذَا ما جُرِّدَ هذا الكائنُ الذى كُونُ هَكَذَا من جميعِ المواهبِ الخارقةِ

للعادة التي استطاع كَيْلُهَا ، ومن جميع الخصائص المصنوعة التي لم يَقْدِر على اكتسابها إِلَّا بنشوء طويل ، والخاصةُ أَنَّهُ إِذَا مَا نُظِرَ إِلَيْهِ كَمَا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ حينَ خروجه من أيدي الطبيعة ، رأيتُ حيواناً أَقَلَّ قُوَّةً من بعضهم وَأَقَلَّ نشاطاً من الآخرين ، ولكن مع كونه أَحْسَنَ من الجميع نظاماً إِذَا مَا نُظِرَ إِلَيْهِ من كُلِّ وَجْهِ ، فَأَرَاهُ يَشْبَعُ تحت بَلُوطَةٍ وَيَرْتَوِي من أَوَّلِ جَدُولٍ وَيَجِدُ فراشه تحت ذات الشجرة التي أَمَدَّتْهُ بطعامه ، وهكذا تكون حاجاته قد قُضِيَتْ .

وفي كُلِّ خُطْوَةٍ تُقَدَّمُ الأَرْضُ المَتْرُوكَةُ لِحِصْنِهَا الطَبِيعِيِّ « ، والمستورة بغاباتٍ واسعةٍ لم تَقْطَعْهَا القَدُومُ قَطُّ ، مستودعاتٍ وملاجئٍ للحيوانات من كُلِّ نوعٍ ، ويلاحظُ الناسُ المُفَرَّقُونَ بينها صُنْعَهَا ويقتبسونه ، وَيَبْلُغُونَ حتى غريزةِ الحيوانات ، وذلك مع النفع القائلُ أَنَّهُ إِذْ لم يكن لكلِّ نوعٍ غيرُ غريزته الخاصة ، وبأنه إِذْ لم يكنُ للإنسانِ غريزةٌ خاصةٌ على ما يحتملُ ، فَإِنَّ الإنسانَ يَخْتَصُّ بالغرائرِ كُلِّهَا ، فيفتدى على السواءِ بِمُعْظَمِ الأَغْذِيَةِ « التي تقسمها الحيواناتُ الأُخْرَى ، وَيَجِدُ قُوَّتَهُ بِأَسْهَلِ مَا يستطيعه أَيْ واحدٍ منها . وَإِذَا تَعَوَّدَ الناسُ منذ صِبَاهُمْ عَدَمَ اعتدالِ الفصولِ وشِدَّتِهَا ، وَإِذَا تَمَرَّنُوا على التعبِ واضْطُرُّوا إِلَى الدِّفَاعِ عن حياتهم وصَيْدِهِمْ عُرَاةً عُرْلاً ، وذلكَ ضِدَّ الضَّوَارِي والسَّكَّائِرِ أَوْ فِرَاراً من غارتها ، فإنهم يكتسبون جِبِلَّةً قَوِيَّةً ، ثَابِتَةً تقريباً ، فَيَجْلِبُ الأَوْلَادُ إِلَى العَالَمِ بُنْيَانِ آبَائِهِم الرائعةِ وَيُقَوِّمُونَهَا بذات التمرينات التي أدَّتْ إِلَيْهَا ، وهكذا ينالون كُلَّ مَا يستطيعه النوعُ البَشَرِيُّ من متانة ، وهكذا تعاملهم الطبيعةُ كما كان قانونُ إسْپَارْطَةِ

يعامل أولاد المواطنين ، فتَجْعَل من هم حَسَنُو البُنيَّةِ أقوياء أشداء ، وَتُهْلِك جميع الآخرين ، وهى فى ذلك على خلاف مجتمعاتنا التى تَجْعَل الدولة فيها الأولاد عبئاً على الآباء فتقتلهم قبل ولادتهم بلا تمييز .

وبما أن بَدَنَ الإنسان الوحشى هو الآلة الوحيدة التى يَعْرِفُها فإنه يستعمله لأغراضٍ مختلفة تَعَجِزُ عنها أغراضنا لعدم الممارسة ، وصِنَاعَتُنَا هِى التى تَحْرِمُنَا البأس والنشاط اللذين تُسَكِّرُهُم الضرورةُ الإنسانَ على اكتسابهما ، ولو كانت لديه فأسٌ فهل كان زَنَدُهُ يقطع غُصُونًا قويةً جدًّا ؟ ولو كان لديه مِقْلَاعٌ فهل كان يَرْمِي يده حَجَرًا بِشِدَّةٍ بالغة ؟ ولو كانت عنده سُلْمٌ فهل كان يَنْمُلُ^(١) فى شجرةٍ بمثل تلك الخفة ؟ ولو كان عنده حِصَانٌ فهل كان يركض بمثل تلك السرعة ؟ دَعُوا للإنسان المتمدن من الوقت ما يَجْمَعُ فيه جميع هذه الآلاتِ حَوْلَهُ فإنه يَقْهَرُ الرجل الوحشى بسهولةٍ لا رَيْبَ ، ولكنكم إذا ما أردتم أن تَرَوْا بَرَازًا ، أَكْثَرَ تَفَاوُتًا فَاجْعَلُوها يتقابلان عاريين أعزَّلين ، فهناك لا تَلْبَسُونَ أن تَعْرِفُوا فائدةَ تَصَرُّفِ الإنسان فى جميع قُوَاهِ بلا انقطاع ، وفائدةَ استعدادِهِ لكلِّ حادث على الدوام ، أى كافيًا نَفْسَهُ نحوَ واحدٍ فى كلِّ حين " ٦ " .

وَيَزْعُمُ هُوَ بَرُّ أن الإنسان جسورٌ بحكم الطبيعة ، وهو لا يحاول غيرَ الهجوم والقتال ، والعكسُ ما يراه فيلسوفٌ مشهورٌ آخر ، وكذلك يُوكِّدُ كُونِبِرْ لَانْدُ وُيُونْدِرْفُ كونه لا شئ أخوفُ من الإنسان فى الحال الطبيعية ، فهو يرتجف ويستعدُّ للفرار دائماً عند أقلِّ صوتٍ يَقْرَعُهُ وأقلِّ حركةٍ

(١) نمَل فى الشجر : صعد .

يَشْعُرُ بها ، وقد يكون هذا تَجَاهَ الأشياء التي لَا يَعْرِفُهَا ، وَلَا أَشْكُ مطلقاً في خوفه من جميع المناظر الجديدة التي تَعْرِضُ له في كُلِّ مرة لَا يستطيع أن يُفَرِّقَ فيها بين الخير والشرِّ الطبيعيين اللذين يجب أن ينتظرهما منها ، وَلَا أن يقابل بين قُوَاهِ والأخطار التي تُتَلَاقِيهِ ، وهذه الأحوالُ نادرة في الحال الطبيعية ، حيث يسير كُلُّ شَيْءٍ بالغِ النَّمْطِية ، وحيث لَا يكون وجهُ الأرض خاضعاً مطلقاً لتلك التحولات المفاجئة الدائمة التي توجبها هنالك أهواء الشعوب المتحدة وتقلُّبُها ، ولكن بما أن الإنسان الوحشِيَّ يعيش متفرقاً بين الحيوانات ويَجِدُ نفسه بأكراً في حالٍ يَقيسُ نفسه بها فإنه لَا يُعْتَمَدُ أن يقوم بهذه المقايسة ، وهو إذ يُحِسُّ أنه يَفُوقُها حيلةً أَكْثَرَ من فَوْقِها إِيَّاهِ قوَّةً فإنه يتعلم أَلَّا يَخْشَاهَا بَعْدُ ، وَضَعُوا دُبّاً أو ذَنْباً أمام وحشِيٍّ قوِيٍّ نشيط جَسُورٍ ، كما عليه الجميع ، مسلَّحٍ بحجارة وهِرَاوَةٍ جيدة ، تَرَوْنَ كَوْنَ الخطر متقابلاً على الأقلِّ ، وَكَوْنَ الحيواناتِ المفترسة ، التي لَا تُحِبُّ مَهَاجَةً بعضها بعضاً مطلقاً ، قليلة الرغبة في مَهَاجَةِ الإنسان الذي تَجِدُهُ مفترساً مثلها ، وأما من حيث الحيواناتُ التي لها من القوة في الحقيقة ما هو أَكْثَرَ من حيلة الإنسان فإن الإنسان يكون تَجَاهَهَا في ذات الوضع الذي تكون عليه الأنواعُ الأخرى الأضعفُ منها والقادرةُ على البقاء مع ذلك ، وذلك مع قدرة الإنسان على اتِّخَاذِ ملجأٍ وتركه عند المِقابلة ، ومع خياره في الفِرَارِ أو القتال عند المِقابلة في كل مكان ، فضلاً عن استعدادهِ للرُكُضِ مثلها وعُثُورِهِ على ملجأٍ أمينٍ في الشجرة تقريباً ، وإلى هذا أَضِيفَ كَوْنَهُ لَا يُوجَدُ ، كما يَظْهَرُ ، حيوانٌ يَشْهَرُ الحرب على الإنسان عن طبيعَةٍ ، خَلَا الحالَ التي يكون فيها مدافعاً عن نفسه أو التي

يكون فيها جائعاً إلى الغاية ، وكونه لا يُبدى له تلك الكراهية التي تُنذر ، كما يلوح ، بأن أحد الأنواع مُعدّ ليكون ، عن طبيعة ، طعاماً لنوع آخر . وهذه ، لا ريب ، هي الأسبابُ في كَوْنِ الزوجِ والهَمَجِ لا يخافون الحيواناتِ المفترسةَ التي يُمكن أن يلاقوها في الغاب ، ويعيشَ كَرَّابُ فَنِيزُويلاً بين أخرى من هذه الناحية في أمانٍ مطلق ومن غير أدنى محذور ، وهم ، وإن كانوا عُرَّةً جميعاً تقريباً ، على رواية فرنسوا كورِيَّال ، يَعْرِضُونَ أَنْفُسَهُمْ في الغاب من غير احترازٍ مسلَّحين بقوس وسهم ، بَيِّدَ أنه لم يُسَمَّعْ قَطُّ افتراسُ الضواري لأحدٍ منهم .

وهناك أعداءٌ آخرون أشدُّ هَوْلًا ، فليس لدى الإنسان ذاتُ الوسائل للدفاع تجاههم ، وهؤلاء الأعداء هم : الأَسْقَامُ الطبيعية للطفولة والهَرَمُ والأمراضُ من كلِّ نوع ، أى هذه العلاماتُ الكثيرة لضعفنا والتي تُعدُّ الأوليان منها مشتركتين بين جميع الحيوانات والتي تُعدُّ الأخيرة منها خاصةً بالإنسان الذي يعيش في المجتمع ، حتى إنني ألاحظ ، في موضوع الطفولة ، أن اللأم ، إذ تَحْمِلُ ولدها معها حيثما كانت ، من سهولة تغذيته ما ليس لإناث كثيرٍ من الحيوانات التي تُضْطَرُّ إلى الذهاب والإياب بلا انقطاع مع كثيرٍ من التعب بحثاً عن غذائها من ناحية وإرضاعاً أو إطعاماً لصغارها من ناحية أخرى ، أَجَلٌ ، إن من الحقيقة أن المرأة إذا هَلَسَتْ حاق بالولد خَطَرُ الهلاك معها كثيراً ، غير أن هذا الخطر مشتركٌ بين مئةٍ من الأنواع الأخرى التي لا يكون صغارها من الحال ما تَبَحَّثَ معه عن غذائها بنفسها ، وإذا كان دَوْرُ الطفولة أكثرَ طولاً بيننا ، كانت الحياةُ أكثرَ طولاً أيضاً ، وتساوى

كلُّ شيء من هذه الناحية تقريباً "٧" وإن وُجِدَتْ حَوْلَ مدة الدَّوَرِ الأولِ وحَوْلَ عدد الصَّغار "٨" قواعدٌ أخرى ليست من موضوعي ، ويكون الناس في الشَّيْبِ أَقلَّ حركةً وعَرَفًا فَتَقِلُّ الحاجةُ إلى الطعام مع القدرة على تداركه ، وكما أن الحياة الوحشية تُبَعِّدُ النَّفْسَ والرَّثِيَّةَ منهم ، وكما أن الشَّيْبَ هو من جميع الأمراض ذلك الذي يكون أَقلَّ ما يُمكن العَوْنُ الإنسانيُّ أن يُخَفِّفَهُ ، تراهم يَزُولون في آخر الأمر من غير أن يَشْعُرَ الآخرون بذلك ، ومن غير أن يَشْعُرُوا هم أَنفُسُهُم بذلك .

وأما من حيث الأمراضُ فإنني لا أَكْرُرُ مطلقاً ما يقوم به مُعْظَمُ الأصْغَاءِ من تصرُّحاتٍ فارغةٍ باطلةٍ ضِدَّ الطَّبِّ ، ولكنني أسأل : هل تُوجَدُ مشاهداتٌ متينةٌ يُمكن أن يُسْتَنْبَطَ منها كونُ الحياة المتوسطة في البلدان التي يكون فيها فنُّ الطَّبِّ أَكْثَرَ الأمور إهمالاً أقصرَ مما في أَكْثَرِ البلدان عنايةً به ؟ وكيف يُمكن هذا أن يكون إذا كنا نَجْلِبُ لأنفسنا من الأمراض ما لا يستطيع الطَّبُّ أن يُجَهِّزَنَا بأدويته ؟

« إنَّ التفاوتَ المتناهي في طراز الحياة ، وفرطَ البطالة في أناسٍ وفرطَ العمل في الآخرين ، وسهولة تهيج شَهَوَاتِنَا ومَلَذَّنَا ، والأطعمة المَبْتَغَاةَ كثيراً من قِبَلِ الأغنياء فتغذِيهِم بالعُصَارَاتِ المسببة للحرارة وتُرْهَقُهُم بسوء الهضم ، وأغذية الفقراء السيئة التي تُعَوِّزُهُم في الغالب أيضاً والتي يَحْمِلُهُم عَدْمُهَا إلى إثقال مَعْدَتِهِم بِشَرِّهِ عند ما تَلُوح الفُرْصَةُ ، والسَّهَرَاتِ ، وأنواع الدَّعَارَاتِ ، وعدم الاعتدال في تبادل ضروب الأهواء ، ومتعاب النفس وضنَّاها ، وما لا يُحْصَى له عَدٌّ من الكُرُوبِ والرَّزَايا التي يَشْعُرُ بها في

جميع الأحوال والتي تَضَعُ بها النفوس ضَعْفًا مستمرًّا ، دلائلُ مشؤومةٌ على كَوْنِ مُعْظَمِ أمراضنا من صنعنا الخاصِّ ۞ فكان يُمكننا اجتنابُ جميعها تقريبًا بمحافظتنا على طراز العيش البسيطِ النَّمَطيِّ الانفراديِّ الذي كانت الطبيعة قد فرضته علينا ، وإذا كانت الطبيعة قد أَعَدَّتْنا لنكون أحماء فإنني أُجْرؤُ على القول بأن حال التفكير مناقضةٌ للطبيعة وأن الإنسان الذي يُفَكِّرُ حيوانٌ فاسدٌ ، وإذا ما نُظِرَ في نظام الهَمَجِ الصالح ، نظام هؤلاء الذين لم نُضَيِّعْهم بمشروباتنا الروحية ، وإذا ما عَلِمَ أنهم لا يَعْرِفون من الأمراض غيرَ الجروحِ والمَشِيبِ تقريبًا ، حُمِلَ على الاعتقاد بأن من السهل وَضْعَ تاريخٍ للأمراض البشرية يتتبع تاريخَ المجتمعات المدنية ، وهذا هو ، على الأقلِّ ، رأىُ أفلاطونَ الذي استنتج من أدويةٍ اسْتُعْمِلَتْ أو اسْتُحْسِنَتْ من قَبْلِ بُودَالِيزُوس ومَكَاؤُن في أثناء حصارِ تِرَوَادَة كَوْنِ كثيرٍ من الأمراض التي أثارها هذه الأدوية لم تكن معروفةً بين الناس ، ويروى سِلْسُوسُ كَوْنِ الحِمِيَةِ الضرورية جدًّا في الوقت الحاضر قد اختُرِعَتْ من قَبْلِ بقراط .

وبما أن الإنسان خاضعٌ لقليلٍ من عِلَلِ الأمراض في حال الطبيعة فإنه لا يكون محتاجًا إلى علاجاتٍ إِذَنْ ، وأقلُّ من ذلك احتياجهُ إلى أطباء ، ولا يكون النوعُ البشريُّ أسوأ من جميع الحيوانات الأخرى في هذه الناحية ، ومن السهل أن يُعرَفَ من الصائدين عن مصادقهم حيواناتٍ عليلَةٍ كثيرةٌ في أثناء صَيْدِهِمْ أولاً ، وكثيرٌ من الصائدين مَنْ يَجِدُون بين طرائدهم حيواناتٍ أُصِيبَتْ بجروحٍ بليغةٍ فاندَمَلت جيداً ، وحيواناتٍ كُسِرَتْ فيها عظامٌ ، أو قُطِعَتْ فيها أعضاء ، فعادت إلى حالها من غير أن يكون لها

(٤)

جراحى سوى الزمن ، ومن غير أن تتخذ من النظام سوى حياتها العادية فُشِفَت تماماً من دون أن تُؤْلَمَ بِبَضْعٍ أو أن تُسَمَّ بِعَقَاقِيرٍ أو أن تُنَحَلَ بِصِيَامٍ ، ثم مهما يُمَكِّن أن يكون للطبِّ الحَسَنِ العلاجَ بيننا من فائدةٍ فإن من الثابت دائماً أنه ليس لدى الممجيِّ المريض المتروك لنفسه ما يأمله من غير الطبيعة ، وأنه ليس لديه ما يخشاه مقابلةً من غير مرضه ، وهذا يجعله فى وضعٍ أفضل من وَضَعِنَا غالباً .

٧ ولنحتَرِزْ ، إِذَنْ ، من خَلَطَ الإنسان الوحشىِّ بِمَنْ نَراهم تحت عيوننا من الناس ، فالطبيعةُ تعامل جميع الحيوانات المتروكة لعنايتها باستحبابٍ يَدُلُّ ، كما يَلُوح ، على درجة اغتباطها بهذا الحق ، فللفَرَسِ والمهرِ والثورِ ، وللحمار أيضاً ، فى الغالب ، قوامٌ أَكْثَرُ علواً وُبَذِيَّةً أَشَدَّ قوَّةً ومُتانةً وجِلْدًا وبَاسًا فى الغابات مما فى بيوتنا ، وذلك أنها تَفْقِدُ نصفَ هذه المزايا عندما تُصْبِحُ أَهْلِيَّةً ، فَيُمْكِنُ أن يقال إن كلَّ اعتناء فى حسن معاملة هذه الحيوانات وتغذيتها لا يُوْدَى إلى غير إفسادها ، وَقُلْ مثلَ هذا عن الإنسان ، وذلك أنه عندما يصبح أنيساً وعبدًا يَصِيرُ ضعيفاً جباناً ذليلاً ، ومن شأن طراز عيشه الرِّغْدِ المُخَنَّثِ أن يُوْهِنَ قُوَّتَهُ وشجاعته ، وَلَنُضِفْ إلى هذا وجودَ فرقٍ بين الرجل الوحشىِّ والرجل المتمدن أ كَبَرٍ مما يَبيِّنُ الحيوان الوحشىِّ والحيوان الأهلِيَّ ، وذلك بما أن الطبيعة تعامل الإنسان والحيوان على السَّواءِ فإن ما يَمْنَحُهُ الإنسانُ نفسه من رَغْدٍ أَكْثَرٍ مما يَمْنَحُهُ الحيواناتُ التى يُوْنَسُّها يُعَدُّ أسباباً خاصةً فى انحطاطه أَكْثَرُ من انحطاطها . ٨

إِذَنْ ، ليس من شقاء هؤلاء الناسِ الأولين البالغِ ، وليس من العواقبِ

العظيمة في بقائهم على الخصوص ، أن يكونوا عُرَاةً عاطلين من المأوى محرومين جميع تلك الزوائد التي نعتقد أنها ضرورية جداً ، وإذا لم يكونوا ذوى جُلُودٍ شُعْرٍ فلعدم احتياجهم إليها في البلاد الحارة ، وهم لا يَلْبَثُونَ أن يَعْرِفُوا في البلاد الباردة اتِّخَاذَ جلود الحيوانات التي غَلَبُوهَا ، وإذا لم يكن لهم غيرُ رجلين للركض فإن لهم ذراعين للدفاع عن أنفسهم وتدارك احتياجاتهم ، ومن المحتمل أن يتأخر مشيُ أولادهم وأن يتعلموا المشيَ بِمَشَقَّةٍ ، غير أن أمهاتهم يَحْمِلُنَهُمْ بسهولة ، أى يَقْمَنَ بهذه المزية التي تُعَوِّزُ الأنواع الأخرى حيث تُضْطَرُّ الأمُّ عند ما تُتَبَّعُ أن تترك صغارها أو أن تسير على خُطُواتها ، ثم إن من الواضح في كلِّ حالٍ أن الأول الذي صنع لنفسه ثياباً أو أقام مسكناً يكون قد اتخذ لنفسه أشياء ضروريةً قليلاً ، ما دام قد استغنى عنها حتى ذلك الحين ولم يُبْصِرِ السببُ الذي لم يستطع به كإنسانٍ كاملٍ أن يحتمل حياةً صَبَرَ عليها منذ طفولته ، وذلك ما لم يَتَحَمَّلْ تسابقَ الأحوال الغريبَ العَرَضِيَّ الذي سأتكلم عنه فيما بعد والذي يُمَكِّنُ أنه لم يحدث قط .

وعلى الإنسان الوحشيَّ المنفرد البَطَّالِ والقريب من الخطر دائماً أن يُحِبَّ النوم ، وأن يكون نومُه خفيفاً ، كالحيوانات القليلة التفكير فتنام كلَّ الوقت الذي لا تُفَكِّرُ فيه مطلقاً ، وبما أن بقاءه الخاصَّ هو مدارُ عنايته الوحيدة فإنه يجب أن يكون أكثرَ خصائصه عملاً ما كان الدفاع والهجوم غَرَضَهُ الرئيس ، وذلك قَهراً لقنيصته أو ضماناً لعدم كونه قنيسةً حيوانٍ آخرَ ، وعلى العكس يجب أن تبقى الأعضاء التي لا تتكامل إلا بالنعومة والحسِّيَّة في حالٍ من الغِلْظَةِ ما يُبْعِدُ كلَّ نوع من الدقة فيه ، وبما

أن حواسه تكون مُقسَّمةً من هذه الناحية فإن اللمس والذوق يكونان غايةً في الغِلظة ويكون نظره وسمعه وشمه غايةً في الدقة ، وهذه هي حال الحيوان على العموم ، وهذه هي ، أيضاً ، حالُ الشعوب الوحشية كما يَروى السُّيَّاح ، وهكذا لا ينبغي أن يُعجَب من كون هُوتَنُتُو رأسِ الرجا الصالح يكتشفون بالنظر المُجرَّد سُفناً في البحر من بُعدٍ لا يراها الهولنديون فيه إلا بنظارات ، ولا من وحوش أمريكة الذين يَشْمُون الإِسْبانَ من أثر القَدَم كما يستطيع صنعَه أحسنُ الكلاب ، ولا من احتمال أُمم البرابرة عُرْيَتهم من غير مشقة ، ومن شَحَذِ ذوقهم بقوة الفلفل الأحمر ، ومن شربهم المسكراتِ الأوربيةَ كالماء .

ولم أنظُر إلى غير الإنسان الطبيعيِّ حتى الآن ، فلنَحاولُ أن ننظر إليه الآن من ناحية ما بعد الطبيعة ومن الناحية الأدبية .

١ ولا أبصر في كلِّ حيوانٍ غيرَ آلةٍ مُحَكَّمةٍ منحتمها الطبيعة حواساً لتدور بنفسها ولتضمَّن نفسها ، إلى درجةٍ ما ، تجاه كلِّ ما يُمكن أن يُفَوِّضها أو يُخِلَّ بها ، وأبصر بالضبط ذاتَ الأشياء في الآلة البشرية مع الفرق القائل إن الطبيعة وحدها هي التي تَصْنَعُ كلَّ شيء في أفعال الحيوان بدلاً من قيام الإنسان بأفعاله عاملاً حُرّاً ، وتختار إحدى الآلتين أو تَطْرَحُ عن غريزةٍ ، وتختارُ الآلةَ الأخرى أو تَطْرَحُ عن عملٍ حرٍّ ، ومن ثَمَّ لا يستطيع الحيوان أن ينحرف عن القاعدة المفروضة عليه وإن كان له نَفْعٌ في هذا الانحراف ، والإنسانُ يَنحَرِفُ عن مثل هذه القواعد في غير مصلحته ، وهكذا فإن حمامةً تموت جوعاً بجانب طَبَقٍ مملوء

بأطيب اللحوم ويموت هَرُثًا على كُدُسٍ من الفواكه أو الحبوب ، وإن استطاع كلُّ منهما أن يتغذَّى جيداً من الطعام الذى يزدريه إذا ما خطر بباله أن يحاول ذلك ، وهكذا فإن الناس الفاسقين ينهمكون فى الملاذ التى تُوقعهم فى الحمى والموت ، وذلك لأن النفس تُفسد الحواس ولأن الإرادة تتكلم حينما تسكت الطبيعة ✕

ولكلِّ حيوانٍ أفكارٌ ما دام يُوجد له حواسٌ ، حتى إنه يَخْلُطُ بين أفكاره إلى حدٍّ ما ، ولا يختلف الإنسان عن الحيوان من هذه الناحية إلا إلى حدٍّ ما ، حتى إن بعض الفلاسفة ذهبوا إلى وجود فرقٍ بين هذا الإنسان وذاك الإنسان أعظم مما بين هذا الإنسان وذاك الحيوان ، ولذلك ليس الإدراك هو الذى يَجْعَلُ الفرقَ النوعيَّ بين الإنسان والحيوان بمقدار العامل الحرِّ فى الإنسان ، والطبيعة تُقود كلَّ حيوانٍ ، والحيوان يُطيعها ، والإنسان يَبْتَلِي ذات العامل ، ولكن مع علمه بأنه حرٌّ فى الإذعان أو المقاومة ، وفى شعوره بهذه الحرية تَبْدُو روحيةٌ نَفْسِيَّةٌ ، وذلك أن الحكمة الطبيعية تُوضِّحُ من بعض الوجوه نظامَ الحواسِّ وتكوينَ الأفكار ، ولكنه لا يوجد فى قوة الإرادة ، وإن شئت فقلُّ فى قدرة الاختيار ، ولا يوجد فى الشعور بهذه القدرة ، غيرُ أفعالٍ روحية خالصة لا يُمكن أن يُفسَّرَ منها شئٌ بقوانين الميكانيك .

ولكنْ إذا كانت المصاعب التى تحيط بجميع هذه المسائل تترك مجالاً للجدلِ حَوْلَ هذا الفرقِ بين الإنسان والحيوان فإنه يُوجد صفةٌ أخرى بالغة النوعية تُفرِّق بينهما ولا يُمكن أن يكون جدالٌ حَوْلَها ، وهذه هى

خاصية التكامل ، هذه الخاصية التي تُنمى جميع الخصائص الأخرى تتابعاً بفعل الأحوال ، وتكمن في النوع كما تكمن في الفرد بيننا ، وذلك بدلاً من حال الحيوان الذي يَبْقَى مَدَى حياته ما كان عليه في نهاية بضعة أشهر من سِنِّه ، ومن حال جنسه في نهاية ألف سنةٍ ما كان عليه في السنة الأولى منها ، ولم يكن الإنسان وحده هدفاً للسخافة ؟ أليس ذلك لأن الإنسان يعود إلى حالته الأولى على هذا الوجه ولأن الإنسان الذي يَحْصُرُ عن مَشِيبٍ أو حوادثٍ أخرى كلَّ ما ناله باستعداده للكمال يَسْقُطُ إلى ما هو أحمقُّ من الحيوان نفسه مع أن الحيوان الذي لم يكتسب شيئاً ولم يَحْصُرْ شيئاً يبقى محافظاً على قوة غريزته ؟ إن من عوامل الغمِّ فينا أن نُضْطَرَّ إلى الاعتراف بأن هذه الخاصية الفارقة وغير المحدودة تقريباً هي مصدرُ جميع رَزَايا الإنسان ، وأنها هي التي تُخْرِجُه بفعل الزمن من تلك الحال الأصلية التي يقضى فيها أياماً هادئةً بريئة ، وأنها هي التي تُبْرِزُ مع القرون معارفه وأضاليه وعيوبه وفضائله فتجعله مع الزمن طاغيةً نفسه وطاغية الطبيعة^٩ ، ومن الفظاعة أن يُضْطَرَّ المرء أن يمدح كمحسنٍ ذلك الذي كان أولَ من أوحى إلى أهل ضِفَاف الأورنوك باستخدام الألواح على أصداغ أولادهم فتَضَمَّنْ لهم قسماً من سخافتهم وسعادتهم الأصلية على الأقل .

وبالوظائف الحيوانية الصَّرفة^{١٠} ، إذن ، يَبْدَأُ الإنسانُ الهمجيُّ الذي تَكَلُّهُ الطبيعةُ إلى الغريزة وحدها ، أو تَعَوُّضُه ، على الصحيح ، مما يُعَوِّزُه على ما يحتمل ، بخصائصٍ صالحةٍ لتقوم مقامها في البداءة ، ولترَفَعَه فوقها كثيراً فيما بعد ، وتَقُومُ على المشاهدة والشعور حاله الأولى التي تكون مشتركة

بينه وبين جميع الحيوانات ، وتكون الإرادة وعدم الإرادة والرغبة والرغبة أولى أعمال نفسه ، وتكون هذه الأعمال وحدها تقريباً ، وذلك حتى تؤدّى أحوال أخرى إلى نشوء جديد في خصائصه .

ومهما يُقُلُّ علماء الأخلاق يُعَدُّ الإدراكُ البشريُّ مَدِينًا كثيرًا للأهواء التي هي مدينةٌ كثيراً لهذا الإدراك أيضاً ، كما يُسَلَّمُ به على العموم ، وذلك أن عقلنا يتكامل بفاعلية الأهواء ، وذلك أننا لا نبحث عن المعرفة إلا لأننا نرغب في الاستمتاع ، فيتعذر علينا أن تتمثل السبب في كون الذي لا رغائب ولا مخاوف عنده يتكبّد مشقة التعقل ، والأهواء بدورها تجدُّ أصلها في احتياجاتنا ، وتجدُّ نشوءها في معارفنا ، وذلك لأنه لا يُمكن أن يُرغَبَ في الأشياء أو أن تُخشَى الأشياء إلا للأفكار التي يُمكن أن تدور حولها ، أو لاندفاع الطبيعة ، وإذ أن الإنسان الوحشيَّ محرومٌ كلّ نوع من الذكاء فإنه لا يَبْتَلِي غير أهواء هذا النوع الأخير ، ولا تَعْدُو رغائبه حدَّ احتياجاته الطبيعية^(١١) ، وكلُّ ما يَعْرِفه في السكون هو الغذاء والأثني والنوم ، وكلُّ ما يخافه من الشرور هو الألم والجوع ، وأقول الألم ، لا الموت ، لأن الحيوان لا يَعْرِف ما الموتُ مطلقاً ، فمعرفة الموت وأهواله هي من أول ما اكتسبه الإنسان بابتعاده عن الحال الحيوانية .

ويُسَهِّلُ على ، عند الاقتضاء ، أن أُوَيِّدَ هذا الشعور بالوقائع فأثبت أن تقدم النفس لدى جميع أمم العالم يتناسب وما أخذته الشعوب عن الطبيعة من الاحتياجات أو التي جعلتها الأحوال خاضعة لها ، ومن ثمَّ يتناسب والأهواء التي حَمَلَتْها على قضاء هذه الاحتياجات ، وإني إذ أُبَيِّنُ أن الفنون

تُولَدُ وتنتشر في مصرَ مع فيضان النيل أتبع تقدمها عند الأغارقة حيث رُئِيَ
نَبْتُهَا ونموُّها ونهوضها حتى السماواتِ بين رمال الأتْيَك وصَخْرِهِ من غير
أن تستطيع التأصلَ على ضِفَاف الأورُوتاسِ الخصبيةِ ، فألاحظ أن شعوبَ
الشمال أ كثرُ جدًّا من شعوب الجنوب على العموم ، وذلك لأنها أقلُّ
استغناءً من أن تكون هكذا ، وذلك كما لو كانت الطبيعة تؤدُّ أن تساوى
بين الأشياء بأن تمنح النفوس من الخصب ما تأباه على الأرض .

ولكن من ذا الذى لا يرى ، من غير رجوع إلى أدلة التاريخ المتقلبة ،
أن كلَّ شئ يُبعد من الإنسان الوحش كُلاً من الإغراء ووسائلِ تبديل
حاله كما يُلوح ؟ لا يُصوِّرُ خياله شيئاً له ، ولا يسأله قلبه شيئاً ، وتكون
احتياجاته الضئيلة من سهولة وجودها قبضةً يده ، ويكون من ابتعاده عن
درجة المعارف التى لا بُدَّ منها ليرغَبَ فى اكتساب ما هو أعظم منها ، ما لا يُمكن
أن يكون له معه حَذَرٌ ولا حُبُّ اطلاع ، ويفدُو غيرَ مكترثٍ لمنظر
الطبيعة لما يصير مألوفاً لديه ، وهو يُبصر فيه ذاتَ النظام وذاتَ التقلبات
دائماً ، وليس عنده روحُ الدَّهَش من أعظم العجائب ، وليس عنده ما يجب
أن يُبحث به عن الفلسفة التى يحتاج الإنسان إليها ليعرف أن يلاحظ مرةً
مارآه فى جميع الأيام ، وتُسَلِّم روحه التى لا يَهْزُها شئٌ نفسها إلى إحساس
وجوده الحاضر من غير أىِّ فكرٍ عن المستقبل مهما كان قريباً ، ولا تكاد
أغراضه المحدودة كآبصاره تمتدُّ إلى نهاية نهاره ، ولا تزال هذه درجة إدراك
الكرَّائبيِّ الذى يبيع فراشه القطنى صباحاً ويبيع مساءً لاشترائه ، وذلك
عن عدم بَصَرِهِ بأنه سيحتاج إليه فى الليلة القادمة .

وكما فُكِّرَ في هذا الموضوع عَظُمَتْ في نظرنا المسافةُ بين الإحساسات الخالصة وأبسطِ المعارف ، ومن المُحَال أن يُتَمَثَّلَ إمكانُ استطاعة الإنسان بقُوَّاه وحدَها ، ومن غير استعانةٍ بطريقٍ ومن غير دافعٍ ضرورةً ، أن يُجَاوِزَ مثلَ تلك الفاصلة ، وما أَكْثَرَ القرونَ التي مرَّت على ما يَحْتَمِلُ قبل أن يشاهد الإنسانُ ناراً غيرَ التي في السماء ! وما أَكْثَرَ ما وَجَبَ وقوعُه من مصادفاتٍ لَتَعْلَمُ أَكْثَرَ استعالي لهذا العنصرِ شيوعاً ! وما أَكْثَرَ ما تُرِكَ يُطْفَأُ قبل اكتسابِ صنعةٍ إنتاجه ثانيةً ! وما أَكْثَرَ ما زال ، على ما يَحْتَمِلُ ، كلُّ واحدٍ من هذه الأسرار بزوال الذي اكتشفها ! وما نقول عن الزراعة ، عن هذا الفنِّ الذي يتطلب عملاً كثيراً وحَذراً كبيراً ، عن هذا الفنِّ الذي يرتبط في فنونٍ كثيرةٍ أخرى ، والذي لا تَمُكِّنُ مزاولته في غيرِ مجتمعٍ مبدوءٍ على الأقلِّ كما هو واضحٌ جداً ، والذي لا يَنْفَعُ كثيراً في إخراجِ أَقْوَاتٍ من الأرضِ مُتَمِّدٌ بها من غير هذا إلاَّ بِحَمْلِها على إنتاجِ ما هو أَكْثَرُ ملاءمةً لذوقنا ؟ ولكن لنفترض أن الناس بلغوا من الكثرة ما عادت الإنتاجاتُ الطبيعيةُ معه غيرَ كافيةٍ لتغذيتهم ، هذا الافتراضُ الذي يدلُّ ، عند القولِ العابر ، على حياةٍ بالغةٍ النفعِ للنوعِ البشريِّ ، ولنفترض أن آلاتِ الفِلاحةِ نَزَلَتْ من السماء وصارت قبضةَ الهَمِجِ من غيرِ كِبَرٍ ^(١) ولا مَعْمَلٍ ، وأن هؤلاء الناسَ قَضَوْا على الحقدِ القاتلِ الذي يَحْمِلُونَهُ نَحْوَ عملٍ دائمٍ كذلك ، وأنهم تَعَلَّمُوا البَصَرَ في احتياجاتهم من أَمَدٍ بعيدٍ ، وأنهم حَزَرُوا كيف يجب أن تُحَرِّثَ الأرضُ وتُبَذَّرَ الحبوبُ وتُغْرَسَ الأشجارُ ، وأنهم

(١) الكبير : زق ينفخ فيه الخداد .

وَجَدُوا فَنَ طَحْنِ الْبُرِّ وَتَحْمِيرِ الْعِنَبِ ، أَى اتَفَقَتْ لَهُمْ جَمِيعُ هَذِهِ الْأُمُورِ
الَّتِي وَجِبَ أَنْ تَكُونَ الْآلَهُ قَدْ عَلَّمَتْهُمْ إِيَّاهَا مَا دَامَ لَمْ يُتِمَّمَلْ كَيْفَ تَعَلَّمُوهَا
بِأَنْفُسِهِمْ ، فَمَنْ يَكُونُ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ الَّذِي يُبْلَغُ مِنَ السَّخَافَةِ مَا يُزْعَجُ مَعَهُ
نَفْسَهُ بِزِرَاعَةِ حَقْلٍ تُنْزَعُ غَلَّاتُهُ مِنْ قَبْلِ أَوَّلِ آتٍ ، إِنْ سَانًا كَانَ أَوْ حَيَوَانًا ،
غَيْرَ مَبَالٍ بَعْنِ يَلَامُهُ هَذَا الْخِصَادُ ؟ وَكَيْفَ يُمَكِّنُ كُلَّ وَاحِدٍ أَنْ يَغْزِمَ
عَلَى قَضَاءِ حَيَاتِهِ فِي عَمَلٍ شَاقٍ يَثْقُ بِأَنَّهُ لَا يَنْتَالُ مُقَابَلَةً مَعَ اضْطِرَارِهِ إِلَيْهِ ؟
وَالْخِلَاصَةُ : كَيْفَ يُحْمَلُ النَّاسُ بِهَذَا الْوَضْعِ عَلَى زِرَاعَةِ الْأَرْضِ مَا دَامَتْ
غَيْرَ مُقَسَّمَةٍ بَيْنَهُمْ ، أَى مَا دَامَتْ حَالُ الطَّبِيعَةِ غَيْرَ مُنْعَاةٍ مُطْلَقًا ؟

وَمَتَى افْتَرَضْنَا وَجُودَ إِنْسَانٍ وَحْشِيٍّ بَارِعٍ فِي فَنِّ التَّفَكِيرِ كَمَا يُجْعَلُهُ لَنَا
فَلَا سَفْتُنَا ، وَمَتَى جَعَلْنَا مِنْهُ فِيلَسُوفًا عَلَى مِثَالِهِمْ قَادِرٍ عَلَى اكْتِشَافِهِ وَحْدَهُ أَعْلَى
الْحَقَائِقِ ، وَاضِعٍ بِسِلَاسِلَ مِنَ الْبَرَاهِينِ الْمَجْرَّدةِ جَدًّا مَبَادِيَّ عَدْلٍ وَعَقْلِ
مُسْتَنْبَطَةٍ مِنْ حُبِّ النِّظَامِ عَلَى الْعُمُومِ أَوْ مُقْتَبَسَةٍ مِنْ إِرَادَةِ خَالِقِهِ الْمَعْرُوفَةِ ،
وَالْخِلَاصَةُ أَنَّنَا إِذَا افْتَرَضْنَا لَهُ فِي النَّفْسِ مِنَ الذِّكَاةِ وَالثَّقَافَةِ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ
لَهُ ، فَيُوجَدُ فِيهِ ثِقَلٌ وَسُخْفٌ فَعَلًا ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ يَسْتَخْرِجُ النَّوْعُ مِنْ هَذِهِ
الْإِلَاهُوتِيَّاتِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُنْقَلَ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى آخَرَ وَالَّتِي تَزُولُ مَعَ
الَّذِي ابْتَدَعَهَا ؟ وَأَيُّ تَقْدِيمٍ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَّفَقَ لِلنَّوْعِ الْبَشَرِيِّ الْمُفَرَّقِ فِي الْغَابَاتِ
بَيْنَ الْحَيَوَانَاتِ ؟ وَمَا الْمَدَى الَّذِي يُمَكِّنُ النَّاسَ أَنْ يَتَكَامَلُوا فِيهِ وَيَتَدَقَّقُوا
مُقَابَلَةً ، هَؤُلَاءِ النَّاسَ الَّذِينَ كَانُوا عَاطِلِينَ مِنَ الْمَأْوَى الثَّابِتِ ، غَيْرَ مُحْتَاجٍ
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، فَلَا يَكَادُونَ يَتَلَقَّوْنَ مَرَّتَيْنِ فِي حَيَاتِهِمْ عَلَى مَا يَحْتَمَلُ ،
وَذَلِكَ مَعَ عَدَمِ تَعَارُفٍ وَتَحَادُثٍ ؟

وَلْيُنْعَمَ النَّظَرُ فِي مَقْدَارِ الْأَفْكَارِ الَّتِي تُعَدُّ مَدِينِينَ بِهَا لاسْتِعْمَالِ
الْكَلَامِ ، وَفِي مَقْدَارِ مَا تُدَرِّبُ بِالنَّحْوِ أَعْمَالُ النَّفْسِ وَتُسَهِّلُ بِهِ ، وَلْيُفَكَّرْ
فِي الْمَشَاقِّ الَّتِي لَا تُتَصَوَّرُ وَفِيهَا لَا حَدٌّ لَهُ مِنَ الزَّمَنِ تَمَنَّا لِاخْتِرَاعِ اللُّغَاتِ
الْأُولَى ، وَلْتَصَفْ هَذِهِ التَّأْمَلَاتُ إِلَى السَّابِقَةِ ، وَلْيُحْكَمْ فِي مَقْدَارِ مَا وَجَبَ مِنْ
أَلُوفِ الْقُرُونِ ، لِيُنْمَى فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ بِالتَّعَاقِبِ مَا كَانَتْ قَادِرَةً عَلَيْهِ
مِنَ الْأَفْعَالِ .

وَلْيُسَمَّحْ لِي بِالنَّظَرِ هُنَيْهَةً فِي عَوَاقِقِ أَصْلِ اللُّغَاتِ ، وَبِمُتَّكِنِي أَنْ
أَذْكُرَ ، أَوْ أَكْرَّرَ ، هَذَا مَبَاحَثَ الشَّمْسِ دُوْكَوْنْدِيَّاكَ الَّتِي قَامَ بِهَا حَوْلُ
هَذَا الْمَوْضُوعِ فَتَوْيِّدُ مِنْهَا جَى تَمَامًا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ كَانَتْ أَوَّلَ مَا أَوْحَى إِلَى
بِالْفِكْرَةِ الْأُولَى ، وَلَكِنَّهُ يَتَضَحُّ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي يَحْتَلُّ بِهِ هَذَا الْفِيلَسُوفُ
مَا يُبَيِّنُهُ مِنَ الْمَشَاكِلِ حَوْلَ أَصْلِ الْحَرَكَاتِ الْمَوْضُوعَةِ أَنَّهُ افْتَرَضَ مَا أَسْأَلُ
عَنْهُ ، أَيْ ضَرْبًا مِنَ الْمَجْتَمَعِ الْقَائِمِ بَيْنَ مُبْتَدَعِي اللُّغَةِ ، فَأَرَى ، حِينَ أُرَدُّ
إِلَى تَأْمَلَاتِهِ ، أَنْ أَضِيفَ تَأْمَلَاتِي لِأَعْرِضَ عَيْنَ الْمَشَاكِلِ عَلَى نُورٍ مَا يَنْسَبُ
مَوْضُوعِي ، وَأَوَّلُ مُشْكَلَةٍ تَظْهَرُ هُوَ أَنْ يُتَصَوَّرَ كَيْفَ أُمْكِنُ أَنْ تُصِيرَ اللُّغَاتُ
ضَرُورِيَّةً ، وَذَلِكَ بِمَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ النَّاسِ أَيُّ اتِّصَالٍ وَلَا أَيُّ احْتِيَاجٍ إِلَى
هَذَا الْإِتِّصَالِ فَإِنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ لَزُومُ هَذَا الْإِخْتِرَاعِ وَلَا إِمْكَانُهُ لَوْ كَانَ غَيْرَ
ضَرُورِيٍّ ، وَأَقُولُ كَأَخْرَيْنَ كَثِيرِينَ : إِنْ اللُّغَاتِ وَلَدَتْ مِنْ اخْتِلَاطِ الْآبَاءِ
وَالْأُمَهَاتِ وَالْأَوْلَادِ اخْتِلَاطًا أَهْلِيًّا ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْوَسِيلَةَ لَا تَحُلُّ الْمَشَاكِلَ
مُطْلَقًا ، وَهِيَ ، فَضْلًا عَنْ ذَلِكَ ، تَنْطَوِي عَلَى خَطَأٍ مِّنْ يُبَيِّنُهُنَّ حَوْلَ
حَالِ الطَّبِيعَةِ فَيَدْخُلُونَ إِلَى بَرَاهِينِهِمْ أَفْكَارًا اقْتُبِسَتْ مِنَ الْمَجْتَمَعِ ، فَلَا

يَنْفَسَكُونُ يَرْوُنَ الأسرة تعيش تحت سقف واحد ، وأن أفرادها يحتفظون فيما بينهم باتحادٍ وثيقٍ دائمٍ كما بيننا ، حيث تَجْمَعُ بينهم مصالحٌ كثيرةٌ مشتركة ، مع أنه لم يكن للناس في تلك الحالة الابتدائية منزلٌ ولا كوخٌ ولا مُلْكٌ من أى نوعٍ كان ، فيعيش كلُّ واحدٍ أينما وُجِدَ اتفاقاً ، وليلةٍ واحدةٍ في الغالب ، وكان الذكور والإناث يختلطون عَرَضاً وَفَقَ ما يَقَعُ من التقاء وفرصةٍ وميلٍ من غير أن يكون الكلام تَرْجَافاً ضرورياً كثيراً للأمور التي كان عليهم أن يُعَبِّروا عنها ، وكانوا يفترون بسهولة^{١٢} كالتي يجتمعون بها ، وكانت الأم تُرْضِعُ أولادها في البُداء عن احتياجٍ خاصٍ لها ، ثم جعلتهم العادةُ غالين فصارَت تُغْذِّيهم عن احتياجٍ فيهم ، وكانوا إذا ما أصبحوا من القوة ما يَبْحَثُونَ معه عن قُوَّتهم لم يُعْتَمَدُوا أن يتركوا الأمَّ نَفْسَها ، وبما أنه لم يكن من وسائل الالتقاء تقريباً غيرُ عدم الغياب عن العين فإنهم كانوا لا يتعارفون إذا ما تَلَاقَوْا ثانيةً ، ولاحظُ ، أيضاً ، اضطرارَ الولد إلى إيضاح جميع احتياجاته ، ومن ثمَّ وجودَ أمورٍ كثيرةٍ يقولها الولدُ لأمه أكثرَ من أن تقولها أمه له ، فكان عليه أن يقوم بأعظم جهودٍ للإبداع ، فوجب أن تكون اللغة التي يستعملها من صنعه الخاصِّ إلى حَدٍّ بعيدٍ ، وهذا ما يَجْعَلُ اللغاتِ من الكثرة بعدد الأفراد الذين يتكلمون بها ، وهذا مع وجوب زيادة تنوعها بما يأتونه من حياة التَّسَكُّعِ والتَّيَّهَانِ التي لا تترك لأية لغةٍ من الوقت ما تكتسب معه ثباتاً ، وذلك لأن القول بأن الأم تُمْلِي على الولد من الكلمات ما يجب عليه أن يستعمله ليسألها عن هذا الشيء أو ذاك

يدلُّ جيداً على الوجه الذى تُعَلِّمُ به اللغات التى تَمَّ تكوينها ، غير أن هذا لا يُوَضِّح كيف تَكُونُ .

ولنفترض أن هذه الكلمة الأولى مشكلةٌ ذُلَّتْ ، ولنجاوزُ للحظةٍ ما وَجَبَ وجودُهُ من مسافةٍ واسعةٍ بين الحال الطبيعية الخالصة والحاجة إلى اللغات ، ولنبحثُ بافتراضها ضرورةً « ١٣ » عن الوجه الذى استطاعت أن تبدأ به وتستقرَّ ، وهذه مشكلةٌ جديدةٌ أسوأ من السابقة أيضاً ، وذلك لأن الناس إذا كانوا محتاجين إلى الكلام ليتعلموا التفكير فإنهم أكثرُ احتياجاً إلى معرفة التفكير لإيجاد فنِّ الكلام ، وإذا ما أدرك الوجه الذى اتُّخِذَتْ به نَبَرَاتُ الصوت لتكون تراجمةً اتفافيةً لأفكارنا فإنه يبقى علينا ، دائماً ، أن نَعْرِفَ ما استطاع أن يَكُونُ تراجمةً هذا الاتفاق عن الأفكار التى ليس موضوعها محسوساً فتستطيع أن تدلَّ على نفسها بالحركة أو بالصوت ، وذلك أننا لا نكاد نستطيع أن نَضَعَ فَرَضِيَّاتٍ محتملةً حَوْلَ ظهور هذا الفن فى نقل الإنسان أفكاره وإقامةِ صلةٍ بين النفوس ، هذا الفنَّ العالى البعيد جداً من أصله ، ولكن مع كون الفيلسوف لا يزال يراه على مسافةٍ لا يُعْرِفُ مَدَاهَا بَعْداً من الكمال ، ولكن مع عدم وجود إنسانٍ بالغٍ من الجرأة ما يُوَكِّدُ عدم الوصول إليه مطلقاً ، ولو وَقِفَتْ نَفَعاً له ما يُوجِبُهُ الزمنُ من الانقلابات ، ولو أَقْصِيَتْ المُبْتَسِرَاتُ ^(١) عن الجامع الأدبية أو صَحَّتْ أمامها ، ولو استطاعت هذه الجامعُ أن تُعْنَى بهذا الموضوع الشائك فى قرونٍ كاملة بلا انقطاع .

وصوت الطبيعة هو اللغة الأولى للإنسان ، وهو أكثر اللغات انتشاراً ونشاطاً ، وهو الوحيد الذى احتاج إليه قبل وجوب إقناعه أناساً مجتمعين ، وبما أن هذا الصوت لم يُنْتَزَعِ إلّا بنوعٍ من الغريزة فى الأحوال الملحة التماساً للعون فى الأخطار العظيمة أو للتخفيف فى الأمراض العنيفة فإنه لم يكن كبير الاستعمال فى أثناء الحياة العادية حيث يسود أكثر المشاعر اعتدالاً ، ولَمَّا أخذت أفكار الناس تنتشر وتزيد وقامت بينهم صلة أشد إحكاماً بحثوا عن حركات أكثر عدداً وعن لغة أعظم انشاعاً فزادوا إمالات الصوت وأضافوا إليه من الحركات ما هو أكثر تعبيراً وما يكون معناه أقل توقفاً على تحديد سابق ، وبالحركات يُعبّر ، إذن ، عن الأشياء المنظورة والمتحركة ، وبالأصوات الماثلة يُعبّر عن الأشياء التى تَقَرَّع السَّمْع ، ولكن بما أن الحركة لا تدلّ على غير الأشياء الحاضرة أو التى يسهل وصفها وعلى الأعمال المنظورة ، وبما أنها ليست شاملة الاستعمال ما دام ظلام الجسم أو تداخله يجعلها غير ذات عمل ، وبما أنها تقتضى انتباهاً أكثر من إثارته ، فإنه رُئى فى نهاية الأمر أن تُستبدل بها مفاصل الصوت التى هى ، من غير أن تكون عين الصلة ببعض الأفكار ، أصلح لتمثيلها جميعها كإشارات مصطلح عليها ، واستبدال كهذا لا يمكن أن يتم إلّا باتفاق عامٍ وعلى وجهٍ يَضْعُب تطبيقه على أناسٍ لم تعود أعضاؤهم الغليظة ممارسته بعد ، وأصعب من ذلك أيضاً إدراكه فى ذاته ما وجب أن يكون ذلك الاتفاق الإجماعى مبرهنًا وما ظهر أن الكلام ضرورى إلى الغاية توطيداً لعادة الكلام .

ويجب أن يرى أن الكلمات الأولى التي استعملها الناس قد انطوت في روحها على معنى أكثر اتساعاً بما لم يكن للكلمات التي تُستعمل في اللغات القائمة ، وهي إذ تجهل تقسيم الكلام إلى أجزائه المتتابعة فإنها منحت في البداءة كل كلمة معنى جملةً بأجمعها ، وهي إذ أخذت تميز الفاعل من المفعول والفعل من الاسم ، وهذا ما لا يصدر عن جهد وضع من العبقريّة ، فإن الأسماء لم تكن في البداءة غير أسماء خاصة ، وإن الحاضر هو الزمن الوحيد للأفعال ، وأما النعوت فوجب أن تكون قد تقدّمت بصعوبة عظيمة ، وذلك لأن كل نعت هو كلمة مجردة ، ولأن المجردات أعمال شاقة غير طبيعية إلا قليلاً .

وقد نال كل شيء اسماً خاصاً في البداءة ، وذلك من غير نظر إلى الأجناس والأنواع التي لم يكن الواضعون الأولون ليفرقوا بينها ، وقد تمثّل جميع الأفراد لنفوسهم على أفراد كما في رسم الطبيعة ، وإذا كانت إحدى البلوطات تدعى (أ) وكانت الأخرى تدعى (ب) فإن الفكرة الأولى التي تستنبط من الأمرين هي أنهما ليسا عين الشيء ، فوجب في الغالب مرور زمن كبير لملاحظة ما هو مشترك بينهما ، وذلك أنه كلما كانت المعارف محدودة اتسع مدى المعجم ، ولم يكن من السهل أن يزال عُسر استعمال هذا المعجم ، وذلك لأن صفّ الموجودات تحت تسميات عامّة وجنسيّة كان يتطلب معرفة الخصائص والفرق ، كان يتطلب من الملاحظات والتعريفات ، أي من التاريخ الطبيعي وما بعد الطبيعة ، ما هو أكثر مما يمكن آدمي ذلك الزمن أن يحوزوه بمراحل .

ثم إن الأفكار العامة لا يُمكن أن تدخل في النفس من غير مساعدة الكلمات ، ولا يُمكن أن ينالها الإدراك من غير جُمل ، وهذا هو أحد الأسباب في عجز الحيوانات عن تكوين مثل هذه الأفكار واكتساب ما يتوقف عليها من كمال ، وإذا ما انتقل قِرْدٌ من جَوْزَةٍ إلى أخرى بلا ترددٍ فهل يُرى أنه كان لديه فكرةٌ عامة عن هذا النوع من الثمر وأنه يقابلُ مثاله بتيك الجوزتين ؟ كلا ، لا ريب ، غير أن منظر إحدى الجوزتين يَرُدُّ إلى ذاكرته من المشاعر ما أخذه عن الأخرى ، وتُخَيِّرُ عيناه ، اللتان عُدِّلتا على وجهٍ ما ، ذوقه بالتعديل الذي يوشك أن يصيبه ، وكلُّ فكرةٍ عامةٍ ذهنيةٌ ، ولا تَلَبِّثُ الفكرة أن تكون خاصةً إذا مازجها شئٌ من الخيال ، وإذا حاولتم أن ترسموا في ذهنكم صورةَ شجرةٍ على العموم لم تَبْلُغُوا غايَتكم قَطُّ ، فيجب أن تُرى ، على الرغم منكم ، صغيرةٌ أو كبيرةٌ ، عاريةٌ أو كثيفةٌ ، زاهرةٌ أو قاتمةٌ ، وإذا كنتم من الحال ما لا تَرَوْنَ معه فيها غيرَ ما هو مشتركٌ بين جميع الشجر عادت هذه الصورة لا تشابه شجرةً مطلقاً ، وتُبْصِرُ الموجوداتُ المجردة على ذات الوجه ، أو هي لا تَدْرِكُ بغير الكلام ، ومن ذلك أن تعريف المثلث يعطيك عنه فكرةً حقيقيةً ، فمتى جعلتم له صورةً في ذهنكم كان مثلاً خاصاً ، لا مثلاً آخر ، ولم يُمكنكم أن تجنبوا منحَه خطوطاً محسوسةً أو رسماً مُلَوَّناً ، ولذا يجب استعمال جُمْلٍ ، ولذا يجب الكلامُ ، لنيل أفكارٍ عامة ، وذلك لأن الخيال إذا ما وَقَفَ عاد الإدراك لا يسير بغير مساعدة الكلام ، ولذا إذا كان المبدعون الأولون لم يستطيعوا إطلاقَ أسماء على غير ما كان عندهم

من أفكارٍ فإن الأسماء الأولى لم تستطع أن تكون غير أسماء خاصة .
ولكن عندما أخذ نَحْوِيُونَا الجِدُّ يَنْشُرُونَ أفكارهم وَيُعَمِّمُونَ
كلماتهم بوسائل لا أتصورها وجب أن يؤديَ جَهْلُ المَبْدَعِينَ إلى حَصْرِ هذا
النهج ضمن حدودٍ ضيقةٍ جداً ، وبما أنهم كثَرُوا أسماء الأفراد في البدأة
إلى الغاية ، عن عدم معرفة الأنواع والأجناس ، فإنهم جعلوا أنواعاً وأجناساً
قليلةً إلى الغاية فيما بعد ، وذلك عن عدم نظرٍ إلى الموجودات من حيث
جميع فروقها ، وكان لا بُدَّ لهم من تجاربٍ ومعارفٍ أكثر مما كانوا يستطيعون
حيازته ، وكان لا بُدَّ لهم من مباحثٍ وجهودٍ أكثر مما كانوا يريدون
اتخاذها ، حتى يوسَّعوا نطاق التقسيمات إلى مدًى بعيد بدرجة الكفاية ،
والواقع أنه إذا ما اكتشفت في كلِّ يومٍ ، وفي يومنا أيضاً ، أنواعٌ
جديدة لم تلاحظ سابقاً فإن من الرأي أن يُنعمَ النظرُ في مقدار ما كان
قد غاب منها عن لا يحكمون في الأمور إلّا عن أول نظرةٍ ، ومن غير
الضروري أن يُضاف إلى هذا كونُ الأصناف الابتدائية وأكثرِ التصورات
عموماً قد غابت عن ملاحظتهم أيضاً ، وكيف كانوا ، مثلاً ، يتصورون
أو يسمعون كلمات : المادة والنفس والجوهر والنمط والشكل والحركة ، مادام
فلاسفتنا الذين يستعملونها منذ زمن طويل جداً يَجِدُونَ مشقةً في سماعها
بأنفسهم وما دامت الأفكار التي تُربط بهذه الكلمات خاصةً بما بعد الطبيعة
تماماً فلا يَجِدُونَ لها نظيراً في الطبيعة ؟

وأُقِفَ عند هذه الخطوات الأولى ، وألتمس من قضائي أن يُمسِكُوا عن
قراءتهم لِيَنْظُرُوا في اختراع الأسماء المادية ، أي في قسم اللغة الذي هو
(٥)

أُسْهَلُ ما يُوجَدُ ، وذلك أنه لا يزال يوجد طريق كبيرة تُسَلَكُ قَبْلَ أن يُعْبَرَ عن جميع أفكار الناس ، وقبل أن تَتَّخِذَ هذه الأفكارُ شكلاً ثابتاً يُعَرَّبُ به عن مقاصد الجمهور ويؤثّر في المجتمع ، وألتمس من قضائي أن يتأملوا فيما يَجِبُ من الوقت والمعارف لإيجاد الأعداد^{١٤} والأسماء المجردة والمضارع وجميع أزمنة الأفعال والحروف والتراكيب وربط الجمل ووجوه القياس وتأليف منطق الكلام ، وأما أنا ، وتُخِيفُنِي المصاعبُ التي تتكاثر وأقْنَعُ بما هو ثابتٌ تقريباً من استحالة ظهور اللغات واستقرارها بوسائل بشرية صِرْفَةٍ ، فادْعُ لمن يريد القيام بذلك أن يناقِش في هذه المسئلة الصعبة التي كانت أكثر الأمور لزوماً للمجتمع المرتبط في نظام اللغات ، أو لغات المختزعة المرتبطة في نظام المجتمع .

ومهما يكن من أمر هذه الأصول (للغات والمجتمع) فإنه يُرَى على الأقل ، من قلة عناية الطبيعة بتقريب بعض الناس من بعض باحتياجات متقابلة وتسهيلها استعمال الكلام ، مقدارُ قلة إعدادها لأنسهم ومقدارُ قلة ما وَضَعَتْهُ من ذاتها في جميع ما صنعوه إيجاداً لمِثْلِ روابط الاتحاد هذه ، والواقعُ أنه يستحيل تصورُ السبب في كون الإنسان في هذه الحال الابتدائية يحتاج إلى إنسانٍ آخرَ أكثرَ من احتياج القرد أو الذئب إلى آخر من نوعه ، ولا تصوّرُ السبب في حمل الآخر على قضاء هذا الاحتياج عند افتراضه ، ولا تصوّرُ وجه إمكان اتفاقهما على الشروط في هذه الحال الأخيرة ، وأعلم أنه يقال لنا مكرراً ، وبلا انقطاع ، إنه لم يكن مثل الإنسان بأُسْ في هذه الحال ، فإذا صَحَّ ما أعتقد إثباتي له من أنه لم يساوره مِثْلٌ

أو فرصة للخروج منها إلا بعد قرون كثيرة كان هذا قضية تُرفع على الطبيعة ، لا على الذى جَبَلْتَهُ هكذا ، وأما كلمة « بأُس » فلا أجد لها معنى أو إنها لا تعنى غير حِرْمانٍ أليمٍ أو ألمٍ فى الجسم والروح ، ومما أودُّ أن يُوَضَّحَ لى فى الواقع ما يُمكن أن يكون نوعُ البؤس فى شخصٍ حرٍّ يتمتع فؤاده بالسكون وبدنه بالصحة ، ومما أسأل : أى الأمرين ، الحياة المدنية أو الطبيعية ، يكون أكثرَ عدمِ احتمالٍ ، كما يَفْدُو ، لدى من يتمتعون بهما ، ولا نكاد نرى حَوْلَنَا غيرَ أناسٍ يتوجعون من حياتهم ، حتى إننا نرى أناساً كثيرين ينتزعونها ما استطاعوا ، ولا تكاد القوانين البشرية والإلهية مجتمعةً تَقِفُ هذا الاختلال ، ومما أسأل : هل سَمِعَ ، قطُّ ، أن همجياً طليقاً دار فى خَلده أن يشتكى من الحياة ففَقَلَ نفسه ، ولِيَنْظُرَ ، إذن ، مع قليلٍ زَهْوٍ ، فى الناحية التى يَأْتى البؤسُ الحقيقى منها ، وعلى العكس لا شئٌ أشدُّ بؤساً من الإنسان الوحشى الذى بهرته المعارف وأوجعته الأهواء باحثاً حَوْلَ حياةٍ مختلفةٍ عن حياته ، ويظهر أن العناية الرَّبَّانِيَّةَ البالغةَ الحكمةَ قضت بالألّا تَنْمُوَ الخصائصُ الحائِزُ لها إلا فى فُرْصٍ ممارستها ، وذلك لسيلا تكونَ زائدةً ثقيلةً قبل الأوان ، أو تكونَ متأخرةً لاغيةً عند الاقتضاء ، وقد كان يَسْكُنُ فى الغريزة وحدها كلُّ ما يحتاج إليه للعيش فى حال الطبيعة ، وليس له فى عقلٍ مثقَّفٍ غيرُ ما يحتاج إليه المجتمع .

ويَظْهَرُ أولَ وهلةٍ أنه لم يكن بين الناس فى هذه الحال أى نوع من الصلات الأدبية ، ولا واجبات معينة ، فيستطيعوا أن يكونوا صالحين

أو طالحين ، ولم تكن لديهم معائب ولا فضائل ، ما لم تؤخذ هذه الكلمات ضمن معنى مادي فتدعى معائب في الفرد الصفات التي يمكن أن تضر بقاءه الخاص ، وتدعى فضائل الصفات التي يمكن أن تساعد على بقاءه ، فيجب في هذه الحال أن يدعى الأكثر فضيلة الأقل مقاومة لاندفاعات الطبيعة ، ولكننا ، من غير أن نبتعد عن المعنى العادى ، نجد أن من المناسب أن نقف الحكم الذى نستطيع سؤقه حول مثل هذا الوضع وأن نحذر مبدئياً حتى يُبحث ، والميزان في اليد ، عن وجود فضائل أكثر من المعائب بين المتمدين ، أو عن كون فضائلهم أنفع من عدم شؤم معائبهم ، أو عن كون تقدم معارفهم تعويضاً كافياً من الشرور التي يأتونها مقابلةً بنسبة الخير الذى يجب أن يصنعوه ، أو عن كونهم ، إجمالاً ، في وضع لا يبذلون فيه أعظم سعادة في عدم وجود شرٍ يخشونه ، ولا خير يرجونه من أحد ، من خضوعهم لطاعة عامة ومن إلزامهم بتبيل كل شيء من أولئك الذين لا يلزمون أنفسهم بإعطائهم شيئاً .

ودعنا لا نستنتج مع هوبز ، على الخصوص ، كون الإنسان طالحاً بحكم الطبيعة لكيلا تتمثل فكرة الصلاح ، وكونه فاسداً لأنه لا يعرف الفضيلة ، وكونه يأبى على أمثاله دائماً خدماً لا يعتقد حقهم في طلبها ، ولا كونه يطلب ، عن حق ، كل شيء يحتاج إليه فيتصور ، عن حماقة ، أنه مالك جميع العالم ، وقد أصاب هوبز في ملاحظته نقص جميع التعريفات الحديثة للحقوق الطبيعية ، غير أن النتائج التي استخرجها من تعريفه تدل على اتخاذه هذا التعريف ضمن معنى ليس أقل خطأ ، وكان على هذا المؤلف ، حين

يُبْرَهَنُ حَوْلَ المبادئ التي وضعها ، أن يقول : بما أن حال الطبيعة هي الحال التي تكون فيها العناية ببقائنا أقلَّ ضرراً ببقاء الآخرين فإن هذه الحال كانت أنسبَ للسَّلم وأصلحَ للجنس البشريِّ ، والعكسُ هو ما قاله تماماً نتيجة قبوله قبولاً غير مناسبٍ ، وكجزء من عناية الإنسان الوحشِيِّ ببقائه ، قضاء طائفةٍ من الأهواء التي هي من عمل المجتمع والتي جعلت القوانين أمراً ضرورياً ، ومن قوله إن الإنسان الطالح هو ولدٌ قوىٌّ ، وبقي أن يُعرَف هل الإنسان الوحشِيُّ ولدٌ قوىٌّ ، وإذا ما أُعْطِيَ هذا فما عليه أن يستنبط ؟ وإذا كان هذا الإنسانُ القوىُّ تابعاً لآخرين اتَّباعه لهم عند ضعفه لم يُوجَدَ تَطَرُّفٌ لا يكون مذنباً به ، وليَضْرِبْ أمه إذا ما تأخرت عن إعطائه ثديها ، وليَخْنُقْ أحدَ إخوته الصغار إذا ما أزعجه ، وليَعْصَّ ساق أخٍ آخرٍ له إذا ما أقلقته ، فلا تنطوي هذه الأمورُ على غير افتراضين متناقضين في حال الطبيعة التي يكون فيها ذلك الإنسانُ قوياً وتابعاً ، ويكون الإنسان ضعيفاً عند ما يكون تابعاً ، وهو يكون طليقاً قبل أن يكون قوياً ، ولم يَرِ هُوْبُزُ أن ذاتَ العلةِ التي تَمْنَعُ الهَمَجَ من استعمال عقلمهم كما يَزْعُمُ فقهاؤنا تَمْنَعُهُمْ في الوقت نفسه من سوء استعمال خصائصهم كما يَزْعُمُ هُوْبُزُ نفسه ، فبذلك يُمكن أن يقال إن الهَمَجَ ليسوا طالحين لأنهم لا يَعْلَمُونَ معنى كونهم صالحين ، وذلك لأن سكون الأهواء وجهل العيب هما اللذان يَحْوِلَانِ دون صنعهم الشرِّ ، « فجهلُ العيب أكثرُ فائدةً للواحد من معرفة فضيلة الآخر^(١) » ، ثم يُوجَدُ مبدأ آخرُ لم يُبَصِّرْهُ هُوْبُزُ قطُّ ، وذلك :

(١) جويستان : التاريخ ، باب ٢ ، فصل ٢ .

بما أن الإنسان قد أُعْطِيَ ما يُلَطِّفُ به في بعض الأحوال قسوةً أنانيته
أو رغبته في البقاء قبل أن تولد هذه الرغبة "١٥" فإنه يُعَدَّل ما فيه من مُحيَا
البحث عن هئائه بنُفوره الفطريِّ من مشاهدة نظيره يَأْلَم ، ولا أُجِدُّ
ما أخشاه من تناقضٍ بذهابي إلى أن الإنسان حائِزٌ للفضيلة الطبيعية الوحيدة
التي لا يُمكن أن يُنْكَرَها أكثرُ الناس طعنًا في الفضائل البشرية ،
وأتكلم عن الرحمة ، عن هذا الأمر الملائم للأشخاص البالغين من الضعف
والمَعْرُوضين لكثير من الشرور كما نحن عليه ، عن هذه الفضيلة البالغة من
الشمول العظيم والنفع العميم للإنسان ما تَسْبِقُ فيه كلَّ تأمل ، عن هذه
الفضيلة البالغة من ملاءمة الطبيعة ما تُصْدِرُ معه حتى عن الحيوان أحيانًا
دلائلُ محسوسةً عليها ، وإني ، من غير قولٍ عن حَنَانِ الأمَّات على صغارها
وعن الأخطار التي تقتحمها لتصونها منها ، أقول إنه يُرى في كلِّ يومٍ نفورُ
الخليل من دَوسِ الأجسام الحية تحت سناكبها ، ويرى ، مع طيب خاطر ،
أن مؤلف قصة النحل المُلزَم بأن يَعْرِف الإنسان موجوداً رحيماً حَسَّاساً
يُخْرِجُ في المثال الذي أورده عن ذلك من أسلوبه العاثر الدقيق لِيُقَدِّمَ إلينا
صورةً مؤثرةً عن إنسانٍ سجينٍ يُبْصِرُ في الخارج حيواناً ضارياً يَنْزِعُ من
حِضْنِ أمِّه طفلاً فيَسْحَقُ بأنياه الفتَّاكة أعضاءه الضعيفة . ويُزَقِّقُ بمخالبه
أحشائه المختلجة ، فيالهُوَل ما يَشْعُرُ به شاهدٌ مثل هذا الحادث الذي لا يُهِمُّهُ
شخصياً ! ويا للجزع الذي يستحوذ عليه عند هذا المنظر حيث لا يستطيع
أن يقوم بأى عَوْنٍ للأَمِّ المَفْشِيِّ عليها ، وللطفل المُسَلِّمِ روحه !
وهذا هو انفعالُ الطبيعة الخالصُ السابقُ لكلِّ تأمل ، وهذه هي قوةُ

الحنان الطبيعي الذي لم يكذ أفسد الأخلاق يَقْضِي عليه ، وذلك لما يُرى كلَّ يومٍ في دورِ تمثيلنا من أناسٍ راحمين باكين تَعَسَّ شَقِيٍّ يَزِيدُ آلامَ أعدائه لو كان في مكان الطاغية ، وذلك كَسِيلَا السَّقَّاحِ الكثير الشفقة تجاه ما لم يُوجِبْهُ من البؤس ، أو إسكندرَ الفيرُوسى الذي لم يَجْرُؤُ على مشاهدة تمثيل أية مأساة خشية أن يُرى وهو يئنُّ مع أندرومَاك وبرِيام ، على حين كان يَسْمَعُ غيرَ راحمٍ صُراخَ مواطنين كثيرين يُدْبِحُونَ كلَّ يومٍ وَفْقَ أوامره ، « فالطبيعة تُصَرِّحُ بأنها أنعمت على النوع البشرى بأرقِّ القلوب عند من يَسْكُبُ لهم عِبَرَاتٍ » (١) .

أَجَلْ ، شَعَرَ مَانْدَفِيلُ جيداً بأن الناس مع جميع أخلاقهم لم يكونوا قَطُّ غيرَ غيلانٍ لو لم تَمُنَّ الطبيعةُ عليهم بالرحمة دَعْمًا للعقل ، بَيِّدَ أنه لم يَرَّ صدورَ جميع الفضائل الاجتماعية . التي يُنْكَرُ وجودها في الناس ، عن هذه الصفة الوحيدة ، والواقعُ ما المرُوءة والرحمة والإنسانية إن لم تكن الرحمة مُطَبَّقةً على الضعفاء أو المذنبين أو النوع البشرى على العموم ؟ حتى إن العطف والالطف ، عند حُسْنِ الحُكْمِ ، نتيجة رَأْفَةٍ ثابتة ، مستقرّةٌ على موضوعٍ خاصٍّ ، وذلك : هل تُعَدُّ الرغبةُ في عدم تألم الشخص شيئاً آخرَ غيرَ الرغبة في كونه سعيداً ؟ ومتى صَحَّ أن تكون الرأفة غيرَ شعورٍ يَضَعُنَا في مكان الذي يَأْلَمُ ، غيرَ شعورٍ غامضٍ حَادٍ عند الإنسان الوحشِ ، نامٍ مع ضعفٍ في الإنسان المتمدن ، فما تَجَلَّيْهِ هذه الفكرة إلى

(١) جوفينال ، أهاجى ، ١٥ ، ١٣١

حقيقة ما أقول إن لم يَكُنْ تأييداً له ؟ والواقع أن الرأفة تشتدُّ بنسبة مطابقة الحيوان الناظر للحيوان المتألم مطابقةً وثيقة ، ومن الواضح حقاً وجوب كون هذه المطابقة أكثر إحكاماً ، بما لا حدَّ له ، في حال الطبيعة مما في حال التعقل ، فالعقل هو الذى يُوجِدُ الأنانية ، والتأمل هو الذى يقوِّمها ، والعقل هو الذى يَلْوِي الإنسان على نفسه ، وَيَفْصِلُهُ عن كلِّ ما يُمكن أن يُزججه أو يُجزئه ، والفلسفة هي التى تَفْرِزه ، وبالفلسفة يقول سِرّاً عند رؤيته إنساناً متألماً : « إن شئتَ فاهلك » ، فأنا فى أمان » ، ولا يُوجدُ غيرُ أخطار المجتمع بأسره ما يُقْلِقُ الفيلسوف فى نومه ، أو يَنْزَعُهُ من فراشه ، ويُمكن أن يَذْبَحَ إنسانٌ تحت نافذته إنساناً آخرَ بلا عقاب ، وليس عليه إلّا أن يَضَعَ يديه على أذنيه وأن يُسَاجِلَ نفسه قليلاً لِيَمْنَعَ الطبيعة التى تَحَرَّكت فيه من أن تَتَمَثَّلَ فى الشخص الذى يَذْبَحُ ، ولا تَجِدُ عند الإنسان الوحشى هذا النبوغ العجيب ، وتَجِدُ الإنسان الوحشى يُسَلِّمُ نفسه فى كلِّ وقت ، وبلا رَوِيَّةٍ ، إلى أول شعورٍ إنسانى ، وترى الرَّعَاعَ يتجمعون فى الفِتنِ والمشاجرات والشوارع ، وترى الإنسانَ الفطينَ يبتعد عنها ، والأوباشُ ونساء الأسواق هم الذين يَفْصِلُونَ بين المتنازعين ويَحُولُونَ دون تذابيح ذوى الصلاح .

ومن الثابت ، إذن ، كَوْنُ الرأفة شعوراً طبيعياً يُعَدِّلُ فى كلِّ فردٍ نشاطَ حبِّ الذات فيساعد على بقاء كلِّ نوع بقاءً متقابلاً ، والرأفة هي التى تَحْمِلُنَا ، من غير تأملٍ ، على مساعدة مَنْ نراهم يألمون ، والرأفة هي التى تقوم فى الحال الطبيعية مقامَ القوانين والعادات والفضيلة ، وذلك مع مزيتها فى

عدم وجود أحدٍ يحاول عصيانَ صوتها العذب ، والرأفةُ هي التي
تَضَرِّفُ كُلَّ هَمَجٍ قَوِيٍّ عن اختطافه من ولدٍ ضعيفٍ أو من شائبٍ عاجزٍ
قُوَّتُهُ الذی ناله بمشقةٍ إذا ما أَمَلَ نَيْلَهُ في مكانٍ آخر ، والرأفةُ تَوْحِي
إلى جميع الناس بمبدأ الصلاح الطبيعيِّ القائل : « اصْنَعْ خيراً
نحو نفسك بأقلِّ شرٍّ ممكنٍ نحو الآخرين » ، وذلك بدلاً من المبدأ العالی
للعقل العَقْلِيَّ القائل : « عامل الآخرين بما تريد أن يعاملوك به » ، والذي
هو أقلُّ من الأول فائدةً على ما يحتمل وإن كان أكثر منه كمالاً ،
والخلاصةُ أنه يجب أن يُبْحَثَ في هذا الشعور الطبيعيِّ ، أكثر مما في البراهين
الدقيقة ، عن ذلك النفور الذي يُحِسُّهُ كُلُّ إِنْسَانٍ عند صنعهِ الشرِّ ،
ولو مستقلاً عن مبادئ التربية ، ومع أنه يعود على سُقْرَاطَ ومن هم على
شاكلته أمرٌ اكتساب الفضيلة بالعقل فإن الجنس البشريَّ كان يزول منذ
زمنٍ طويلٍ لو تَوَقَّفَ بقاءه على تعلقات من يتألف منهم .

ولم يكن الناس ، الذين هم هَمَجٌ أكثر من أن يكونوا أشراراً وأكثر
ميلاً إلى اجتناب الشرِّ الذي يُمكن أن يصيبهم من محاولتهم إصابة الآخرين
به ، عُرْضَةً لمنازعاتٍ بالغةٍ الخطر مع أهواء قليلة النشاط وزاجرٍ كثيرٍ
النفع ، وبما أنه لم يكن بينهم أيُّ تعاملٍ فإنهم لم يَعْرِفُوا زَهْواً ولا اعتباراً
ولا احتراماً ولا ازدراءً ، ولم يكن عندهم أدنى فكرةٍ عن « مَالِي » و « مَالِك » ،
ولا أيُّ رأيٍ حقيقٍ عن العدل ، وإنهم كانوا يَعُدُّون العنف الذي يُمكن
أن يعانوه شراً يَسْهُلُ تلافيه ، لا إهانةً يجب العقاب عليها ، وإنهم كانوا
لا يفسكرون حتى في الانتقام ما لم يكن آلياً وحالاً ، وذلك كالكلب الذي

يَعْصُ الحَجرَ الذي يُرْمَى إليه ، ولذا كان من النادر حدوثُ نتائجٍ دائمةٍ
لمنازعاتهم ، ما لم تَصْدُرْ عن أمرِ القُوتِ ، غيرَ أننى أبصِرُ ما هو أشدُّ
خطراً ، فَبَقِيَ لى أن أتكلّمَ عنه .

يُوجَدُ بين الأهواء التى تحرّكُ قلبَ الإنسانِ هَوًى ملتهبٌ صائلٌ يَجْعَلُ
كلَّ واحدٍ من الجنسينِ ضرورياً للآخر ، هَوًى هائلٌ يقتحمُ جميعَ الأخطارِ ،
ويَقْلِبُ جميعَ العوائقِ رأساً على عَقِبٍ ، وَيُلَوِّحُ صالِحاً فى صَوْلَانِهِ لتقويضِ
الجنسِ البَشَرِيِّ المُعَدِّ لِحِفْظِهِ ، وما يَحْدُثُ للناسِ الذين تَسَلَّطتْ عليهم
هذه الحُمَيَّا الجاحمةُ الجافيةُ الخالعةُ لِلْعِذَارِ والعاطلةُ من الاعتدالِ والى تُتَنَازَعُ
كلَّ يومٍ معاشقُهم على حسابِ دَمِهِمْ ؟

وأولُ ما يجبُ أن يُعْتَرَفَ به هو أن الأهواءَ كلما كانت عنيفةً أصبحت
القوانينُ ضروريةً لزجرها ، ولكنك إذا عَدَوْتَ ما تُوجِبُهُ هذه الأهواءُ بيننا
كلَّ يومٍ من ارتباكٍ وجرائمٍ وجدتها تدلُّ على عدمِ كفايةِ القوانينِ من
هذه الناحية ، ومن الحَسَنِ أيضاً أن يُبْحَثَ فى هل نشأت هذه الارتباكاتُ
مع القوانينِ نفسها ، وذلك لأن القوانينِ إذا ما استطاعت أن تَحُولَ دونَ
هذه الارتباكاتِ حينئذٍ فإن أقلَّ ما يُنْتَظَرُ منها منعُ وقوعِ شرٍّ ما كان
لَيُوجَدَ بغيرها .

ولنبداً بأن نَمَيِّزَ بين الأمورِ الأدبيةِ والبدنيةِ فى إحساسِ الحبِّ ،
فالبدنىُّ هو تلكِ الرغبةُ العامةُ التى تَحْمِلُ جنساً على الاقترانِ بجنسٍ آخر ،
والأدبىُّ هو الذى يُعَيِّنُ هذه الرغبةَ وَيُقَرِّئُها على أمرٍ واحدٍ حصراً ، أو هو
الذى يَمْنَحُ هذا الأمرَ المُفْضَلَ ، على الأقلِّ ، درجةً بالغةً من النشاطِ ،

والواقعُ أن من السهل أن يُرى كَوْنُ أدبِ الحبِّ شعوراً مصنوعاً نشأ عن عادة الاجتماع ، وكونه رُوِّجَ من قِبَلِ النساءِ مع كثيرٍ من البراعة والعناية تأييداً لسلطانهنَّ وجعلاً للجنسِ المُلزَمِ بالطاعة مسيطرأ ، وبما أن هذا الشعور قائمٌ على بعضِ مبادئٍ للجمال والمزية لا يكون الهمجىُّ معه فى وضعٍ يستطيع أن يناهها فيه ، وعلى مقاييسٍ لا يكون معها فى وضعٍ يستطيع أن يصنعها فيه ، فإنه يجب أن يكون فى حُكْمِ العَدَمِ تقريباً بالنسبة إليه ، وذلك بما أن نفسه لم تستطع أن تُكوِّنَ أفكاراً مُجرَّدةً فى الوفاق والنسبة فإن فؤاده لا يتأثر كذلك بمشاعر الإعجاب والحبِّ التى تُولَدُ من تطبيق هذه الأفكار حتى من غير أن يُشعرَ بها ، وهو يَسْمَعُ ، فقط ، ما ألقته الطبيعة فيه من مزاج ، لا الذوق الذى لم يستطع اكتسابه ، فتكونُ كلُّ امرأةٍ صالحةً له . والناسُ ، إذ يقتصرون على الحبِّ البدنى ، ويكونون من السعادة ما يجهلون معه هذه المُفضَّلاتِ التى تهيج الإحساسَ وتزِيدُ المصاعبَ فيهم ، يجب أن يكون شعورهم بحرارة المزاج أقلَّ حدوداً ونشاطاً ، ومن ثمَّ يجب أن تكون المنازعاتُ بينهم أكثرَ نُدرَةً وأقلَّ قسوةً ، وما كان الخيالُ الذى يَفُتُّ فينا كثيراً ليخاطب القلوبَ الوحشية مطلقاً ، فكلُّ ينتظر اندفاع الطبيعة بهدوء ، وهو يَفْرُغُ لها من غير خيار ومع لذةٍ أعظمَ من الصَّولة ، فإذا قُضِيَ الوَطَرُ خَدَّتِ الرغبة .

وما لا رَيْبَ فيه ، إذن ، كونُ الحبِّ نفسه ، كجميع الأهواء ، لم يَنْبَلُ فى غير الاجتماع تلك الحرارة الصائلة التى تجعله شَوْماً على الناس غالباً ، ومن موجبات السُّخْرية كثيراً أيضاً أن يُعرَضَ الهمجُ مُتداعجين بلا انقطاع

إرواء لُغْلَةٍ بِهَيْمِيَّتِهِمْ لمخالفة هذا الرأي للتجربة مباشرة ، ولأن الكرايب ،
وهم أقل الشعوب الموجودة ابتعاداً عن الحال الطبيعية حتى الآن ، هم أكثر
الشعوب هدوءاً في حُبِّهم وأقلهم غيرةً ، وإن كانوا يعيشون في إقليم مُحْرِقٍ
يُظْهِرُ أنه يَمْنَحُ هذه الأهواء نشاطاً بالغاً على الدوام .

وأما من حيث الاستقراءات التي يُمكن الوصول إليها في كثير من
أنواع الحيوان عن الوقائع التي تُدْمِي أحواش دجاجنا في كل وقت ،
أو التي تُدَوِّي بأصواتها غاباتنا أيام الربيع حيناً تتنازعُ الإناث ، فيجب أن
يُبدَأُ باستثناء جميع الأنواع التي جعلت الطبيعة بينها ، في قوة الأجناس
النسبية ، علاقاتٍ تختلف عن التي بيننا كما هو واضح ، وهكذا لا يصلح
ما بين الدُّيُوك من عِرَالٍ أن يَكُون استقراء للنوع البشري ، ففي الأنواع
التي تُحَسِّنُ مراعاة النسبة فيها لا يكون لهذه الوقائع أسبابٌ غيرُ نُذْرَةِ الإناث
بالقياس إلى الذكور ، أو الفواصل المانعة التي تأتي الأُنثى فيها اقترابَ الذكر
باستمرار ، وهذا ما يُرَدُّ إلى السبب الأول ، وذلك لأن كل أنثى
إذا كانت لا تَقْبَلُ الذكر في غير شهرين من السنة فإن هذا يَعْدِلُ نَقْصَ
عددِ الإناث خمسة أضعاف ، والواقع أن كلاً من الحالين لا يُطَبَّقُ على
النوع البشري حيث يزيد عدد الإناث على عدد الذكور عادةً ، وحيث
لم يلاحظ قط ، حتى بين الهمج ، وجودُ أوقاتٍ معينة للأهواء وعدمِ
المبالاة كما بين الحيوانات الأخرى ، ثم إنه يأتي بين كثير من هذه
الحيوانات ، وحين دخول جميع النوع في دَوْرٍ من الهيجان ، وقت هائلٌ
لِلوَلَعِ الشامل وللضوضاء والفوضى والاعتراك ، وقتٌ لا عهد به للنوع البشري

الذى لا يكون الحبُّ عنده دَوْرِيًّا على الإطلاق ، ولذلك لا ينبغي لنا أن نستدلَّ من وقائع مثل هذه الحيوانات لحياةٍ نساء اتفاق ذات الأمر للإنسان في حال الطبيعة ، حتى إنه إذا أمكن استنباطُ هذه النتيجة أبصرَ أن هذه المنازعات لا تَقْضَى على الأنواع الأخرى مطلقاً ، فلا يكون لدينا سببٌ يَحْفِزُنَا إلى التفكير في كونها أكثرَ شؤماً على نوعنا ، ومن الواضح جداً كونها تؤدي إلى تخريبٍ في ذلك أيضاً أقلُّ مما تؤدي إليه في المجتمع ، ولا سيما البلدانُ التي تُعدُّ الطبائعُ فيها شيئاً مذكوراً فنُسْفِرُ غَيْرَةَ العُشَاق وانتقامُ الأزواج في كلِّ يومٍ عن مبارزاتٍ ومَقَاتِلٍ وشرٍّ من ذلك ، والتي لا يَنْفَعُ فيها واجبُ الوفاء الأزلِّي لغير الزَّنا ، والتي تَنْشُرُ قوانينُ العَقَافِ والشرف نفسها ضروبَ الدعارة بحكم الضرورة وتزِيدُ الإجهاضات .

ولنستنتج كونَ الإنسان الوحشِيَّ ، وهو يَطُوفُ في الغاب عاطلاً من الصَّنَاعَةِ والكلامِ والمسكنِ والحربِ والرابطة ، ومن أيِّ احتياجٍ إلى أمثاله ، ومن أية رغبةٍ في الإضرار بهم ، ومن تمييزٍ أيِّ واحدٍ منهم فردياً على ما يحتمل ، كونَ هذا الإنسانِ الذي هو عُرضَةٌ لقليلٍ من الأهواء والذي يكفي نفسه بنفسه ، لم يكن عنده غيرُ المشاعرِ والمعارفِ الخاصة بهذه الحال ، ولنستنتج أنه لم يكن ليشعرَ بغير احتياجاته الحقيقية ، وأنه لم يكن لينظرَ إلى غير ما يعتقد وجودَ مصلحةٍ له في رؤيته ، وأن ذكاه كان لا يتقدم أكثرَ من زهوه ، فإذا ما قام باكتشافٍ مصادفةً كان أقلَّ مَنْ يُمْكِنُهُ نقلُهُ إلى الآخرين ما دام لم يَعْرِفْ حتى أولاده ، وكان كلُّ فنٍّ يزول مع المخترع ، وكان لا يُوجَدُ تربيةٌ ولا تقدم ، وكانت

الأجيال تتعاقب على غير جدوى ، وكان كلُّ جيلٍ يسير من ذات النقطة دائماً ، وكانت القرون تمرُّ ضمنَ بربريةِ الأجيال الأولى ، وقد أصبح النوع مسنّاً والإنسانُ ولدًا .

وإذا كنتُ قد أسهبتُ كثيراً في افتراض هذه الحال الابتدائية فلوجود أضاليل قديمة كثيرة ومبتسرات متأصلة يجب اقتلاعها ، ولاعتقادي وجوب بحثي حتى الجذور وإثباتي في صورة صادقة لحال الطبيعة مقداراً بعدُ التفاوت ، حتى الطبيعي ، من أن ينطوى في هذه الحال على حقائق ونفوذ يفترضهما كتابنا .

والحقُّ أن من السهل أن يُرى بين الفروق التي تميزُ الناسَ كثيرٌ يُعدُّ طبيعياً مع أنه من صنع العادة وصُنِعَ أنواع الحياة التي ينتحلها الناس في المجتمع ، وهكذا فإن المزاج المتين أو القَصِف ، وإن القوة أو الضعف اللذين يُشتَقَّان منه ، يصدُران في الغالب عن الطراز الشديد أو المُخَنَّث الذي نُشئُ عليه أكثرُ مما عن نظام الأبدان الابتدائي ، وقُلْ مثلاً هذا عن قُوَى النفس ، فليست التربية وحدها هي التي تَصْعُ الفرق بين النفوس المُتَقَفَّة وغير المُتَقَفَّة ، وإنما تَزِيدُ الفرق الذي يوجد بين الأولى بنسبة الثقافة ، وذلك لأن العملاق والقزَم يسيران على ذات الطريق ، ولأن كلَّ خطوة يقوم بها كلُّ منهما تُنْعِم على العملاق بفائدة جديدة ، والواقعُ أنه إذا ما قيسَ تنوعُ التربية العجيبُ وأنواعُ الحياة التي تَسُوذُ مختلفَ نُظُمِ الحال المدنية ببساطة الحياة الحيوانية والوحشية ونمطيتها حيث يفتذى الجميع من ذات الأطعمة ويعيش على ذات الوجه ويَصْنَعُ عينَ الأشياء تماماً أدرك

مقدارُ ما يجب أن يكون عليه الاختلافُ بين الإنسان والإنسان في حال الطبيعة أقلَّ مما في حال المجتمع ، ومقدارُ التفاوت الطبيعيُّ الذي يجب أن يزيد في النوع البشريُّ بتفاوت النظام .

يَبْدُ أن الطبيعة إذا ما أبدت في توزيع هباتها من المحابة ما يُعزَى إليها فأى فائدة ينال من ذلك أكثرُ الناس حُظوةً لديها إجحافاً بالآخرين في حال من الأمور لا يكاد يقول بأى نوعٍ من الصلات بينهم ؟ وما نفعُ الجمال حيث لا يُوجدُ حُبٌّ مطلقاً ؟ وما نفعُ الذكاء لأناس لا يتكلمون مطلقاً ؟ وما نفع الحيلة لأناس ليس لديهم أعمالٌ مطلقاً ؟ وما أسمعُ تكررهِ دائماً كونُ الأقوياء يضطهدون الضعفاء ، ولكن ليُشرَح لي ما يُعنى بكلمة الاضطهاد ، ويُسيطر بعضهم بعنفٍ ، ويئس الآخرون المُعبَّدون لأهوائهم ، وذلك ما ألاحظ بيننا تماماً ، ولكنى لا أرى كيف يُمكن هذا أن يقال عن أناس من الهمج لم يسهلْ جعلهم يتصوَّرون ما نَعْنى بالسيطرة والعبودية ، أَجَلْ ، يُمكن إنساناً أن يستولى على فواكه اقتطفها إنسانٌ آخر ، وعلى قنينةٍ ذبحها ، وعلى كهفٍ اتخذهُ ملجأً ، ولكن كيف يمكنه أن يكون قادراً على حمله على الطاعة ؟ وأى قيودٍ للتابعة يُمكن أن تكون بين أناس لا يملكون شيئاً ؟ وإذا ما طُرِدَتْ من شجرةٍ مثلاً أمكننى أن أذهب إلى أخرى ، وإذا ما أُذِيتُ في مكانٍ فمن ذا الذى يمنعنى من الذهاب إلى مكانٍ آخر ؟ وإذا ما وُجِدَ إنسانٌ أقوى منى ، إنسانٌ على شئٍ من الفساد والكسل والقسوة ما يَحْمِلُنِي معه على تدارك قوته في أثناء بطالته ، وَجَبَ أن يَعِزَم على عدم غفوله عن طرفة عين ، وعلى

إمساكى مُقَيِّداً بعناية فائقة في أثناء نومه ، وذلك خشية أن أفرَّ أو أن أقتله ، أى أن يُلْزَمَ بَعَرَضِ نفسه مختاراً لمشقةٍ أعظمَ من التى يريد اجتنبها ومن التى يريد توجيهها إلى ، وإذا ما قُتِرَ حَدَره ثانيةً بعد جميع هذا وحَوَّلَ رأسه لصوت مفاجئ ، أو غَلَّتْ في الغابة عشرين خُطوةً ، وُكْسِرَ قيودى ، ولن يرانى مدى حياته .

وإنى ، من غير إسهابٍ في هذه الجزئيات على غير جَدْوَى ، أرى وجوبَ بَصَرٍ كُلِّ واحدٍ في كون روابط العبودية لم تُؤَلَّفَ من غير اتباع بعض الناس لبعضٍ اتباعاً متقابلاً ومن الاحتياجات المتبادلة التى تَصِلُ ما بينها فَيَتَمَذَّرُ استعبادُ إنسانٍ من غير سابقٍ وَضَعٍ له في حالٍ من لا يَسْتَعْنِي عن آخر ، أى وَضَعٍ لا يوجد في حال الطبيعة حيث يكون كلُّ واحدٍ سيدَ نفسه ولا يكون لقانون الأقوى أىُّ عمل .

وإنى ، بعد أن أثبتُّ أن التفاوت لا يكاد يُشْعَرُ به في حال الطبيعة وأن نفوذه فيها يكون صِفْراً تقريباً ، بَقِيََ علىَّ أن أُبَيِّنَ أصله وتقدُّمه في نشوء الروح البشرية نشوءاً متعاقباً ، وإنى ، بعد أن بينتُ أن الكمال والفضائل الاجتماعية وغيرها من المزايا التى تكون كامنةً في الإنسان الفطرى لا تستطيع أن تَنُمُوَ من تلقاء نفسها ، وأنها كانت تحتاج ، لوقوع هذا ، إلى تضافرِ عواملٍ كثيرةٍ غريبةٍ تضافراً عَرَضِيّاً ، فكان يُمَكِّنُ ألا تَظْهَرَ ، وكان الإنسان يَظَلُّ بدونها في حاله الابتدائية إلى الأبد ، بَقِيََ علىَّ أن أنعم النظر فأقَرَّبَ بين مختلف المصادفات التى استطاعت أن تُكْمِلَ العقل البشرى يَافِساد النوع وأن تُحوِّلَ الإنسان إلى شَرِيرٍ يجعله اجتماعياً ، وأن

تَجَلُّبُ الإنسانَ والعالمَ في نهاية الأمر ، ومنذ زمنٍ بعيدٍ ، إلى النقطة التي نراها فيها .
وبما أن من الممكن أن تكون الحوادثُ التي أَصِفُها قد وقعت على
وجوهٍ مختلفة فإنني أعترف بأنه ليس لدىَّ غيرُ الفَرَضِيَّاتِ ما أُعَيِّنُ به
خِيَارِي ، بَيِّدَ أن فَرَضِيَّاتٍ كهذه تُصَبِّحُ أسباباً عندما تكون أَرْجَحَ ما يمكن
استنباطه من طبيعة الأمور ، والوسائل الوحيدة لا اكتشاف الحقيقة ، ومع
ذلك فإن النتائج التي أريد استخراجها ليست فَرَضِيَّةً ، ما تَعَذَّرَ وَضْعُ أية
نظريَّةٍ أخرى ، بناءً على المبادئ التي أَقَرُّها ، لا تُمَدِّدُنِي بذات النتائج
ولا أستطيع أن أستنبطها منها .

وهذا يُغْنِيَنِي عن جَعْلٍ تَأْمَلَاتِي شاملةٍ للأسلوب الذي يُعَوِّضُ به مرورُ
الزمن من قلة احتمال وقوع الحوادث ، وللقدرَةِ العجيبة في العللِ التافهة عند
تأثيرها بلا مَهْلٍ ، وَلِتَعَذَّرَ تَقْضِيُ بعض الافتراضات من ناحيةٍ وإن كنا
لا نستطيع أن نُعْطِيَهَا ، من ناحيةٍ أخرى ، درجةً ثبوت الوقائع ، ولكونه
يَدْخُلُ ضمن نطاق التاريخ ، لدى وجوده ، وعندما يُظْهَرُ من الوقائع
أمران على أنهما حقيقيان فيَرْبُطُ بينهما بسلسلةٍ من الوقائع المتوسطة المجهولة
أو المُفْتَرَضِ أنها كذلك ، أن يَمْنَحَ الوقائعَ التي تَرْبُطُ بينهما ، ولكونه
يَدْخُلُ ضمن نطاق الفلسفة ، عند سكوت التاريخ ، أن تُعَيِّنَ الوقائعَ
المماثلة التي يُمَكِّنُ أن تَرْبُطُ بينهما ، ثم لكون المشابهة ، في موضوع
الحوادث ، تَرُدُّ الوقائعَ إلى عدد قليل جداً من الأصناف المختلفة أكثر
مما يُتَصَوَّرُ ، ويكفيني أن أدعَ هذه الأمورَ لتقدير قضائي ، وأن أتخذ من
الترتيب ما لا يحتاج معه القارئُ العاِمُّ إلى تدبُّرها .

القسم الثاني

في الفحاشية

كان مؤسس المجتمع المدني الحقيقي هو الإنسان الأول الذي سَوَّرَ أرضاً فأرى أن يقول: « هي لي » ، وقد وَجَدَ من البسطاء من يُصدِّقونه ، فكان مؤسس المجتمع المدني^(١) الحقيقي ، وما أَكثَرَ ما صان النوعَ البشريَّ من جرائمَ وحروبٍ وقتلٍ وبؤسٍ وهولٍ ذلك الذي خَلَعَ الأوتادَ ومَلَأَ الخندقَ وهو يقول: « اخذَرُوا سَمَاعَ هذا الدَّجَالِ ، فإلهلاكُ يُكْتَبُ لَكُمْ إِذَا نَسِيتُمْ أَنْ الثَّمَرَاتِ لِلْجَمِيعِ وَأَنْ الأَرْضَ لَيْسَتْ مُلْكاً لِأَحَدٍ » ! ولكن يوجد ما يدلُّ كثيراً على كون الأشياء قد بلغت إِذْ ذَاكَ درجةً عَادَتْ لَا تَسْتَطِيعُ البقاءَ معها كما كانت ، وذلك لِأَنَّ فِكْرَةَ التَّمَلُّكِ ، إِذْ كَانَتْ تَابِعَةً لِكَثِيرٍ مِنَ الْفِكْرِ السَّابِقَةِ الَّتِي لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَنْشَأَ إِلَّا بِالتَّابِعِ ، لَمْ تُكَوَّنْ دَفْعَةً وَاحِدَةً فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَقَعَ تَقَدُّمٌ كَثِيرٌ وَأَنْ يَتِمَّ كَثِيرٌ مِنَ الصَّنَاعَةِ وَالْمَعَارِفِ وَأَنْ يُنْقَلَ هَذَا وَيُرَادَّ بَيْنَ جِيلٍ وَجِيلٍ قَبْلَ بُلُوغِ هَذَا الْخَدِّ الْآخِرِ مِنْ حَالِ الطَّبِيعَةِ ، وَلِنَتَنَاوَلَ الْأُمُورَ مِنْ عُلَى إِذَنْ ، وَلِنَحَاوِلْ أَنْ نَجْمَعَ تَحْتَ وَجْهَةٍ نَظَرٍ تَعَاقِبَ الْحَوَادِثَ وَالْمَعَارِفَ ذَلِكَ فِي نِظَامِهَا الْأَكْثَرِ طَبِيعِيَّةً .

وكان أولُ إحساسٍ فِي الْإِنْسَانِ شَعُورَهُ بِوُجُودِهِ ، وَكَانَ أَوَّلُ اعْتِنَاءٍ فِي الْإِنْسَانِ أَهْتِمَامَهُ بِبِقَائِهِ ، وَكَانَتْ إِنْتَاجَاتُ الْأَرْضِ تُقَدَّمُ إِلَيْهِ جَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَكَانَتْ الْغَرِيزَةُ تَحْمِلُهُ عَلَى اسْتِعْمَالِ هَذَا ، وَكَانَ الْجُوعُ وَغَيْرُهُ

(١) « كان هؤلاء الأولاد المساكين يقولون : هذا الكلب لي ، وهناك مكانى تحت الشمس ، وذلك هو بدء اغتصاب جميع الأرض وصورته » [بسكال ، الأفكار ، القسم الأول ، مادة ٩ : ٥٣] .

كان مؤسس المجتمع المدني في حيزه وهو الذي اخترع نظام الملكية

لم تكن فكرة المجتمع مد
توسعا دفعة واحدة
مباشرة بعد ظهورها

من الشَّهَوَاتِ يُشْعِرُهُ بِمُخْتَلَفِ أَسَالِيبِ الْبَقَاءِ مُنَاوِبَةً ، فَكَانَ يَوْجَدُ فِي هَذَا مَا يَدْعُوهُ إِلَى إِدَامَةِ نَوْعِهِ ، وَبِمَا أَنَّ هَذَا الْمِيلَ الْأَعْمَى عَارٍ مِنْ كُلِّ شَعُورٍ قَلْبِي فَإِنَّهُ كَانَ لَا يُسْفِرُ عَنْ غَيْرِ عَمَلٍ حَيَوَانِي خَالِصٍ ، فَإِذَا مَا قُضِيَ الْوَطَرُ عَادَ الْجِنْسَانُ لَا يَتَعَارَفَانِ ، وَعَادَ الْوَلَدُ لَا يَكُونُ لِلْأُمِّ شَيْئًا مَذْكُورًا عِنْدَ مَا يَسْتَطِيعُ الْإِسْتِغْنَاءَ عَنْهَا .

ما يشعره
الحيوان من
الخطر

هَذَا مَا كَانَ عَلَيْهِ حَالُ الْإِنْسَانِ النَّاشِئِ ، وَهَذَا هُوَ عَيْشُ الْإِنْسَانِ الْمُقْصُورِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ عَلَى الْإِحْسَاسَاتِ الْخَالِصَةِ ، وَالَّذِي لَا يَكَادُ يَسْتَفِيدُ مِنْ هِبَاتٍ تَعْرِضُهَا الطَّبِيعَةُ عَلَيْهِ ، وَالَّذِي يَبْعُدُ مِنَ التَّفَكُّيرِ فِي انْتِزَاعِ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَلَكِنْ الْمَصَاعِبُ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَظْهَرَ ، فَيَجِبُ التَّغَلُّبُ عَلَيْهَا ، فَارْتِفَاعُ الْأَشْجَارِ الَّتِي كَانَ يَمْتَنِعُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى ثَمَرَاتِهَا ، وَتَسَابِقُ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَحَاوِلُ الْأَكْلَ مِنْهَا ، وَضِرَاءُ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَرْغِبُ فِيهَا حِفْظًا لِحَيَاتِهَا ، أُمُورٌ كَانَتْ تَحْمِلُهُ عَلَى تَعَوُّدِ التَّمْرِينَاتِ الرِّيَاضِيَةِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ نَشِيطًا مَرِيعًا الْقُدُورِ قَوِيًّا فِي الْقِتَالِ ، وَلَمْ تُعْتَمِ الْأَسْلِحَةُ الطَّبِيعِيَّةُ ، الَّتِي هِيَ مِنْ غُصُونِ الشَّجَرِ وَمِنْ الْحَجَارَةِ ، أَنْ أَصْبَحَتْ قَبِضَتَهُ ، وَقَدْ تَعَلَّمَ اقْتِحَامَ عَوَاقِقِ الطَّبِيعَةِ ، وَمُكَافَحَةَ الْحَيَوَانَاتِ الْأُخْرَى عِنْدَ الضَّرُورَةِ ، وَمِنَازَعَةَ النَّاسِ الْآخَرِينَ قُوَّتَهُ ، أَوْ تَعْوِضَ نَفْسَهُ مِمَّا كَانَ قَدْ أُجْبِرَ عَلَى تَرْكِه لِلْأَقْوَى .

الحيوان

الحيوان
الذي
تتغير
تكوينه
مع
البيئة

وَقَدْ زَادَتْ مَشَاقُّ النَّاسِ بِنِسْبَةِ تَكَثُّرِ النُّوعِ الْبَشَرِيِّ ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ اخْتِلَافُ الْأَرْضِينَ وَالْأَقَالِمِ وَالْفُصُولِ قَدْ جَعَلَ فُرُوقًا فِي طِرَازِ حَيَاتِهِمْ ، وَقَدْ تَطَلَّبَتْ سَنُونَ عَقِيمَةٌ وَفُصُولُ شَتَاءٍ طَوِيلَةٌ قَاسِيَةٌ وَفُصُولُ صَيْفٍ مُحْرِقَةٌ تَأْتِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ صِنَاعَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْهُمْ ، وَقَدْ اخْتَرَعُوا الشَّبَاكَ وَالصَّنَانِيرَ

الحيوان
الذي
تتغير
تكوينه
مع
البيئة

على شواطئ البحر وضفاف الأنهار وأصبحوا عَرَكَاءَ^(١) وأكَلَةَ سَمَكٍ ، وقد صنعوا أقواساً وسهاماً في الغابات وصاروا صيادين ومحاربين ، وقد ألبسوا أنفسهم في البلدان الباردة جلودَ الحيوانات التي كانوا يذبحونها ، وما كان من صاعقةٍ أو بركانٍ أو مصادفةٍ مباركةٍ دَلَّهم على النار التي هي وسيلةٌ جديدةٌ ضدَّ شدة الشتاء ، فتعلموا حفظَ هذا العنصر ، ثم إيجاده ثانيةً ، ثم إعدادهم به ما كانوا يهتمونه نيتاً من اللحوم .

الرأى للحيوان

وما كان من تطبيقٍ مختلفٍ الموجودات المُسَكَّرَ لنفسه ، ومن بعضها لبعضٍ ، أو جَدَّ في نفس الإنسان ، بحسبكم الطبيعة ، إدراكاً لبعض الصلات ، وقد أوجبت هذه الصلاتُ ، التي نُعَبِّرُ عنها بكلمات الكبير والصغير والقوى والضعيف والسريع والبطيء والجبان والجسور ، وما إليها من الأفكار الماثلة المقابل بينها عند الحاجة ، ومن غير أن يُفَكَّرَ فيها تقريباً ، في الإنسان نوعاً من التأمل ، وإن شئت فقل حَذراً ألياً يَدُلُّه على أكثر الاحتياطات ضرورةً لسلامته .

development

سموع بفضيلة
على الحيوانات
الاصغر عنده

وقد زادت المعارفُ الجديدة التي صدرت عن هذا النشوء أفضليته على الحيوانات الأخرى بجمعه شاعراً بها ، فتمرَّنَ على نصبِ أشراكٍ لها ، وخادعها بألف طريقة ، وغدا مالكٌ بعضها ونقمةٌ على بعضها الآخر مع الزمن وإن كان كثيرٌ منها يفوقه سرعةً عَدُوٍّ أو قوةً عِرَاكٍ بين ما يَقْدِرُ أن يَحْدُمه أو يَضُرَّه ، وهكذا فإن أولَ نظرةٍ ألقاها على نفسه أدت إلى أول حركة زَهُوٍ فيه ، وهكذا فإنه لم يَكَدْ يَعْرِفُ أن يَمَيِّزَ بين المراتب وأن يتأمل

(١) العرَّك : جمع عركى ، وهو صياد السمك .

المفرد
المتعدد

ثم انه ضد النوع من
يطلب لغة
لغة العرب والفرس
وهو يباع عن احوال
ثم يجمع المفاهيم وهو
تلك

حد 2 فصل
صورت تعلیم
بکانه

اخْتَرَعَتْ أَنْوَاعٌ مِنَ الْفُؤُوسِ الْحَجَرِيَّةِ الْقَاسِيَةِ الْحَادَّةِ وَاسْتُخْدِمَتْ فِي قَطْعِ
الْحَطَبِ وَحَفْرِ الْأَرْضِ وَصَنَعَ أَكْوَاحٌ مِنْ غُصُونِ رُئْيَى طَلِيهَا بِالطِينِ وَالْوَحْلِ ،
وَهُنَالِكَ كَانَ دَوْرُ أَوَّلِ انْقِلَابٍ أَسْفَرَ عَنْ تَأْلِيْفِ الْأَسْرِ وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَهَا وَعَنْ
اتِّخَاذِ ضَرْبٍ مِنَ الْمُلْكِ نَشَأَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الْخِصَامِ وَالْعِرَاكِ ، وَبِمَا أَنَّ الْأَكْثَرَ
قُوَّةً ، مَعَ ذَلِكَ ، هُمُ الْأَوَّلُ مِنْ أَنْشَأُوا لِأَنْفُسِهِمْ ، كَمَا يُلُوحُ ، مَسَاكِنَ كَانُوا
يَشْعُرُونَ بِقُدْرَتِهِمْ عَلَى الدِّفَاعِ عَنْهَا فَإِنْ هَذَا يَحْمِلُ عَلَى الْإِعْتِقَادِ بِأَنَّ الضَّعْفَاءَ
وَجَدُّوا أَنَّهُ أَقْصَرُ وَأَضْمَنُ لَهُمْ أَنْ يَقْلِدُوا الْأَقْوِيَاءَ مِنْ أَنْ يَحَاوِلُوا طَرْدَهُمْ مِنْ
مَنَازِلِهِمْ ، وَأَمَّا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانَتْ لَدَيْهِمْ أَكْوَاحٌ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لِيَتَنَبَّغَى لِأَحَدٍ
أَنْ يَحَاوِلَ وَضْعَ يَدِهِ عَلَى كُوخِ جَارِهِ ، وَذَلِكَ عَنْ كَوْنِهِ غَيْرَ خَاصٍّ بِهِ أَقْلٌ
مِنْ كَوْنِهِ غَيْرَ نَافِعٍ لَهُ ، وَعَنْ كَوْنِهِ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِسْتِيلَاءَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ
يُعَرِّضَ نَفْسَهُ لِمُقَاتَلَةِ الْأُسْرَةِ الَّتِي تَشْغَلُهُ قِتَالًا شَدِيدًا .

وَكَانَ أَوَّلُ نَشْوءٍ فِي الْفُؤَادِ نَتِيجَةً وَضَعُ جَدِيدٍ جَامِعٍ فِي مَنْزِلٍ مُشْتَرَكٍ
بَيْنَ الْأَزْوَاجِ وَالنِّسَاءِ وَالْآبَاءِ وَالْأَوْلَادِ ، وَقَدْ أَدَّتْ عَادَةُ الْعَيْشِ مَعًا عَنْ ظُهُورِ
أَرْقٍ مَا يُعْرَفُ عَنِ النَّاسِ مِنَ الْمَشَاعِرِ ، أَيْ الْحُبِّ الزَّوْجِيِّ وَالْحُبِّ الْأَبَوِيِّ ،
وَقَدْ أَصْبَحَتْ كُلُّ أُسْرَةٍ مَجْتَمَعًا صَغِيرًا بِالْغَلَاظِ الْإِتِّحَادِ لِكَوْنِ الْحَرِيَّةِ وَالْوِدَادِ
الْمُتَبَادَلِ كَانَا الرَّاكِبَتَيْنِ الْوَحِيدَتَيْنِ ، وَهُنَالِكَ قَامَ أَوَّلُ اخْتِلَافٍ فِي طَرَاذِ حَيَاةِ
الْجَنْسَيْنِ اللَّذَيْنِ لَمْ يَكُنْ لَهَا غَيْرُ طَرَاذٍ وَاحِدٍ حَتَّى ذَلِكَ الْحِينِ ، فَصَارَ النِّسَاءُ أَكْثَرَ
قُعُودًا وَتَعَوُّذًا بِالْحَافِظَةِ عَلَى الْكُوخِ وَالْأَوْلَادِ عَلَى حِينِ كَانَ الرَّجُلُ يَذْهَبُ
لِلْبَحْثِ عَنِ الطَّعَامِ الْمَشْتَرَكِ ، وَبَدَأَ الْجِنْسَانِ يَفْقِدَانِ شَيْئًا مِنْ تَوْحِشِهِمَا وَشِدَّتِهِمَا
عَنْ حَيَاةٍ أَكْثَرَ لِينًا ، وَلَكِنْ كُلٌّ وَاحِدٌ إِذَا صَارَ أَقْلٌ صَالِحًا لِمُكَافَاةِ

الاصطلاحات

صنع الكواخ
وسد أيدل هذه الأسرة
فقد ذبحه انقلبها
في حياة مناهل
سنة فقرة لليلة ظهرت

ظهر العراك بعد
المخلب

اداء عادة العيش
في أسرة الخليل
مطرفة الحب الزوجي
والحب الأبوي
عنه دمودامانا
رايته لوصفه
في دشرة

بدأ دور الحب
فقد منه مدد
لما انخفضت في
أب دود فرج
نفسه

كلما قصد الإنسان بهمة وحسنه
متمم ما فيهم لا يجمع مع
الاجزى

الحيوانات الوحشية على انفراد غداً أسهل على الإنسان ، بالمقابلة ، أن يتجمع
لمقاومتها مشتركاً .

والناس في هذه الحال الجديدة ، إذ تمتعوا بفراغٍ عظيم جداً ، مع حياة بسيطة منفردة واحتياجات محدودة جداً وأدوات كانوا قد اخترعوها لقضاء هذه الحاجات ، اتخذوا هذه الحياة نتيلاً لأنواع كثيرة من الرفاهية لا عهد لآبائهم بها ، فكان هذا أول نبيز فرّضوه على أنفسهم من غير أن يفكروا فيه ، وأول منبع للشروع أعدوه لذراريهم ، وذلك لأنك إذا عدّوت استمرارهم على التخنث بدناً وروحاً هكذا ، وكون هذه الرفاهية فقدت جميع لذتها عن عادة ، وأنها تحوّلت منحنطة إلى احتياجات حقيقية ، وجدت فقدّها أشدّ قسوة مما في حيازتها من حلاوة ، فيكون الإنسان شقيّاً بضيقها من غير أن يكون سعيداً بحيازتها .

وهنا يُمكن أن يُبصر أحسن من ذلك كيف أن عادة الكلام قامت أو كملت في صميم كل أسرة على وجه غير محسوس ، ويُمكن أن يُفترض ، أيضاً ، كيف استطاع مختلف العلل الخاصة توسيع اللغة وتعجيل نشوئها يجعلها أكثر لزوماً ، ومن الطوفانات والزلازل ما أدى إلى إحاطة بقاع مسكونة بالمياه أو بالهوّات ، ومن الانقلابات في الكرة الأرضية ما أدى إلى اقتطاع أجزاء من القارّة وفصلها عنها مُحوّلة إلى جزائر ، ومما يرى بين الناس الذين تدانوا على هذا الوجه واضطّروا إلى العيش معاً وجوب تكون لهجة مشتركة أكثر مما بين من كانوا يتيهون في غابات القارّة ، وهكذا فإن من المحتمل جداً أن يكون الجزريون قد حملوا إلينا عادة الكلام بعد أول

مبتدئ بلغة أصغر
أفصح أكثر لزوماً
ساعة كرامة بطيئة
عن صفة الناس
منها بعد مقياس
ما ساعد أدهم من
تكون لهجة مشتركة
أكثره أدب

محاوتهم للملاحة ، وإن من المحتمل جداً ، على الأقل ، أن يكون المجتمع
واللغات قد وُلدا في الجزر وكَمَلَا فيها قبل أن يُعرَفَا في القارة .

ويَبْدَأُ كلُّ شَيْءٍ بتغيير منظره ، وبما أن الناس تاهوا في الغاب حتى

الآن ، وبما أنهم اتخذوا قاعدةً أكثر ثباتاً ، تدانوا ببطء وتَجَمَّعُوا زُمَرًا

ألقوا في كلِّ بقعةٍ أمة خاصة متحدة طابع وأخلاقاً ، لأنظمة وقوانين ،

بل بطراز واحد من الحياة الغذائية وتأثير الإقليم العام ، وأخيراً لم يَفُت

الجوار الدائم أن يُوجد ارتباطاً بين مختلف الأسر ، ويسكن شباب من

الجنسين أكواخاً مجاورة ، وأسفر الخلط العابر الذي تقتضيه الطبيعة من

فوره عن خلط آخر ليس أقل حلاوةً ، وهو أكثر دواماً ب معاشرة متبادلة ،

ويَتَعَوَّدُ النظر في مختلف الموضوعات وعمل مقايسات ، وتُكْتَسَبُ على وجه

غير محسوس أفكار عن المزية والجمال تُنتج مشاعر عن الأفضلية ، وعاد

لا يُمكن الاستغناء عن الاجتماع باستمرار وصولاً إلى الاجتماع ، وينساب

في النفس شعور رقيق ناعم ، ويتحول إلى هياج صائل عند أقل اعتراض ،

وتستيقظ الغيرة مع الحب ، ويفوز الخلاف ، ويَضْحَى بالدم البشري في

سبيل أطف الأهواء .

وكما تعاقبت الأفكار والمشاعر وتَحَرَّكَ الفؤاد والذكاء داوم الجنس البشري

على التأنس واتسع مدى الروابط ووُثِّقَت الصلات ، ويُتَعَوَّد الاجتماع أمام

الأكواخ أو حَوْلَ دَوْحَةٍ^(١) ، ويصبح الغناء والرقص وأولاد الغرام والفراغ

الحقيقيون مدار تسلية ، وإن شئت فقل مدار اعتناء ، رجال ونساء من

(١) الدوحة : الشجرة العظيمة المتسعة .

من المحتمل أن يكونوا قد
وجدوا اللغات قبل
أن يهاجروا إلى
القارة

داني بناس ببطء أو
بسرعة في طراز حياة
بشرية زمنية مختلفة

رأى بعض الناس
وغيره من البشر
اجتماعهم
بشرية في الحياة
بشرية تراعى كلها
بما هي اجتماع البشر

ذوى البطالة والاحتشاد ، وقد بدأ كلٌّ ينظر إلى الآخرين ويريد أن يُنظر إليه بدوره ، وهكذا كان للتقدير العام قيمة ، فأصبح من يُغنى أو يرقص أحسن من غيره ، ومن هو أعظم جمالاً ، أوقوةً ، أو مهارةً ، أو فصاحةً ، من سواه أكثر اعتباراً ، وكان هذا أولَ خطوة نحو التفاوت ونحو العيب في وقت واحد ، وقد نشأ الزهو والازدراء عن هذه الأفضليات الأولى من ناحية ، ونشأ الحياء والحسد عنها من ناحية أخرى ، وما أوجبه هذه الخماز الجديدة من اختارٍ أسفر في نهاية الأمر عن مركباتٍ شومٍ على السعادة وصفاء القلب .

ولم يكد الناسُ يبدؤون بتقدير بعضهم بعضاً مبادلةً ، ولم تكد فكرة الاعتبار تتكوّن في نفوسهم ، حتى زعم كلٌّ وجودَ حقٍّ له في ذلك ، وصار يتعذر إنكار ذلك على أحدٍ من غير عقاب ، ومن هناك نشأ أولُ واجبات الأدب حتى بين الهمج ، ومن هناك صار كلُّ خطأ إهانةً ، وذلك لأن المهان كان يرى في الشرّ الذى ينشأ عن الإهانة ازدراءً لشخصه أشدَّ إيلاماً من الشرّ نفسه غالباً ، وهكذا إذ كان كلٌّ واحدٍ يجازى على الازدراء الموجه إليه بنسبة ما يُقدّر فإن الانتقامات أصبحت هائلةً ، وصار الناس قساةً سفّاحين ، وهذه هى الدرجة التى انتهى إليها بالضبط معظّم الشعوب الوحشية التى نعلم أمرها ، وإنه لما وقع من عدم التمييز بين الأفكار بدرجة الكفاية ، ومن عدم ملاحظة مقدار ما كان من ابتعاد هذه الشعوب عن الحال الطبيعية الأولى ، أسرع كثيرٌ فى استنتاجه كونَ الإنسان قاسياً بحكم الطبيعة فيحتاج إلى ضابطةٍ لإلانتة ، وبئنا لا نجد ما هو أطفُ منه فى حاله الفطرية ، عندما تضعه

ظهور عادات الإنسان
التي هي من طبيعة الإنسان
التي هي من طبيعة الإنسان
التي هي من طبيعة الإنسان

الطبيعة على أبعاد متساوية من غباوة الوحوش وبصائر الإنسان المتمدن
 المشؤومة ، ويكون متصوفاً بالغريزة والعقل على ضمان نفسه من السوء الذي
 يهدده ، تراه مُزْدَجَرّاً بالرأفة الطبيعية عن إساءة أحدٍ من تلقاء نفسه ،
 وذلك من غير أن يُحمّل عليه شيء ، حتى بعد أن يكون قد تَلَقَّاه ،
 والأمرُ هو كما جاء في مبدأ الحكيم لوك القائل : « لا يُمكن أن توجد
إهانةٌ حيث لا يُوجد تَمَلُّكٌ » .

يَبْدَ أنه يجب أن يلاحظ أن المجتمع المبدوء والصلات التي أُقيمت بين
 الناس كانوا يتطلبان فيهم صفات تختلف عن الصفات التي حازوها من نظامهم
 الابتدائي ، وأن أدب السلوك إذ أخذ يتسرب في الأعمال البشرية ، وأن
 كلَّ واحدٍ قَبْلَ القوانينِ إذ كان القاضي الوحيدَ والمتنقِمَ عن الإهانات
 التي يكون قد تَلَقَّاهَا ، فإن الصلاح الملائم للحالة الطبيعية الخالصة عاد لا يلائم
 المجتمع الناشئ ، وأنه وَجِبَ أن تصبح العقوبات أكثرَ شدةً كلما صارت
 فُرْصُ الإهانة أكثرَ شيوعاً ، وصار الخوف من الانتقام يقوم مقام الرادع
 القانوني ، وهكذا ، فإن الناس وإن صاروا أقلَّ صبراً وتَقَصَّتْ رَأْفَتُهُم الطبيعية
 بمصر الشيء ، وَجِبَ أن يكون هذا الدور ، الذي هو دورُ نشوء المواهب
 البشرية ، أسعدَ الأدوار وأكثرَها دواماً لما يَبْدُو وَسَطاً بين بلادة الحالة
 الابتدائية ونشاط أنانيتنا النَّزِقِ ، وكما أُنْعِمَ النظر في ذلك وَجِدَتْ هذه
 الحالُ أقلَّ عُرضَةً للانقلابات ، وأصلحَ للإنسان^{١٦} ، فكان لا ينبغي له
 أن يَخْرُجَ منها إلّا عن مصادفة مشؤومة كان يجب ألا تَقَعَ لاقضاء المصلحة
 العامة ذلك ، ويلوح أن مثال الوحوش ، الذين وَجِدَ معظمهم في هذه

الحال ، يؤيِّد كونَ الجنسِ البشريِّ قد خُلِقَ ليبقى فيها على الدوام ،
وكونَ كلِّ تقدمٍ حدثَ بعدَ ذلكَ حُطوةً نحوَ السَّكَّالِ في الظاهرِ ونحو
هَرَمِ النوعِ في الحقيقة .

والناسُ ما رَضُوا عن أكوأخهم الخَلَوِيَّةِ ، وما اقتصرُوا على خَرَزِ ثيابهم
الجلديةِ بشَوْكٍ أو حَسَكٍ ، وما ازَيَّنُوا بِرِيشٍ وَصَدَفٍ ، وما نَقَشُوا بِدَنَاهُمْ
بمختلفِ الألوانِ ، وما أَصْلَحُوا سِهَامَهُمْ وَأَقْوَامَهُمْ أَوْ زَخَرَفُواها ، وما شَذَّبُوا
بِجِجَارَةٍ حَادَةٍ زَوَارِقَ صَيْدٍ ، أو بعضَ الآلاتِ الموسيقيةِ الغليظةِ ، والخلَاصَةُ
أنَّ الناسَ ما تَعَاطَوْا أَعْمَالاً يَسْتَطِيعُ الْفَرْدُ أَنْ يَصْنَعَهَا ، وما اتَّخَذُوا فَنُوناً
لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَضَافِرِ أَيْدٍ كَثِيرَةٍ ، عاشُوا أحراراً أَصْحَاءَ صَالِحِينَ سَعْدَاءَ ما اسْتَطَاعُوا
أَنْ يَكُونُوا كَذَلِكَ بِطَبِيعَتِهِمْ وما اسْتَمَرُّوا عَلَى التَّمَتُّعِ فيما بَيْنَهُمْ بِالطَّافِ مَعَاشِرَةٍ
مُسْتَقْلَةٍ ، ولكنَّ الْإِنْسَانَ مِنْذُ احتِياجهِ إِلَى مَعُونَةِ إِنْسَانٍ آخَرَ ، مِنْذُ رُئِيَ أَنَّ
مَنْ الْفَيْدَ لِوَاحِدٍ أَنْ يَكُونَ ذَا مُؤَنٍّ لِأُتُنَيْنِ ، زالتِ الْمِساواةُ عِنْدَهُ وَاتَّحَلَّ
الْتِمَاسُ وَصارَ الْعَمَلُ ضَرُورِيًّا وَتَحَوَّلَتِ الْغَابَاتُ الْوَاسِعَةُ إِلَى حَقُولٍ بِاسْمَةٍ وَجَبَّ
أَنْ تُرَوَّى بِعَرَقِ النَّاسِ فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ رُئِيَ فِيهَا نَشْوَةُ الْعُبُودِيَّةِ وَالْبُؤْسِ
وَنُمُوُّهَا مَعَ الْغَلَّاتِ .

وكانَ التَّعْدِينُ ^{Metallurgy} والزراعةُ ذَيْنِكَ الْفَنَيْنِ اللَّذَيْنِ أَدَّى اكْتِشافُهُمَا إِلَى هَذَا
الانقلابِ الْكَبِيرِ ، وعندَ الشَّاعِرِ أَنَّ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ، وعندَ الْفِيلَسُوفِ أَنَّ
الحديدَ وَالْقَمَحَ ، هُمَا اللَّذَانِ مَدَّنَا النَّاسَ وَأَهْلَكَا النَّوعَ الْبَشَرِيَّ ، وقد كانَ كُلُّ
مِنْهُمَا مَجْهُولاً لَدَى وَحُوشِ أَمْرِيكَةٍ فَبَقُوا كَمَا هُمْ عَلَيْهِ لِهَذَا السَّبَبِ ، حتَّى
إِنَّ الشُّعُوبَ الْأُخْرَى ظَلَّتْ مِنَ الْبَرَابَرَةِ كَمَا يَلُوحُ ما زَاوَلَتْ أَحَدَ ذَيْنِكَ

الفنن دون الآخر ، ومن أوجّه الأسباب ، على ما يحتمل ، في أن أوربة كانت ، إن لم يكن قبلاً ، أثبتت وأرقى حضارة من بقية العالم هو كونها أكثر فيضاً بالحديد وخصباً بالبر .

(ومن الصعب أن يُفترَض كيف انتهى الناس إلى معرفة الحديد واستعماله) ، وذلك لأن مما يتعذر اعتقاده كونهم تصوّروا من تلقاء أنفسهم استخراج هذه المادة من المنجم وأن يقوموا في سبيله بإعدادات لا بدّ منها صهراً لها قبل أن يعرفوا ما ينشأ عن ذلك ، وأقلّ من هذا أن يُعزى هذا الاكتشاف من ناحية أخرى إلى حريق عرَضِيٍّ ما دامت المناجم لا تُسكّون في غير الأماكن الجديية الخالية من الشجر والنبات ، فكان الطبيعة ، كما يظهر ، قد اتخذت من الاحتياطات ما تُخفي معه هذا السرّ المقدس عنا ، ولم يبقَ ، إذن ، غيرُ حالٍ عجيبٍ لبركانٍ يَقْدِف موادَّ معدنيةً ذائبةً فأوحى إلى الباحثين بفكرة تقليد عمل الطبيعة هذا ، وكذلك يجب أن تُفترَض لهم جرأةٌ وبصيرةٌ للقيام بهذا العمل الشاق وأن يُلاحظ من بعيدٍ ما يُمكن أن ينالوه من الفوائد ، وهذا ما لا يلائم غير نفوسٍ كانت أكثر ممارسةً من التي لم يتفق لها مِرَاس .

(وأما الزراعة فإن مبدأها عُرف قبل أن تمارَس بزمان طويل ، وليس من الممكن ألا يكون الناس ، المنهمكون بلا انقطاع في تناول طعامهم من الشجر والنبات ، قد عنّت لهم بسرعة فكرة الطُرُق التي تتخذها الطبيعة لتكثير النباتات ، بيد أن من الراجح أن تكون صناعتهم قد تحولت أخيراً جدّاً من هذه الناحية ، وذلك إما عن كون الشجر مع صيد البر والبحر

قد جَهَّزهم بغذائهم ، فلم يكن ليحتاج إلى عنايتهم ، وإما عن جهلهم استعمال القمح ، وإما عن عدم وجود آلات لفلاحته ، وإما عن عدم بَصَرٍ في الاحتياج القادم ، وإما عن عدم وجود وسائل لمنع الآخرين من اغتصاب ثمرة عملهم ، وهم لما أصبحوا أكثر جدًّا أمكن الاعتقاد بأنهم بدأوا يزرعون بحجارة حادة وعُصِيٍّ مُدْرَبَةٍ بعض البقول والجذور حَوْلَ أكواعهم ، وذلك قبل أن يَعْرِفُوا إعداد القمح وأن يكون عندهم من الآلات ما يزرعونه به على مقادير عظيمة ، وذلك من غير أن يُحَسَّب ، لتعاطى هذا العمل وبَذْرِ الأرضين ، وجوب توطين النفس على خسران بعض الشيء في البُداء كسبًا للكثير فيما بعد ، أى القيام بأمرٍ بعيدٍ كلَّ البعد من ذهنية الإنسان الوحشِيَّ الذى يَجِدُ مشقةً عظيمةً في تفكيره صباحًا في احتياجاته المسائية كما قلتُ .

(إذن ، كان اختراعُ الفنون الأخرى أمرًا ضروريًّا لحُمل النوع البشرى على تعاطى فنِّ الزراعة ، وعند ما وَجَبَ وجودُ أناسٍ لَصَهْرِ الحديد وتطريقه وجب وجودُ أناسٍ آخرين لإطعامهم ، وكلما زاد عدد العمال قَلَّتْ الأيدي التى تُسْتَعْمَلُ لتقديم الغذاء العامِّ ، وذلك مع عدم قلة الأفواه التى تستهلكه ، وبما أنه وجب وجودُ غَلَّاتٍ لبعضهم بدلًا من حديدهم وَجَدَ الآخرون في نهاية الأمر سِرَّ استعمال الحديد في تكثير الغلات ، ومن ثَمَّ نشأت الحراثة والزراعة من ناحيةٍ وفنُّ عمل المعادن وتكثير استعمالها من ناحية أخرى .

وأدت زراعة الأرض إلى تقسيمها ، وأدى الاعتراف بالتملك إلى أولى قواعد العدل ، وذلك لأنه يجب لإعادة مالٍ كلِّ واحدٍ إليه أن يكون

هذا الشخصُ مالِكاً شيئاً ما ، وزِدَ على ذلك كَوْنُ الناسِ إذ صاروا
يَنْظُرُونَ إلى المستقبلِ وكان لدى الجميع ما يَخْشَرُهُ أَصْبَحَ لكلِّ واحدٍ من
الأسبابِ ما يَخْشَى معه النَّارُ عن خطيئاً يُمَكِّنُ أَنْ يَقْتَرِفَهُ تَجَاهِ الآخرين ،
ويكون هذا الأصلُ أَقْرَبَ إلى الطبيعةِ بنسبةٍ ما يتعذرُ تَمَثُّلُ صدورِ مبدإِ
التملكِ عن أمرٍ خَلَا عَمَلِ اليدِ ، وهل يُمَكِّنُ الإنسانَ أَنْ يُضِيفَ غيرَ
عملِهِ إلى أشياءٍ لم يُوجِدْهَا في الأصلِ فَيَجْعَلْهَا مُلْكَهُ ؟ وَعَمَلُ الفَلَّاحِ
وَحَدَهُ ، إذ يَمْنَحُهُ حقاً في غَلَّةِ الأرضِ التي حَرَّثَهَا ، يَمْنَحُهُ حقاً في الأرضِ
ذاتها حتى الحَصَادِ على الأقلِ ، وهكذا تَحَوَّلَ التصرفُ المستمرُّ بين عامٍ
وعامٍ إلى مِلْكٍ ، ومن قولِ غِرُوسِيُوسَ أَنْ القدماءَ عند ما أطلقوا لقبَ
المُشْتَرَعَةِ على سِيرِسَ ، وعند ما أطلقوا اسمَ القانونِ الحامِلِ على عِيدٍ يُحْتَمَلُ
فيه لتكريمِها ، قَصَدُوا بذلك كَوْنَ تقسيمِ الأَرْضِينِ قد أُسْفِرَ عن نوعٍ جديدٍ
من الحقِّ ، أى حقَّ التملكِ الذى يختلفُ عن الحقِّ الناشئِ عن القانونِ
الطبيعى .

أَجَلْ ، كان يُمَكِّنُ الأمورَ في هذه الحالِ أَنْ تَبْقَى متساويةً لو كانت
المناقِبُ متساويةً فيكون استعمالُ الحديدِ واستهلاكُ الغَلَّاتِ متوازنين دائماً ، *talento*
غير أن النسبةَ التي كان لا يُمَكِّنُهَا شَيْءٌ لم تَلَبَثْ أَنْ زَالَتْ ، فكان الأقوى
أَكْثَرَ عملاً ، وَحَوَّلَ الأَكْثَرُ بَرَاعَةً عَمَلَهُ إلى أَحْسَنِ حسابٍ ، وَوَجَدَ
الأَكْثَرُ لِبَاقَةً وَسَائِلَ لاختصارِ العملِ ، وَكَثُرَ احتياجُ الفَلَّاحِ إلى الحديدِ ،
وزاد احتياجُ الحدَّادِ إلى القمحِ ، وبينما كان الاثنانِ يَعْمَلَانِ على السواءِ
كان أحدهما يَكْسِبُ كَثِيراً ولم يَكْدُ الآخرُ يَحْوَزُ ما يعيشُ به ، وهكذا

فإن التفاوت الطبيعي ينتشر مع تفاوت الاختلاط على وجه غير محسوس ، وإن الفروق بين الناس التي تنمو باختلاف الأحوال أصبحت أكثر بروزاً ودواماً في نتائجها وبدأت تؤثر بذات النسبة في نصيب الأفراد .

وبما أن الأمور قد انتهت إلى هذه المرحلة فإنه يسهل تمثيل البقية ، ولا أقف عند وصف اختراع الفنون الأخرى المتعاقب ، ولا عند تقدم اللغات واختبار المواهب واستخدامها ، ولا عند تفاوت الحفظ والتمتع بالثروات وسوء استعمالها ، ولا عندما يتبعها من الجزئيات التي يمكن كل واحد أن يتدارك نقصها ، وإنما أقصر على إلقاء نظرة في النوع البشري الذي وُضع في نظام الأمور الجديد هذا .

وإليك ، إذن ، جميع خصائصنا النامية والذاكرة والمُخَيَّلَة فاعلة ، والأنانية المُغْرِضَة ، والعقل العامل ، والذهن في أقصى كماله تقريباً ، وإليك جميع الصفات الطبيعية عاملة ، ومكان كل إنسان ونصيبه القائمين على الذكاء أو الجمال أو القوة أو البراعة أو المزية أو المواهب ، لا على مقدار الأموال والقدرة على النفع والضّر ، وبما أن هذه الصفات هي التي كانت تستطيع أن تجتذب اعتباراً وحدّها فقد وجب نيلها أو تسكّلها من فورها ، وقد أصبح من مصلحة الإنسان أن يتظاهر بغير ما هو عليه ، فما هو عليه والتظاهر بما هو عليه صارا أمرين يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً تاماً ، وعن هذا الاختلاف نشأ الجاه المهيّب والمكر الخادع وجميع المعاييب التي هي مؤكّبة ذلك ، (والإنسان ، بعد أن كان ، من ناحية أخرى ، حراً مستقلاً ، أضى الآن خاضعاً ، عن طائفة من الاحتياجات الجديدة ، لكل

طبيعة ، ولا سيما أمثاله الذين غداً عبداً لهم من جهة ، وإن بدا سيذاً لهم ، فإذا كان غنياً احتاج إلى خدَمهم ، وإذا كان فقيراً احتاج إلى مساعدتهم ، وما كان توسط الحال ليُجعله يستغنى عنهم مطلقاً ، ولذا يجب أن يحاول بلا انقطاع جعلهم يكثرئون لنصيبه ، وحملهم على أن يجِدُوا في الحقيقة أوفى الظاهر فائدتهم في العمل لفائدته ، وهذا ما يجعله شاطراً محتالاً نحو أناس ، متجبراً قاسياً نحو آخرين ، (وهذا ما يضعه في حال من الضرورة يخادعُ معه كلَّ من يحتاج إليهم حيناً لا يستطيع إخافتهم ولا يجِدُ من مصلحته أن يخدمهم نافعاً ، ثم إن الطموح القاضم في الناس وحياً زيادةً ما لهم النسبي ليعملوا بعضهم بعضاً يوحيان إليهم جميعاً بميل أسود إلى الضرر مقابلةً ، يوحيان بحسد خفي يكون أشدَّ خطراً بما يلبسه من قناع الرِّفق غالباً جعلاً لضربته أكثر سداً ، (والخلاصة أن التنافس والتزام من ناحية وتضارب المصالح والرغبة الخفية في الانتفاع على حساب الآخرين من ناحية أخرى ، أى أن هذه الشرور كلها ، أولُ نتيجة للتملك وموكلٌ لازمٌ لتفاوت الناشئ) . ٢٠١

(ولم تكن الثروات ، قبل اختراع الرموز الممثلة لها ، لتقوم على غير الأرضين والمواشي) ، هذه الأموال الحقيقية الوحيدة التي يمكن الناس أن يحوزوها ، والواقع أن الموارث إذا ما زادت عدداً واتساعاً زيادةً تُعطى جميع الأرض وتماست كلها عاد بعض الناس لا يستطيع أن يتوسّع إلا على حساب الآخرين ، (ولم يُفَيَّرْ شيئاً قطُّ أولئك الزائدون على العدد والذين كان ضَعْفُهُمْ أو ثَقُلُهُمْ قد حال دُون اكتسابهم من ذلك بدوَرهم ، فغدوا

فقراء من غير أن يَحْسَرُوا شيئاً ، وذلك لأنهم وحدهم لم يُغَيِّرُوا شيئاً قطُّ مع أن كلَّ شَيْءٍ تَغَيَّرَ حولهم ، فاضْطُرُّوا أن يَنَالُوا أو أن يَغْتَصِبُوا غذاءهم من أيدي الأغنياء ، ومن هنا بدأت تظهر السيطرة والعبودية والشدة والاعتصابات ، ولم يَكْد الأغنياء يَعْرِفُونَ لذة السيطرة من ناحيتهم حتى استخفوا بالآخرين من قُوَّتهم ، وقد سَخَرُوا عبيدَهم القدماء لإخضاع عبيد جُدِّدٍ ، وهم لم يفكروا في غير قَهْر جيرانهم واستعبادهم ، وهم في ذلك كالذئاب الجامعة التي ذقت لحم الإنسان ذات مرة فصارت تَرْفِضُ كلَّ طعامٍ آخرَ ولا تَرْغَبُ في غير افتراس الناس . وهكذا فإن الأَكْثَرَ بأساً والأَكْثَرَ بؤساً إذْ جَعَلُوا من قُوَّاتهم أو احتياجاتهم ضَرْباً من الحقوق حَوْلَ مال الآخرين مساوياً حَقِّ التملك على رأيهم عَقَبَ المساواة المتحطمة أفضعُ ارتباكٍ ، وهكذا فإن اغتصابات الأغنياء ولُصُوصياتِ الفقراء وأهواء الجميع الجامحة إذْ خَنَقَتِ الرأفة الطبيعية وصوتَ العدل الضعيفِ جَعَلَتِ الناسَ بُخْلَاءَ طامحين خُبْنَاءَ ، وكان يَقَعُ بين حَقِّ الأقوى وحَقِّ واضع اليد الأول صِدَامٌ دائمٌ لا ينتهى إلا بمعارك وسفكٍ دماءٍ^(١٧) ، وأدى المجتمع الناشئ إلى أشنع الحروب ، وبما أن النوعَ البشريَّ المَهِينِ الخزين لم يَسْتَطِعْ بَعْدُ أن يَرْجِعَ القهقري ، ولا أن يَعْدِلَ عما اتَّفَقَ له من كَسْبٍ مشؤوم ، وبما أنه لم يَعْمَلْ لغير ما فيه فُضُوحه بإساءة استعماله الخصائص التي تُشَرِّفُه ، فإنه وضع نفسه على حافةِ الهلاك ، « فعلى الغنى والفقير أن يَفِرَّا من الثراء وأن يَحْسَمَرا ما نَشَداه بما وُجِدَ حديثاً من شرورهما^(١) » .

(١) أوفيد ، التناسخ ، ١١ : ١٢٧

١ / وليس من الممكن ألا يكون الناس قد قاموا في نهاية الأمر بتأملاتٍ
 حَوْلَ وَضْعِ بالغِ هذا البؤسِ وَحَوْلَ البلايا التي أَصِيبُوا بها ، ويجب أن
 يكون الأغنياء ، على الخصوص ، قد شَعَرُوا من قُوَّتهم بمقدار ما كانت في
 غير مصلحتهم حربٌ دائمة يقومون بجميع نفقاتها وحدهم ويكون الخطر الذي
 يَحِيْقُ بالحياة فيها عامًّا ويكون الخطر الذي يَحِيْقُ بأموالهم خاصًّا ، ثم مهما
 يكن اللون الذي استطاعوا أن يَصْبُغُوا به اغتصاباتهم فإنهم كانوا يَشْعُرُونَ
 شعورًا كافيًا بأن حالهم لم يَقُمْ على غير حقٍّ قَلْبِي فاضحٍ نالوه بالقوة ،
 فيمكن القوة أن تَنَزِعَهُ منهم من غير أن يكون من الأسباب ما يَتَظَلَّمُونَ
 معه ، حتى إن الذين اغْتَنَوْا بالصَّنَاعَةِ وحدَها لم يكونوا لَيَقْدِرُوا أن يقيموا
 تَمَلُّكَهُمْ على حُجَجٍ أَحْسَنَ من تلك ، ومن القَبَثِ أن يقال مُكْرَرًا :
 « إني أنا الذي بَنَيْتُ هذا الجدار ، وقد نَلْتُ هذا الموضعَ بعملِي ، وقد يُمكن
 أن يكون الجواب : من الذي أعطاك هذا الموقف ، وإلى أيِّ شيء
 تستند في ادعائك أن نَدْفَعُ إليك عن عملٍ لم نطلب منك صُنْعَهُ ؟ ألا
 تَعْلَمُ أن فريقًا كبيرًا من إِخْوَانِكَ يَهْلِكُ أو يَأْلَمُ من احتياجه إلى ما
 تَمْلِكُ كثيرًا ، وأنه يجب أن تكون لديك موافقةٌ صريحةٌ إجماعية من
 النوع البشري حتى تَمْلِكَ من القُوَّةِ العامَّةِ أَكْثَرَ مما تحتاج إليه لتقويم
 أَوْدِكَ ؟ » ، (والغنى الجَرْدُ من الأسباب المقبولة لتزكية نفسه ، ومن القُوَّةِ
 الكافية للدفاع عن نفسه ، والغنى الساقط للفرد بسهولة ، والمسحوق من
 قِبَلِ زُمَرٍ من اللصوص ، والغنى الذي هو وحدَه ضِدُّ الجميع والذي
 لا يستطيع أن يتحد ، عن حَسَدٍ متقابل ، هو وأمثاله ضِدُّ أعداء متحدين

عن أملٍ مشتركٍ في السلب ، هذا الغنى الذي ضغطته الضرورة يُفكرُ أخيراً في أرزَنِ مشروعٍ خطرٍ على بال إنسان ، وذلك أن يستخدم نفعاً له قوًى مَنْ كانوا يهاجمونه ، وأن يجعل حُماته من خصومه فيوحى إليهم بمبادئ أخرى ويمنحهم نظماً أخرى تكون ملائمةً له كعدم ملائمة الحق الطبيعي له .

وهو عند هذا النظر ، وبعد أن عرَضَ على جيرانه فظاعة وضعه كان يسألهم جميعاً ضدَّ بعضهم بعضاً ، وكان يجعل أملاكهم مرهقةً إرهاباً احتياجاتهم ، وحيث كان لا يوجد أحدٌ يرى سلامته في الفقر ولا في الغنى ، اخترع بسهولة من الأسباب المقبولة ما يجعلهم به إلى غرضه ، فقال لهم : « دَعُونَا نتحد لوقاية الضعفاء من الاضطهاد وردع ذوى الطموح وصيانة مُلك كلِّ واحد ، فتوضع أنظمة للعدل والأمن يُلزم الجميع بالخضوع لها من غير استثناء أحدٍ ، وتقوم بها أهواء النصيب من بعض الوجوه يجعل القوى والضعيف خاضعين لواجبات متبادلة على السواء ، والخلاصة هي أن نجتمع قوَّانا في سلطةٍ عالية تحكمُ فينا وفق قوانينٍ رشيدةٍ ونحامي وتدافع عن جميع أعضاء الجماعة وتدفع الأعداء المشتركين ونمسكنا ضمن وفائق أبدى » .

وكان أقلُّ كلامٍ حولَ هذا المقصد يكفي لخادعة أناسٍ غلاظٍ سهلٍ إغواؤهم ، وذلك لما كان عليهم أن يأتوه من منازعاتٍ كثيرة لا يستغنون فيها عن التحكيم ، ولما كانوا عليه من طموحٍ وبخلٍ كثيرين لا يستغنون فيهما عن سادقٍ لزمٍ طويل ، وكلٌّ يسعى إلى قيوده بسرعةٍ معتقداً أنه

يَضْمَنُ حريته ، وذلك لأنه إذا كان لديه من العقل ما يكفي للشعور بفوائد أحد النُظُم السياسية فإنه ليس لديه من التجربة ما يُبَصِّرُ معه أخطارَ هذا النظام ، وكان أكثرُ الناس قدرةً على البصر في سوء الاستعمال هم الذين يَرَوْنَ الانتفاعَ به ، حتى إن الحكماء رأوا من الضروري أن يُضَحُّوا بقسم من حريتهم حفظاً للقسم الآخر ، شأنُ الجريح الذي تُبَتَّر ذراعُه إنقاذاً لبقية الجسم .

✓ (ذلك ما كان ، أو ما وَجَبَ أن كان ، أصلُ المجتمع والقانون اللذين رَبطَا الضعيفَ بقيودٍ ^{feetters} جديدة ، ومنحاه الغنى ¹⁸ قُوًى جديدة ، فتضيا على الحرية الطبيعية من غير رجوع ، وَثَبَّتَا قانونَ التملك والتفاوتِ إلى الأبد ، وَحَوَّلَا اغتصاباً لبقاً ^{cheer usurpation} إلى حقٍّ لا يُنْتَمِض ، وَسَخَّرَا الجنسَ البشريَّ للعمل والعبودية والبؤس نفعاً لبعض ذوى الطُمُوح ، ومن السهل أن يَرَى كيف أن قيام مجتمع واحد جعل قيام جميع المجتمعات الأخرى أمراً ضرورياً ، وكيف أنه وجب على بقية الجنس البشري أن تتحد من ناحيتها لمقاومة القُوَى المتحدة ، وقد تكاثرت المجتمعات واتسعت فلم تَلَبَثْ أن ملأت جميع وجه الأرض ، وصار يتعذر أن تَجِدَ زاويةً واحدةً في العالم يُمكن الإنسان أن يتحرر فيها من النير وَيَتَخَلَّص من السيف الذي يراه مُصْلَماً عليه دائماً ، لو بما أن الحقوق المدنية أصبحت قاعدة ^{common rule} المواطنين العامة على هذا الوجه عاد قانونُ الطبيعة لا يكون له مكانٌ إلا بين مختلف المجتمعات حيث عدل ، باسم الحقوق الدَّوْلِيَّة ، ببضعة عهودٍ ضمنية جَعَلًا للتجارة أمراً ممكناً وتعويضاً من الرأفة الطبيعية التي خَسِرَتْ بين مجتمع وآخر ، تقريباً ، كلَّ قوة

كانت لها بين إنسان وآخر ، والتي عادت لا تكون في غير بعض أكابر الوطنيين العالمين الذين يجاوزون الحواجز الخيالية الفاصلة بين الشعوب ، والذين يسرون على غرار المولى الخالق فيشمّلون جميع النوع البشري برعايتهم .

وبما أن الهيئات السياسية قد بقيت بينهم في الحال الطبيعية على هذا الوجه فإنها لم تَعْمُ أن شعرت بالمحاذير التي كانت قد حملت الأفراد على الخروج منها ، وقد أصبحت هذه الحال أيضاً أكثر شؤماً بين هذه الهيئات الكبيرة مما كانت عليه سابقاً بين الأفراد الذين تألفت منهم ، فمن ثمّ ظهرت الحروب القومية والمعارك والمقاتل والأثار التي أرعشت الطبيعة وصدمت العقل ، وجميع هذه المُبتَسراتِ الفظيعة التي تَضَعُ شرفَ سفك الدماء الإنسانية في مرتبة الفضائل ، وقد تَعَلَّمَ أكثرُ الناس صلاحاً أن يَمُدُّوا بين وظائفهم واجب ذبح أمثالهم ، وأخيراً رُئِيَ أن الناس يتذابحون بالألوف من غير أن يَعْرِفُوا السبب ، وكان يُقْتَرَفُ من القتل في يوم معركة ، وكان يُقْتَرَفُ من الفظائع عند الاستيلاء على مدينة واحدة ، ما هو أكثر مما كان يُقْتَرَفُ في حال الطبيعة ، في قرونٍ بأسرها ، على جميع وجه الأرض ، وهذه هي النتائج الأولى التي تُبَصِّرُ من تقسيم النوع البشري إلى مجتمعاتٍ شتى ، فَلَنَعُدُّ إلى نُظُمِها .

وأعلم أن كثيرين قد جَعَلُوا للمجتمعات السياسية مصادرَ أخرى ، كَفَتْوَحَ القوى أو اتحاد الضعفاء ، ولا أهمية للخيار بين هذه العلل فيما أريد إثباته ، ومع ذلك فإن ما عَرَضْتُهُ أقربُ إلى الطبيعة كما يُلَوِّحُ لي ،

وذلك للأسباب الآتية : أولاً : بما أن حقّ الفتح في الحال الأولى ليس حقاً في ذاته فإنه لا يُمكن أن يصلح أساساً يُبنى عليه حقّ آخر ، فيبقى كلُّ من الفاتح والشعب المغلوب تجاه الآخر في حال حرب ، ما لم تُردَّ إلى الشعب المغلوب حريته كاملةً فيقع اختياره طوعاً على قاهره ليكون رئيساً له ، وريثاً يقع هذا تكون كلُّ مصالحه قائمةً على العنف ، ومن ثمّ تكون باطلةً عن ذات الأمر ، فلا يكون بهذا الافتراض أيُّ مجتمعٍ حقيقيٍّ ، أو أية هيئة سياسية ، أو أيُّ قانونٍ غير ما للأنقوى (ثانياً : بما أن كلمة القويّ وكلمة الضعيف مبهمتان في الحال الثانية فإن معنى هاتين الكلمتين في الفاصلة ^{interval} بين قيام حقّ التملك أو وضع اليد الأول وحقّ الحكومات السياسية أحسن إيفاءً بكلمتي الفقير والغنيّ ، وذلك لأنه لم يكن للإنسان قبل القوانين في الحقيقة وسيلةً أخرى لإخضاع أمثاله غير مهاجمة ما لهم أو جعل نصيبهم لهم في ما لهم ، ثالثاً : بما أنه لم يكن لدى الفقراء ما يخشرونه غير حريتهم فإن من حماقتهم الكبيرة أن يتخلّوا باختيارهم عن المال الوحيد الذي بقي لهم فلا يكسبوا شيئاً مقابلةً ، وبما أن الأغنياء هم ، على العكس ، مرهقون الحسّ في جميع أقسام أموالهم فإنه كان من السهل جداً أن يؤذوا ، ولذا كان عليهم أن يتخذوا من الاحتياطات الكثيرة ما يضمنون به أنفسهم من ذلك ، ثم إن من الصواب أن يُعتدّ كونُ الشيء قد اختُرِع من قِبَل من ينفعهم أكثر من كونه قد اختُرِع من قِبَل من يضرهم .

ولم يكن للحكومة الناشئة شكلٌ ثابت ومنتظم قطّ ، وكان نقص الفلسفة والتجربة يحول دون البصر في المحاذير الحاضرة ، وكان لا يُفكر

في الاستعداد تجاه الآخرين إلا بالمقدار الذي يَبْدُونَ به ، وقد ظَلَّت الحال السياسية ناقصة دائماً لأنها كانت من عمل المصادفة تقريباً ، ولأن الزمن بعد بدء السوء لم يستطع أن يُصْلِح نقائص النظام قَطُّ عند اكتشاف العيوب والإيحاء بالدواء ، أى أنه كان يُرَقَّعُ بلا انقطاع بدلاً من أن يُبدَأَ بتطهير الجوِّ وإقصاء الأدوات القديمة كما صنع ليكوزغ في إسبارة ليقم بناءً صالحاً فيما بعد ، ولم يَقم المجتمع في البداية إلا على بعض العهود العامة التي ألزم جميع الأفراد أنفسهم بمراعاتها والتي غَدَتْ ضامنةً لكل واحد منهم ، وقد وَجَبَ أن تدلَّ التجربة على مقدار ما كان من ضعف مثل هذا النظام ، وعلى مقدار ما كان من سهولة اجتناب مخالفته ثبوت الجرم أو العقاب على الذنوب التي كان يجب على الجمهور أن يكون شاهداً عليها قاضياً فيها ، وقد وجب أن يُنَحَّى القانون على ألف وجه وأن تَكْثُر المحاذير والارتباكات باستمرار حتى يُفَكَّرَ أخيراً في تسليم بعض الأفراد وديعة السلطان العامَّ الخطيرة وفي ترك العناية في إطاعة مشورات الشعب إلى بعض الحكام ، وذلك لأن القول باختيار الرؤساء قبل قيام الدولة الاتحادية وبنصب حَفَظَةِ القوانين قبل القوانين نفسها افتراض لا يجوز الجدلُ عنه بجدِّ .

(ومن غير الصواب أن يُعْتَقَدَ أن الشعوب ألقت نفسها في البداية بين ذراعي سيدٍ مطلق بلا شرط ولا رجوع) ، وأن الوسيلة الأولى للقيام بالأمن العام الذي تصوره أناسٌ مختلفون جامحون كانت تدهوراً في العبودية ، ولماذا نَصَّبَ الناس في الحقيقة رؤساء إن لم يكن للدفاع عنهم ضدَّ الاضطهاد ولحفظ

أموالهم وحيواتهم التي هي عناصر وجودهم المكوّنة؟ والواقع أن
 الشؤم الذي يُمكن أن يحدث لأحد الناس في صلات بعض الناس ببعض
 إذ كان في رؤيته نفسه تحت رحمة آخر أفلم يكن مناقضاً للرشاد أن يبدأ
 بتجريد نفسه بين يدي رئيس من الأشياء الوحيدة التي كانوا يحتاجون
 لحفظها إلى مساعدته؟ وأي شيء معادل استطاع تقديمه إليهم من أجل حق
 عظيم كهذا؟ وإذا ما جرؤ على المطالبة به متعللاً بحجة الدفاع عنهم
 أفلا يتلقى الجواب الآتي الذي جاء في القصة: « وأي شيء أكثر من هذا
 يستطيع العدو أن يصنعه بنا؟ »، إن مما لا جدال فيه كون المبدأ الأساسي
 لجميع الحقوق السياسية قائماً على أن الشعوب أُعطيت رؤساء للدفاع عن
 حريتها، لا لاستعبادها، وقد قال بلييني لتراجان: « إذا كان لنا أمير
 فلن يحفظنا من وجود سيد ».

ويأتي السياسيون حول حُب الحرية بذات السفسطة التي يأتي بها الفلاسفة
 حول حال الطبيعة، وذلك أنهم يحكمون بما يرون في أمور تختلف
 جداً عن التي لا يرون، (وهم يعزّون إلى الناس ميلاً طبعياً نحو العبودية
 مستندين إلى الصبر الذي يطبق به عبوديتهم من يقعون تحت عيونهم،
 وذلك من غير تفكير في أن أمر الحرية كأمر العظمة والفضيلة الذي لا يشعر
 بقيمته إلا بدوام التمتع به والذي يضيع ذوقه عند ضياعه، ومن قول
 برزیداس لأحد المرازبة الذي كان يقابل حياة إسارطة بحياة برسيپوليس
 (إضطخر): « أعرف ملاذ بلدك، غير أنك لا تستطيع أن تعرف
 ملاذ بلدي ».

وكما أن الجواد الجامح ^{name} يَنْصِبُ عُرْفَهُ ، وَيَضْرِبُ الأرضَ بِسَنَابِكِهِ ، وَيَهَيِّجُ عند دُنُوِّ اللجام ، على حين يعانى الحصانُ المُرَوِّضُ السَّوْطَ والمهماز صابراً ، تَرَى الإنسانَ من البرابرة لا يُطَاطَى رأسه للنَّيرِ الذى يَحْمِلُهُ الإنسانُ المتمدن غيرَ متذمِّرٍ ، وهو يُفَضِّلُ الحريةَ العاصفةَ على الخضوعِ الساكن ، ولذا لا يَجُوزُ أن يُحْكَمَ بِذُلِّ الشعوبِ المَعْبَدَةِ فى تَصَرُّفاتِ الإنسانِ الطبيعيةِ مَدْحاً للعبودية أو قَدْحاً فيها ، بل بالعجائب التى قامت بها جميع الشعوبِ الحرةِ ضماناً لنفسها من الاضطهادِ ، وأَعْرِفَ أن الأولى لم تَصْنَعْ بلا انقطاعٍ غيرَ امتداحِ السَّلمِ والسكونِ اللذين تتمتع بقبودهما ، وأنها « تُسَمَّى أُنْعَسَ عبوديةً أُمْنًا ^(١) » ، ولكننى حينما أرى الآخرين يُضْحَوْنَ بالملاذِّ والسكونِ والثراءِ والقوةِ والحياةِ نفسها حفظاً لهذا المالِ الوحيدِ الذى يزدرىه من أضعافه ، ولكننى حينما أرى الحيواناتِ التى تُولَدُ حُرَّةً وَتَمُتُّ الأُسْرَ تكسرُ رأسها على قُضبانِ سجنها ، ولكننى حينما أرى زُمَراً من الوحوشِ الكاملى العُرَى يزددون الملاذَّ الأوربيةَ ويحترقون الجوعَ والنارَ والحديدَ والموتَ حفظاً لاستقلالهم فقط ، أَشْعُرُ بأن البرهنةَ حول الحرية ليست من شأن العبيد .

وأما السلطةُ الأبويةُ ، التى اشتقَّ منها الحكومةُ المطابقةُ وجميعُ المجتمعِ كثيرٌ من الكتاب ، وذلك من غير رجوعٍ إلى أدلة لُوكْ وسِيدْنِي المعاكسة ، فيكفى أن يلاحظَ أنه لاشئ فى الدنيا أكثرُ ابتعاداً عن روحِ الاستبدادِ الضارى من حِلْمِ هذا السلطةِ التى تنظرُ إلى نَفْعٍ من يُطِيعُ أكثرَ

(١) تاسيت ، التاريخ ، باب ٤ ، فصل ١٧ .

من نظرها إلى فائدة من يأمر ، وأن الأب ، على حسب قانون الطبيعة ، ليس سيد الولد إلا للزمن الذي تكون معونته ضرورية له ، فإذا مرَّ هذا الزمن صارا متساويين ، وهناك إذ يصبح الولد مستقلاً عن الأب تماماً فإنه لا يكون مدينًا له بغير الاحترام ، لا الطاعة ، وذلك لأن معرفة الجميل واجبٌ يجب تأديته ، لا حقٌّ يُمكن أن يطالب به ، وكان يجب أن يقال إن السلطة الأبوية تنال قوتها الرئيسة من المجتمع المدني بدلاً من أن يقال إن المجتمع المدني يُشتق من السلطة الأبوية ، ولم يُعترف بأن الفرد أبٌ للكثيرين إلا عندما يبقون مجتمعين حوله ، وما لدى الأب من أموالٍ يملكها حقاً هو الصلاتُ التي تُبقى أولاده تابعين له ، ويستطيع الأب ألاَّ يجعل لهم نصيباً في ميراثه إلا بنسبة ما يستحقون ذلك منه بامتنالٍ دائمٍ لمشيئته ، والواقع أن من البعيد أن يكون للرعايا نفعٌ مماثل ينتظرونه من طاعتهم ما داموا هم وجميع ما يملكون مالا له أو ما دام يزعم هكذا ، فهم مُلزَمون بأن يعدُّوا فضلاً ما يتركه لهم من مالم الخصاص ، وهو يعدل إذا ما جردهم ، وهو يتساهل إذا ما تركهم يعيشون .

وإذا داومنا على البحث في الوقائع حقوقياً على هذا الوجه لم نجد ما هو أقل من الحقيقة في قيام الطغيان عن رضا ، ويكون من الصعب إثبات صحة عقدٍ لا يُلزم غير أحد الفريقين ، وأن يقع الغرم على فريقٍ واحد دون الآخر ، فلا يعاينه سوى مَنْ يُلزم به نفسه ، ويَبْعدُ أن يكون هذا النظام المقنن ، حتى في أيامنا ، نظام ذوى الرشاد والصالح من الملوك ، ولا سيما ملوك فرنسا ، كما يُمكن أن يُرى ذلك في غير مكانٍ من مراسيمهم ، ولا سيما العبارة

الآنية التي جاءت في مرسوم مشهور نُشِرَ في سنة ١٦٦٧ باسم لويس الرابع عشر وعن أمرٍ منه ، وهي : « دَعْنَا لَا نَقُول ، إِذَنْ ، كُونَ وَلِيٌّ ^{Sovereign} ^{Subjekt} الأمر غير خاضعٍ لقوانين دولته ، وذلك لأن العكس من حقائق حقوق الأمم التي هُوِجَت عن مَلَقٍ أحياناً ، ولكن مع دفاع الأمراء الصالحين عنها دائماً ، وذلك كألوهيةٍ حافظةٍ لدولهم ، وما أَكْثَرَ ما يطابق الصواب أن يقال مع أفلاطونَ الحكيم إن سعادةَ المملكةِ الكاملةِ هي في إطاعة الرعايا لأمرهم وإطاعة الأمير للقانون وفي كون القانون قوياً قاصداً خيرَ الناس ^(١) ! » ، ولا أَقِفُ مطلقاً عند البحث في أن الحرية إذا كانت أشرفَ خصائص الإنسان فإنه ألا يكون من حطَّ طبيعتنا وتنزيلنا إلى مستوى الحيوانات التي هي عِبْدَةُ الغريزة ، ومن التجديف على صانع وجودنا ، أن نَعْدِلَ بلا قِيْدٍ عن أَمْنٍ نَعْمِهِ ، وأن نقاد لضرورة اقتراف جميع الجرائم التي نَهَى عنها مجازاةً لسيد ضارٍ أو مجنون ، فنَغْضِبَ هذا الصانع الرفيع غَضَباً يجب أن يشتدَّ من تخريب أجمل ما صنع كاشتداده من فَضَحَ هذا الصُّنْع ، وأنغافل ، إذا ما سُمِحَ لى ، عن اختصاص باربيزك الذي تابع لوكٍ فَصَّرَحَ بوضوح أنه لا أحد يستطيعُ بَيْعَ حرّيته حتى الخضوعَ لسلطانٍ مرادىٍ يعامله على حسب هواه ، « وذلك لأن هذا ينطوى على بَيْعِ حياته التي ليس سيدها » ، وإنما أسأل ، فقط ، عن حقِّ أولئك الذين لم يَخْشَوْا حَطَّ أَنْفُسِهِمْ حتى هذه النقطة فاستطاعوا أن يجعلوا حَقْدَهُمْ خاضعين لذات العار ، وأن

(١) « رسالة في حقوق الملكة البالغة النصرانية في مختلف دول مملكة إسبانية » ، ٦٦٧ ، المطبعة الملكية .

يَتَنَزَّلُوا فِي سَبِيلِهِمْ عَنْ أَطَايِبَ لَمْ يَنَالُوهَا مِنْ كَرَمِهِمْ فَتَكُونُ الْحَيَاةُ بَعِيرَهَا ثَقِيلَةً عَلَى جَمِيعٍ مِنْ يَسْتَحَقُّونَهَا .

وَيَقُولُ يُؤَفِّدُورَفُ إِنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجَرِّدَ نَفْسَهُ مِنْ حُرِّيَّتِهِ نَفْعًا لِآخَرِينَ كَمَا يَنْقُلُ مَالَهُ إِلَى آخَرِينَ بِعَهْدٍ وَعَقُودٍ ، وَيُلَوِّحُ لِي أَنْ هَذِهِ بَرَهَنَةٌ سَيِّئَةٌ ، وَذَلِكَ ، أَوَّلًا ، أَنْ الْمَالَ الَّذِي أُبِيعَ بِصَبْحٍ عِنْدِي أَمْرًا غَرِيبًا تَمَلُّمًا ، وَيَقْدُو سَوْءَ اسْتِعْمَالِهِ أَمْرًا لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، وَلَكِنْ مِمَّا يُمْنِي أَلَّا يُسَاءَ اسْتِعْمَالُ حُرِّيَّتِي ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُعَرِّضَ نَفْسِي لِتَكُونَ أَدَاةَ جَرِيْمَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَكُونَ مَذْنِبًا بِالسَّوَاءِ الَّذِي أُحْمَلُ عَلَى صَنْعِهِ ، ثُمَّ بِمَا أَنْ حَقَّ التَّمَلُّكِ لَيْسَ سِوَى عَهْدٍ وَنِظَامٍ بَشَرِيٍّ فَإِنْ كُلٌّ وَاحِدٌ يَقْدِرُ عَلَى التَّصَرُّفِ فِيمَا يَمْلِكُ ، وَلَكِنْ غَيْرَ هَذَا هَبَاتُ الطَّبِيعَةِ الْجَوْهَرِيَّةِ كَالْحَيَاةِ وَالْحَرِيَةِ اللَّتَيْنِ يُبَاحُ لِكُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يَتَمَتَّعَ بِهِمَا وَاللَّتَيْنِ يُشَكُّ فِي أَنَّهُ يَحِقُّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُجَرِّدَ نَفْسَهُ مِنْهُمَا ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَا أَقْصَى عَنْ نَفْسِهِ إِحْدَاهُمَا يَكُونُ قَدْ أَذَلَّ نَفْسَهُ وَإِذَا مَا أَقْصَى نَفْسَهُ عَنِ الْآخَرَى يَكُونُ قَدْ لَأَشَاهَا فِيهِ مَا دَامَتْ فِيهِ ، وَلَكِنْ بِمَا أَنْكَ لَا تَجِدُ خَيْرًا دُنْيَوِيًّا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعَوِّضَ مِنْ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْ إِهَانَةِ الطَّبِيعَةِ وَالْعَقْلِ مَعًا أَنْ يُعْدَلَ عَنْهُمَا بِأَيِّ ثَمَنِ كَانَ ، وَلَكِنْ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَبِيعَ حُرِّيَّتَهُ كَأَمْوَالِهِ كَانَ الْفَرْقُ عَظِيمًا مِنْ نَاحِيَةِ أَوْلَادِهِ الَّذِينَ لَا يَتَمَتَّعُونَ بِأَمْوَالِ آبَائِهِمْ إِلَّا بِنَقْلِ حَقِّهِ ، وَذَلِكَ بَدَلًا مِنْ كَوْنِ الْحَرِيَةِ ، الَّتِي هِيَ مُوهَبَةٌ يَنَالُونَهَا مِنَ الطَّبِيعَةِ كَأَنْفَاسٍ ، لَا يَحِقُّ لِآبَائِهِمْ أَنْ يُجَرِّدُوهُمْ مِنْهَا مُطْلَقًا ، وَذَلِكَ كَمَا أَنَّهُ وَجِبَ أَنْ يُعْتَفَ بِالطَّبِيعَةِ إِقَامَةُ لِلرَّقِّ وَجِبَ تَغْيِيرُهَا إِدَامَةً لِهَذَا الْحَقِّ ،

فالفقهاء ، الذين ذهبوا باتزانٍ إلى أن ابنَ العبد يُولد عبداً ، يكونون قد قرَّروا بعبارةٍ أخرى كونَ الإنسان لا يُولد إنساناً .

ولذا يُلوحُ لى أن من الثابت كونَ الحكومات لم تَبْدَأ قطُّ بالسلطة المُرَادِيَةِ فقط ، كونهما لم تَبْدَأ بهذه السلطة التي ليست غيرَ إفسادٍ لها ، غيرَ أقصى حَدٍّ لها ، والتي تَرُدُّها في نهاية الأمر إلى قانون الأقوى الذي كانت علاجاً ^{remedy} له في بدء الأمر ، ولكن الحكومات ، حتى عند افتراض بدء أمرها على هذا الوجه ، لم تكن تلك السلطة فيها لتستطيع بطبيعتها غير الشرعية أن تَصْلُح أساساً لقانون المجتمع ولا لتفاوت النظام نتيجةً .

وإني ، من غير أن أدخل اليومَ في المباحث التي لا يزال من الواجب صنعها حَوْلَ طبيعة الميثاق الأساسي لكلِّ حكومة ، أقتصرُ ، باتباعي الرأي السائد ، على عَدَى نظامِ الهيئة السياسية عقداً حقيقياً بين الشعب والرؤساء الذين يختارهم ، عقداً يُلْزِمُ كلٌّ من الفريقين نفسه بمزاغة القوانين التي اشترطت فيه فتؤلَّف روابطُ لاتحادها ، وبما أن الشعب في موضوع الصلات الاجتماعية يَجْمَعُ جميعَ إراداته ضمنَ إرادةٍ واحدة فإن الموادَّ التي توضحُ بها ^{articles} هذه الإرادة تصبح قوانينَ أساسيةً تُلْزِمُ جميعَ أعضاء الدولة من غير استثناء ، فيُنظَّم أحدهما أمرُ الخيار وسلطةَ الحكم الموكَّل إليهم أن يَسْهَرُوا على تنفيذ الأخرى ، وتعمُّ هذه السلطةُ كلَّ ما يُمكن أن يحفظ النظام من غير ذهابٍ إلى الحدِّ الذي يُغَيِّرُ به ، وإلى هذا تُصَافُ أنواعٌ من الشرف تجعلُ القوانينَ وحفظَها محترمةً ، وتجعلُ هؤلاء شخصياً من الامتيازات ما يُعَوِّضهم من الأعمال الشاقة التي تكلفهم الإدارة الصالحة بها ، والحاكمُ

magistrate

من ناحيته يُلْزَم نفسه بالألا يستعمل السلطة التي عُهِدَ إليه أن يقوم بها إلاَّ وَفْقَ مَقْصِدِ مُوَكَّلِهِ وبأن يجعل كلَّ واحدٍ يتمتع بما هو خاصُّ به تمتعاً هادئاً ، وبأن يُفَضِّل المصلحة العامة على المصلحة الشخصية في كلِّ فرصة .

ووجب ، قبل أن تدلَّ التجربة ، أو معرفة القلبِ البشريِّ ، على ما يعتبر مثلَ هذا النظام من سوء استعمالٍ لا مناصَ منه ، أن يظهر أن الذين كان قد عُهِدَ إليهم أن يَسْمُرُوا على حِفْظِهِم أكثرُ الناسِ غرضاً فيه ، وذلك بما أن الحاكمة وحقوقها لم تقوما على غير القوانين الأساسية فإن هذه القوانين إذا ما قُوِّضت عاد الحكام لا يكونون شرعيين من فورهم وعاد الشعبُ غيرَ مُلْزَمٍ بإطاعتهم ، وبما أن القانون ، لا الحاكم ، هو الذي يقيم جوهرَ الدولة فإن كل واحد يعود إلى حريته الطبيعية عن حق .

وإذا أنعمنا النظر قليلاً في هذا الموضوع وجدناه يؤيدُّ بأسبابٍ جديدة ، ورئى أنه يتعذر نقضه ، وذلك لأنه إذا كانت لم توجد سلطةٌ عاليةٌ قادرةٌ أن تكون ضامنةً لإخلاص المتعاقدين أو أن تحمِلهما على القيام بالتزاماتهما المتبادلة ظلَّ الفريقان قاضيين وحيدين في قضيتهما الخاصة ، وكان لكل واحد منهما حقُّ العدول عن العقد فوراً ما يجدُّ نقضَ الفريق الآخر للشروط أو حينما تعود غير ملائمةٍ له ، ويظهر أن حقَّ التنزل يُمكن أن يكون قائماً على هذا المبدأ ، والواقع أننا إذا لم ننظر ، كما نصنع ، إلى غير النظام البشريِّ ، وذلك عند ما يكون الحاكمُ القابضُ على جميع السلطة ، والمنتحلُّ لجميع فوائد

العقد ، ذا حَقٍّ في العدول عن السلطة على الخصوص ، فإن من الأولى أن يكون الشعب الذي يَدْفَعُ ثمنَ جميع أغاليط الرؤساء ذا حَقٍّ في العدول عن خضوعه ، غير أن الانقساماتِ الكريهة والارتباكاتِ غير المحدودة التي تؤدي إلى هذه السلطة الخطرة بحكم الضرورة تدلُّ ، بأكثر مما على أي شيء آخر ، على مقدار ما كانت الحكومات البشرية محتاجةً إليه من قاعدةٍ أشدَّ متانةً من العقل وحدَه ، وعلى مقدار ما كان ضرورياً للراحة العامة التي تتدخل فيها المشيئة الإلهية منجاً للسلطة ذات السيادة صبغةً مقدسة لا تُنْقَضُ فَتَنْزِعُ من الرعايا ما في التصرف فيها من حَقٍّ مشؤوم ، وإذا كان الدين لم يَصْنَعِ للناس غيرَ هذا الخيرِ كان لهم في هذا ما يَفْرِضُ عليهم واجبَ اعتناقه وتعهُّده ، حتى مع سوء استعماله ، مادام يَحْتَقِنُ من الدماء ما هو أكثر مما سَفَكَه التعصب ، ولكن لنتعقبَ خِيْطَ افتراضنا .

وتكون أشكالُ الحكومةِ المختلفةُ مدينةً بأصلها لدرجةٍ ما يكون بين الأفراد من الفروق حين قيامها ، وإذا كان أحدُ هؤلاء مُتَفَوِّقاً في القوة أو الفضل أو الغنى أو الواجهة انتُخِبَ حاكماً وصارت الدولة مَلَكيةً ، وإذا كان الكثيرون متساوين فيما بينهم تقريباً وكانوا يفوقون الآخرين انتُخبوا معاً وتكوَّنت أريستوقراطيةٌ ، ومن كان الثراء والمواهبُ عندهم أقلَّ تفاوتاً ، وكانوا أقلَّ بُعداً من حال الطبيعة ، حافظوا بالاشتراك على الإدارة العليا وألفوا ديموقراطيةً ، وقد أثبتَ الزمانُ أيُّ الشكلين كان أنفعَ للناس ، وقد ظلَّ بعضُ الناس خاضعين للقوانين فقط ، ولم يَلْبَثِ الآخرون أن أطاعوا سادةً ، وأراد المواطنون أن يحتفظوا بحريتهم ، ولم يُفَكِّرِ الرعايا في غير نزاعها

من جيرانهم ، غير صابرين على تمتع آخرين بخير كانوا قد أضاعوه ،
والخلاصة أن الثروات والفتوح كانت من ناحية وأن السعادة والفضيلة كانتا
من ناحية أخرى .

وكانت الحاكيات كلها في هذه الحكومات المختلفة انتخابية ، وعندما
كان الفوز لغير الثراء كانت الأفضلية للمزية التي تُنعم بنفوذ طبيعي وللسن
التي تُنعم بالتجربة في الأمور وبالاعتدال في المذاكرات ، ويدل شيوخ
العبريين وشيوخ الإسبارطيين وسينات رومة ، واشتقاق كلمة « سينور »
عندنا ، على مقدار ما كان للعشيب من احترام فيما مضى ، وكلما كانت
الانتخابات تقع على أناس طاعنين في السن صارت متواترة وشعر
بمصاعبها ، فقد نسجت مكاييد وألفت عصابات واختدت أحزاب ، واشتعلت
حروب أهلية ، وضجى بدم المواطنين في سبيل سعادة للدولة مزعومة ،
وأوشك الناس أن يسقطوا في فوضى الأزمنة السابقة ، وقد استفاد الزعماء
ذوو الطموح من هذه الأحوال إدامة إخدمهم في أسرهم ، وقد رضى
الشعب ، الذى تعود الخضوع والراحة ورغد العيش ، والذى عجز عن
كسر قيوده ، أن يترك عبوديته تزيد توطيدا لراحته ، وهكذا تعود الزعماء ،
الذين أصبحوا وراثيين ، أن يعدوا حاكميتهم مال أسرة وأن يعدوا أنفسهم
مالكي الدولة التى لم يكونوا غير موظفيها في البداية ، فيدعون مواطنيهم
عبيدهم ويخسبونهم كالأنعام بين الأشياء التى يملكونها ويدعون أنفسهم
مساوين للآلهة أو ملوك الملوك .

(وإذا ما تتبعنا تقدم التفاوت في هذه الثورات المختلفة وجدنا أن وضع

القانون وحق التملك كانا ^{term} حدّ الأول ، وأن قيام الحاكمية كان حدّ الثاني ، وأن تحول السلطة الشرعية إلى سلطة ^{arbitrary} مرادية كان حدّ الثالث والأخير ، فأجيز حال الغنى والفقر في الدور الأول ، وأجيز حال القوى والضعيف في الدور الثاني ، وأجيز حال السيد والعبد في الدور الثالث الذي هو آخر درجة للتفاوت والحدّ الذي ينتهي إليه جميع الأخرى في نهاية الأمر ، وذلك إلى أن تقضى ثورات جديدة على الحكومة تماماً أو أن تؤدّيها من النظام الشرعي .

ويجب ، لإدراك ضرورة هذا التقدم ، أن ينظر إلى ^{motives} عوامل قيام الهيئة السياسية أقلّ مما إلى ^{form} الشكل الذي تتخذه في تنفيذه ، والمحاذير التي يجرّها وراءه ، وذلك لأن العيوب التي تجعل النظم الاجتماعية أمراً ضرورياً هي عين العيوب التي تجعل سوء استعماله أمراً لا مفرّ منه ، وإذا استثنيت إسارطة ، حيث كان القانون يسهّر على تربية الأولاد خاصة ، وحيث أقام ليكوزغ من العادات ما كان يغنيه عن إضافته قوانين ، وجدت القوانين ، التي هي أقلّ قوة من الأهواء على العموم ، تردّع الناس من غير أن تُغيّرهم ، ومن السهل إثبات كون كل حكومة تسير ، من غير فساد ولا عيب ، دائماً وتاماً ، وفق غاية نظامها ، فتقوم بلا ضرورة ، وكونه لا احتياج إلى حكام ولا إلى قوانين في بلد لا تجتنب القوانين ولا يساء استعمال الحاكمية فيه .

وتؤدى الفروق السياسية إلى فروق مدنية بحكم الضرورة ، ولا يلبث التفاوت الذي يزيد بين الشعب ورؤسائه أن يُشعر به بين الأفراد فيتحوّل على ألف وجه وفق الأهواء والمواهب والمصادقات ، وما كان الحاكم ليغتصب

سلطة غير شرعية من غير أن يتخذ من العمال مَنْ يُضْطَرُّ إلى منحهم قسماً منها ، ثم إن المواطنين لا يَسْمَحُونَ بأن يُضْغَطُوا إلا عن سيرٍ وراء طموحٍ أعمى ، وهم إذ يَنْظُرُونَ إلى ما تحتهم أكثر مما إلى فوقهم فإن السيطرة تصبح أعزَّ من الاستقلال عندهم ويوافقون على تكبيهم بقيودٍ يَقْدِرُونَ على مَنَحِهَا بَذَوْرِهِمْ ، ومن الصعوبة بمكان أن يُحْمَلَ على الطاعة مَنْ لا يحاول أن يَسُوسَ مطلقاً ، وما كان أمرُ السياسين ليستعبد أناساً لا يريدون إلا أن يكونوا أحراراً ، بَيِّدَ أن التفاوت ينتشر من غير مشقةٍ بين ذوى الطموح والجبن من النفوس المستعدة للسعى وراء مخاطر النصيب في كلِّ وقتٍ والتي لا تبالي بالسيطرة أو الخِدْمَة على حَسَبِ ما تكون ملائمةً أو معاكسةً لها ، وهكذا فإنه لا بُدَّ من أن يكون قد أتى زمنٌ بلغت عيونُ الشعب فيه من السحر ما لم يَبْقَ لِقَادَتِهِ أن يخاطبوا أصغرَ الناس معه بغير قولهم : « كُنْ كبيراً أنت وجميعُ ذريتكَ » ، وهنالك بداً كبيراً لجميع الناس كما بدا في عَيْنِي نفسه ، وأخذ عَقْبُهُ يرتفع كلما بَعُدَتْ المسافة منه ، وكلما كانت العلة غامضةً حائرةً زاد العلول ، وكلما كَثُرَ الكُسَالَى في أسرةٍ زادت مجداً .

ولو كان هنا مكانٌ صالحٌ للدخول في التفصيل لَسَهَّلَ على أن أوضح كيف يصبح التفاوت في الواجهة والسلطان أمراً لا مَفَرَّ منه بين الأفراد "١٩" ، حتى عند عدم تَدَخُّلِ الحكومة ، وذلك لأن الأفراد إذا ما اجتمعوا في مجتمع واحد لم يلبثوا أن يُضْطَرُّوا إلى المقابلة فيما بينهم وإلى ملاحظة الفروق التي يَجِدُونَهَا في معاشرتهم بعضهم لبعض ، ولهذا

الفروق أنواع كثيرة ، ولكن بما أن الثراء ، والشرف أو المقام ، والسلطان والمزية الشخصية فروق رئيسة يُقاسُ بها في المجتمع فإنني أثبت أن توافق هذه القوى المختلفة أو تصادمها أصدق دليل على دولة حسنة التكوين أو سيئته ، وإنني أثبت أن الصفات الشخصية بين أنواع التفاوت الأربعة هذه إذ كانت أصل جميع الأخرى فإن الغنى هو آخر ما تُردُّ إليه في نهاية الأمر ، وذلك بما أنه يكون أكثر ما ينفع رَغَدَ العيش مباشرةً وأكثر ما يسهل نقله فإنه يُستخدَم بسهولة لا شراء جميع البقية ، فهذه الملاحظة يُمكن أن يُحكَمَ بشيء من الدقة في المقياس الذي ابتعده كلُّ شعب عن نظامه الابتدائي وعن الطريق التي رسمها نحو أقصى حدٍّ للفساد ، وألاحظ مقدار ما تعمل في المواهب والقوى وتقابل بينها هذه الرغبة العامة في الصيت والشرف والأفضليات التي تأكلنا جميعاً ، ومقدار ما تهزُّ الأهواء وتزيدها ، ومقدار ما تجعل جميع الناس متنافسين متزاحمين ، وإن شئت فقل أعداء فتودى كل يوم إلى نوابٍ ونجاحٍ ومصائبٍ من كل نوع ، وذلك بحملها ذوى المزاعم على خوض عين المعارك ، وأثبت أننا مدينون لهذه الحمى في التحدث عن النفس ، ولهذه الصولة في التمايز التي تُخرج المرء عن الصواب تقريباً بأحسن ما يوجد بين الناس وأردنه ، أى بفضائلنا ومعايينا وبمعارفنا وأغاليطنا ، وبقاهرينا وفلاسفتنا ، أى بطائفة من الأمور الطالحة حول قليل من الأمور الصالحة ، وأخيراً أثبت أنه يُرى قبضة من الأقوياء والأغنياء على ذروة العظمة والثراء على حين يتخبط الجمهور في البؤس والظلام ، وذلك عن كون أولئك لا يُقدِّرون الأمور التي لا يتمتعون بها إلا بمقدار

ما يكون الآخرون محرومين إياها ، وعن كونهم يَعُودُونَ غيرَ سَعْدَاءٍ إِذَا مَا عَادَ
الشعب لا يكون بأَسَاءٍ .

بَيَدَ أَنَّ تِلْكَ الْجَزْئِيَّاتِ وَحَدَهَا تَكُونُ مَادَّةَ سِفَرٍ جَلِيلٍ تُوزَنُ فِيهِ
مَحَاسِنُ كُلِّ حُكُومَةٍ وَمَسَاوِيهَا مِنْ حَيْثُ حَقُوقُ حَالِ الطَّبِيعَةِ ، وَحَيْثُ
يُكْشَفُ جَمِيعُ مُخْتَلَفِ الْوُجُوهِ الَّتِي يَبْدُو التَّفَاوُتُ تَحْتَهَا حَتَّى هَذَا الْيَوْمَ ،
وَيُمْكِنُ أَنْ يَبْدُوَ فِي الْقُرُونِ الْقَادِمَةِ ، وَذَلِكَ وَفَقَ طَبِيعَةِ هَذِهِ الْحُكُومَاتِ
وَالثَّوَرَاتِ الَّتِي يَحْرُثُهَا الزَّمَنُ إِلَيْهَا بِحَكْمِ الضَّرُورَةِ ، وَهَنَالِكَ يُرَى الْجُمْهُورُ
الْمُضْطَهَدُ فِي الدَّخْلِ نَتِيجَةَ احْتِيَاطَاتٍ اتَّخَذَهَا ضِدَّ مَنْ هَدَّدَهُ فِي الْخَارِجِ ،
وَهَنَالِكَ تُرَى زِيَادَةُ الْاضْطِهَادِ بِأَطْرَافٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَطِيعَ الْمُضْطَهَدُونَ مَعْرِفَةَ
حَدِّ لَهُ ، وَلَا الْوَسِيلَةَ الْمَشْرُوعَةَ الَّتِي تَبْقَى لَهُمْ لَوْقْفِهِ ، وَهَنَالِكَ يُرَى انْقِطَاعُ
حَقُوقِ الْمَوَاطِنِينَ وَالْحُرِّيَّاتِ الْقَوْمِيَّةِ مَقْدَارًا مَقْدَارًا وَعَدُّ احْتِجَاجِ الضَّعْفَاءِ
تَذَمُّرَاتٍ تَمَرُّدٍ ، وَهَنَالِكَ يُرَى قَصْرُ السِّيَاسَةِ شَرَفَ الدِّفَاعِ عَنِ الْقَضِيَّةِ
الْعَامَةِ عَلَى فَرِيقٍ مَرْتَقٍ مِنَ الشَّعْبِ ، وَهَنَالِكَ يُرَى ظُهُورَ ضَرُورَةِ الضَّرَائِبِ
فَيَتْرَكُ الزَّارِعُ الْيَأْسُ حَقْلَهُ حَتَّى فِي أَثْنَاءِ السَّلْمِ وَيَهْجُرُ مَحْرَاثَهُ لِيَتَقَلَّدَ السِّيفَ ،
وَهَنَالِكَ يُرَى بَرُوزَ مَبَادِي الشَّرَفِ الْمَشْهُومَةِ الْغَرِيبَةِ ، وَهَنَالِكَ يُرَى تَحَوُّلَ
حُمَاةِ الْوَطَنِ إِلَى أَعْدَاءٍ عَاجِلًا كَانَ ذَلِكَ أَوْ آجَلًا حَامِلِينَ بَلَا انْقِطَاعٍ خَنْجَرًا
مَرْفُوعًا فَوْقَ مَوَاطِنِهِمْ ، فَيَأْتِي زَمَنٌ يُسْمَعُ فِيهِ قَوْلُهُمْ لَطَاغِيَةً بِلَدِهِمْ :
« إِذَا أَمَرْتَنِي أَنْ أَضْرِبَ بِالسِّيفِ صَدْرَ أَخِي أَوْ رَقَبَةَ
وَالِدِيَّ وَأَنْ أَضْرِبَ بِالسِّيفِ أَحْشَاءَ زَوْجَتِي فَعَلْتُ ذَلِكَ
كَلَّهَ يَدِي الْيَمْنَى مُضْطَرًّا » .

(وعن أقصى تفاوت الأحوال والثروات واختلاف الأهواء والمواهب وعن
 الفنون غير المفيدة والفنون الضارة والعلوم التافهة نشأت طوائف من
 المبتسرات المخالفة للعقل والسعادة والفضيلة على السواء ، ويرى إيقاد الزعماء
 لكل ما يمكن أن يضعف الناس المجتمعين بتفريق ما بينهم ، ولكل
 ما يمكن أن يمتنع المجتمع مَسْحَةً من الوفاق الظاهر ويبدّر فيه جرائم
 الشقاق الحقيقي ، ولكل ما يمكن أن يوحى إلى مختلف المنظمات بتحد
 وحقد متبادلين عن معارضة بعض حقوقها ومصالحها ببعض وعن تقوية
 السلطة الجامعة لها جميعاً من حيث النتيجة .

ومن بين هذه الارتباكات والثورات رفع الاستبداد رأسه الفظيع
 بالتدريج واقتصر كل ما وجدّه صالحاً صحيحاً في جميع أقسام الدولة ، فانتهى
 أخيراً إلى دوس القوانين والشعب وإلى القيام على أنقاض الجمهورية ،
 وكانت الأزمنة التي سبقت هذا التحول الأخير أزمنة اضطرابات وكوارث ،
 غير أن الجميع قد ابتلع من قبل الغول في نهاية الأمر ، وعاد لا يكون
 للشعوب زعماء ولا قوانين ، بل طغاة فقط ، وصار لا يُبحث منذ هذه
 الدقيقة في الطبائع والفضيلة ، وذلك لأن الاستبداد في كل مكان يسوده
 لا يحتمل أي سيد آخر ، وإذا ما تكلم الاستبداد لم يبق صلاح ولا واجب
 ليُستشار ، ولم يبق للعبيد فضيلة غير الطاعة العمياء .

وهنا آخر حدٍ للتفاوت وأقصى نقطة تُفلق الدائرة وتمس النقطة
 التي ذهبنا منها ، وهنا يعود الأفراد إلى مساواتهم الأولى ، وذلك لأنهم
 ليسوا شيئاً يُذكر ، ولأن الرعايا إذ عاد لا يكون لديهم من القوانين غير

مشيئة السيد ، وعاد لا يكون للسيد من القواعد غير أهوائه ، فإن مبادئ الخير والعدل تزول مرة أخرى ، وهنا يُرَدُّ كلُّ شيء إلى قانون الأقوى فقط ، ومن ثمَّ إلى حالٍ جديدة للطبيعة مختلفة عن الحال التي بدأنا منها ، وذلك لأن إحدى الحالين كانت حال الطبيعة في صفائها ، ولأن الحال الأخرى هي نتيجة إفراطٍ في الفساد ، ثم إنه يُوجَد بين هاتين الحالين من قلة الاختلاف ، ويكون عقدُ الحكومة من الانحلال بالاستبداد ، ما يَبْقَى المستبدُّ معه سيداً ما ظلَّ الأقوى ، فإذا ما أمكن طرده لم يَكُنْ عنده ما يَشْكُو منه ضدَّ العنف ، وتعدُّ الفتنة الشعبية التي تنتهي بخلق أحد السلاطين أو خلعه عملاً قانونياً كالأعمال التي كان يتصرف بها قبل يومٍ في حياة رعاياه وأموالهم ، والقوة الوحيدة التي كانت تؤيده هي التي تُسْقِطُه وحدها ، وهكذا فإن جميع الأمور تسير على حَسَبِ النظام الطبيعي ، ومهما يكن من أمر هذه الثورات القصيرة والكثيرة الوقوع فإنه لا يستطيع أحدٌ أن يَتَوَجَّع من جَوْر الآخر ، بل من سوء حظه أو عدم تَبَصُّره .

وهكذا إذا ما اكتشف القارئُ النبيه ، وتذمَّع ، الطُّرُقَ المَنَسِيَّةَ والضائعة التي لا بُدَّ من أن تكون قد أتت بالإنسان من الحال الطبيعية إلى الحال المدنية ، وإذا ما أعاد القارئُ النبيه ، بمواقع متوسطة بَيَّنَّتْهَا ، تلك التي حَمَلَنِي الوقتُ على حذفها أو التي لم يُوحِ الخيالُ بها إلى قَطُّ ، لم يُمْكِنْهُ إلا أن يَحَارَّ من المسافة الواسعة التي تَفْصِلُ بين هاتين الحالين ، ففي تعاقب الأمور البطيء هذا يُبْصِرُ حَلَّ ما لا يُحْصَى من المسائل الخَلْقِيَّةِ والسياسية التي لم يستطع الفلاسفة أن يَحْلُوهَا ، وهو ، إذ يَشْعُرُ بأن النوع

البشرى في جيلٍ ليس النوع البشرى في جيلٍ آخر ، يَعْلَمُ السبب في كون ذوجانس لم يَجِدْ إنساناً قطُّ ، وذلك لبعثه بين معاصريه عن إنسانٍ زمنٍ غيرٍ موجود ، وهو يقول إن كاتُون مات مع رومةَ والحريّةِ لعدم ملاءمته عصرًا عاش فيه ، وإن أعظمَ الناس هذا لم يَصْلُحْ إلّا للإلقاء الحيرة في عالمٍ كان يَمْلِكُهُ ، يقينًا ، لو ظهر قبل خمسمئة سنة ، والخالصة أنه يُوضَح كيف أن الروح والأهواء البشرية تَفْسُدان على وجهٍ غير محسوس ومن ثمَّ تُغَيِّران طبيعتيهما ، ولماذا تُغَيِّرُ احتياجاتنا وملاذُنَا غَرَضًا مع الزمن ، ولماذا يزول الإنسان الأصليُّ بالتدريج فيعود المجتمع لا يُبْدِي لِعَيْنِي الحكيم غيرَ جَمْعٍ من الآدميين المُفْتَعَلِينَ وأهواء مصنوعةٍ نتيجةً لجميع هذه الصلات الجديدة ، ومن غير أن يكون لها أساسٌ حقيقيٌّ في الطبيعة ، وما يُعَلِّمُنَا التأملُ إياه فوق ذلك تُؤَيِّدُهُ الملاحظة تمامًا ، وذلك أن الإنسان الوحشيَّ والإنسان المتمدن يُبْلَغَان من الاختلاف قلبًا وميولًا ما يكون باعثُ السعادة العليا لأحدهما معه عاملٌ قنوطٍ الآخر ، فالأولُ لا يستنشِقُ غيرَ الراحة والحريّة ، وهو لا يريد إلا أن يعيش ويبقى خاليًا من العمل ، حتى إن سكون الرُّواقِ لا يُقَاسُ بعدم مبالاته العميقة تجاه أيِّ موضوعٍ آخر ، وعلى العكس تَجِدُ الإنسان المتمدن نشيطًا دائمًا فيَعْرِقُ ويَهْتَرُ ويضطرب بلا انقطاعٍ بحثًا عن أشاغلٍ أشدَّ عُسرًا ، وهو يَعْمَلُ حتى الموت ، وهو يَسْعَى إلى الموت ليعيش أو يَعْدِلُ عن الحياة نَيْلًا للخلود ، وهو يتودّد إلى العطاء الذين يمتقّهم وإلى الأغنياء الذين يحتقرهم ، وهو لا يَدَّخِرُ وسعًا لينال شرفَ خدمتهم ، وهو يُبَاهِي منتفخًا بنذالته وحمايتهم ، وهو يفاخر بعبوديته ، وهو يُحَدِّثُ مع

الاستخفاف عن الذين لم يتفق لهم شرفٌ مقاسمته إياها ، وبالمناظر أعمال الوزير الأوربي الشاقة المبتغاة في نظر الكرايبي ! وما أكثر المنايا القاسية التي لا يُفضلها هذا الوحش البليد على هَوَل مثل تلك الحياة التي لم تُلطَّف حتى بلذة فعل الخير ! ولكنه يجب لرؤية الغاية من هذه الجهود الكثيرة أن يكون لكلمتي « السلطة والجمهورية » معنى في ذهنه ، وأن يَعْلَم وجود نوع من الناس الذين يَرَوْنَ قيمةً لآراء بقية العالم والذين يَعْرِفُونَ أن يكونوا سعداء راضين عن أنفسهم بشهادة الآخرين أكثر مما بشهادتهم ، والواقع أن هذا هو السبب الحقيقي لجميع هذه الفروق ، فالهيجي يعيش في نفسه والإنسان المتمدن يعيش خارج نفسه دائماً فلا يَعْرِف إلا أن يعيش في نفوس الآخرين ، وهو لهذا السبب يقتبس شعور حياته الخاصة من حكمهم وحده وليس من موضوعي أن أثبت كيف أنه ينشأ عن مثل هذا التصرف كثير من عدم المبالاة نحو الخير والشر مع وجود كثير من الرسائل الرائعة في الأخلاق ، وكيف أن كل شيء ، إذ يُرَدُّ إلى المظاهر ، يُصْبِح مُفْتَعَلًا مخادعاً ، حتى في الشرف والصدقة والفضيلة ، حتى في المعايير غالباً ، فنجد في ذلك سرَّ الافتخار في آخر الأمر ، والخلاصة كيف أننا ، إذ نسأل الآخرين عن أنفسنا دائماً ، ومن غير أن نَجْرُؤَ على سؤال أنفسنا ، وذلك بين كثير من الفلسفة والإنسانية والأدب والمبادئ العليا ، لا نَجِدُ لدينا غير مظهر خادع طائش لشرف بلا فضيلة وعقل بلا حكمة ولذة بلا سعادة ، ويكفي أنني أثبت أن هذا ليس حال الإنسان الأصلية مطلقاً ، وأن روح المجتمع

والتفاوت الذى ينشأ عن المجتمع هى التى تُغَيِّرُ جميع الميول الطبيعية وتُفْسِدُها على هذا الوجه .

وقد حاولتُ أن أعرض أصلَ التفاوت وتقدُّمه ، وقيامَ المجتمعات السياسية وسوء استعمالها ، وذلك بالمقدار الذى يُمكن هذه الأمور أن تُسَدَّنَبَطَ من طبيعة الإنسان على نور العقل ^{light of reason} فقط مستقلةً عن العقائد المقدسة التى تَمْنَحُ السلطةَ ذاتَ السيادةِ تأييدَ الحقوق الإلهية ، ويُعلم من هذا البيان أن التفاوت ، إذ كان غيرَ موجودٍ فى حال الطبيعة تقريباً ، ينال قُوَّته وتُموِّه من تقدم مَلَكَاتِنَا وترقَّى الروح البشرية ، ثم يصبح ثابتاً شرعياً بقيام مُلك القوانين ، ويُعلم من هذا البيان أيضاً أن التفاوت الأدبى الذى أجازته الحقوقُ الوضعية فقط مخالفٌ للحقوق الطبيعية فى كلِّ مرة لا يتناسب هو والتفاوتُ البدنى ، ويُعيِّن هذا التمييزُ بما فيه الكفاية ما يجب أن يُفَكَّرَ فيه من هذه الناحية حَولَ نوع التفاوت الذى يسود جميع الشعوب المتقدمة مادام يبين قانونَ الطبيعة ، مهما كان الوجه الذى يُعرَّف به ، أن يقود ولدٌ شاباً ، وأن يسوق غيٌّ رجلاً حكيماً ، وأن تَطْفَحَ شِرْذِمَةٌ من الأتباع بالزوائد على حين يحتاج الجُمهور الجائع إلى الضرورى .

Handwritten text in a cursive script, likely Persian or Urdu, covering the majority of the page. The text is arranged in approximately 15 horizontal lines, though many are faint and difficult to decipher. The script appears to be a historical form of a South Asian language.

تعلیقات

تالقیقہ

نُبيه حَوْلِ التَّعليقاتِ

أضفتُ بعضَ تعليقاتٍ إلى هذا الكتابِ وَفَقَ عادتي المتوانية في العمل متواتراً ، وتبتعد هذه التعليقات عن الموضوع أحياناً بما فيه الكفاية فلا يصلح أن تُقرأ ضمنَ المتن ، ولذا فقد دَحَرْتُها إلى آخر الرسالة التي حاولتُ أن أتَّبِعَ فيها أقومَ سبيلِ جُهدِ الطاقة ، ويُمكن من هم على شيء من الإقدام في العود ثانيةً أن يَتَلَهَّوْا مرةً أخرى بالقيام ببعض المباحث ومحاولة تصفح التعليقات ، ولا كبيرَ ضررٍ في عدم مطالعة الآخرين إياها مطلقاً .

الصفحة ١٧ : روى هيرودوتس أن مُنْقِذِي فارسَ السبعة اجتمعوا بعد مقتل سَمِرْدِيسَ (بَرْدِيَّة) للبحث حَوْلَ شكلِ الحكومةِ الذي يُنْعَمُونَ به على الدولة ، فأصرَّ أوتانيس بشدة أن يكونَ جُهورياً ، أى أبدى رأياً زاد في غرابته صدوره عن فَمِ مَرَزُبَانٍ بِمقدار ما كان من خشية الأَكابرِ نوعاً من الحكومةِ يَحْمِلُهُمْ على احترامِ الناسِ فضلاً عن ادعاءِ قدرته على حيَازةِ إمبراطورية ، ولم يَسْتَمَعْ إلى أوتانيسَ قَطُّ كما يُمكنُ أن يُعْتَقَدَ ، وقد تَنَزَّلَ لِنافسيه عن حَقِّهِ في التاجِ لرغبته عن الطاعة والقيادة ، وكان ذلك عندما رأى عزمًا على الشُّروعِ في انتخابِ ملك ، فسأل أن يُعَوِّضَ من ذلك بأن يكونَ حُرّاً مُستقلاً هو وذريته ، وهذا ما أُجِيبَ إليه ، ولو لم يَعْلَمْنَا هيرودوتسُ ما وُضِعَ من قيدٍ على هذا الامتياز لَوَجَبَ افتراضُهُ بِحُكْمِ الضرورة ، وإلاَّ لكانَ أوتانيسُ ، غيرُ المعترفِ بِأَيِّ نوعٍ من القانونِ وغيرُ المُلْزَمِ بِتقديمِ حسابٍ إلى أحد ، صاحبَ الحَوْلِ في الدولة ولِكانَ أقوى من الملكِ أيضاً ، ولكنْ لم يكنِ الظاهرُ ليدلَّ قَطُّ على كونِ الرجلِ ، القادرِ على الاكتفاء بِمثلِ هذا الامتياز في مِثْلِ هذه الحال ، قادراً على إِساءةِ استعماله ، والواقعُ أَنَّهُ لا يُرى أن هذا الحقَّ أدى إلى أَقلِّ اضطرابٍ في المملكة ، لا من قِبَلِ أوتانيس ، ولا من قِبَلِ أَحَدٍ من ذريته .

الصفحة ٢٩ : أَسْتَد مِنْذ خُطَوَى الْأَوَّلَى مَطْمَئِنًّا إِلَى إِحْدَى تِلْكَ
الْحُجَجِ الْمَعْتَبِرَةِ لَدَى الْفَلَاسِفَةِ ، لَصُدُورِهَا عَنْ عَقْلِ مَتِينٍ عَالٍ يَعْرِفُونَ وَحْدَهُمْ
أَنْ يَجِدُوهُ وَيُحْسُوهُ .

« وَمَهْمَا تَكُنْ مَصْلَحَتُنَا فِي مَعْرِفَةِ أَنْفُسِنَا بِأَنْفُسِنَا فَإِنِّى لَا أَعْلَمُ هَلْ
نَعْرِفُ أَحْسَنَ مِنْ ذَلِكَ مَا هُوَ خَارِجٌ عَنَّا ، وَبِمَا أَنَّ الطَّبِيعَةَ جَهَّزَتْنَا
بِأَعْضَاءٍ مُعَدَّةٍ لِحِفْظِنَا فَقَطْ فَإِنَّا لَا نَسْتَعْمِلُهَا إِلَّا لَتَلْقَى الْمُؤَثِّرَاتِ الْخَارِجِيَّةَ ،
فَلَا نَبْحَثُ عَنْ غَيْرِ انْتِشَارِنَا فِي الْخَارِجِ وَعَنْ وَجُودِنَا خَارِجَ أَنْفُسِنَا ، وَبِمَا
أَنَّا كَثِيرُو الْأَهْمَاكِ فِي تَكْثِيرِ وَظَائِفِ حَوَاسِنَا وَزِيَادَةِ سَعَةِ كَيَانِنَا الْخَارِجِيَّةِ
فَإِنْ مِنَ النَّادِرِ أَنْ نَسْتَعْمَلَ هَذَا الْحَسَّ الْبَاطِنِيَّ الَّذِى يَرُدُّنَا إِلَى أَبْعَادِنَا
الْحَقِيقِيَّةِ وَالَّذِى يَفْصِلُ عَنَّا كُلَّ مَا لَيْسَ مِنْهَا ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ نَنْتَفِعَ
بِهَذَا الْحَسِّ إِذَا مَا أَرَدْنَا مَعْرِفَةَ أَنْفُسِنَا ، وَهَذَا هُوَ الْحَسُّ الْوَحِيدُ الَّذِى نَسْتَطِيعُ
أَنْ نَحْكُمَ بِهِ فِي أَنْفُسِنَا ، وَلَكِنْ كَيْفَ نُعْطِى هَذَا الْحَسَّ فَاعِلِيَّتَهُ وَجَمِيعَ
مَدَاهِ ؟ وَكَيْفَ نَنْقِذَ رُوحَنَا الَّتِى يَسْتَقَرُّ بِهَا مِنْ جَمِيعِ أَوْهَامِ نَفْسِنَا ؟ لَقَدْ
فَقَدْنَا عَادَةً اسْتِعْمَالِهِ ، وَقَدْ ظَلَّ بِلَا تَمَرِّينَ بَيْنَ هَرَجٍ إِحْسَاسَاتِنَا الْبَدَنِيَّةِ ،
وَقَدْ جَفَّ بِنَارِ أَهْوَانِنَا ، وَالْقَلْبُ وَالرُّوحُ وَالْحَوَاسُّ أُمُورٌ قَدْ عَمَلَتْ
ضِدَّهَا » .

الصفحة ٤٣ : إن ما أمكن أن تؤدي إليه عادة السير على قدمين من تحولات في تكوّن الإنسان ، وإن ما لا يزال يلاحظ من صلات بين ذراعيه ورجلي ذوات القوائم الأربع ، وما انتهى إليه من استقراء عن طراز مشيها ، أمكن أن يثير ريباً حول ما يجب أن يكون أقرب إلى الطبيعة لدينا ، ويبدأ جميع الأولاد بالسير على أرجل أربع ، وهم يحتاجون إلى مثالنا ودروسنا لتعلم القيام ، حتى إنه يوجد من الأمم الوحشية من هي كالهوننتو الذين يهملون الأولاد كثيراً فيدعونهم يسرون على أيديهم وقتاً كبيراً فيجدون مشقة عظيمة حملاً لهم على الوقوف ، وقل مثل هذا عن أولاد كرايب الأنثي ، وتوجد أمثلة شتى عن آدميين من ذوى القوائم الأربع ، ومن ذلك أذكر ذلك الولد الذي وُجد في سنة ١٣٤٤ بالقرب من هس حيث كان يغذى من قبل الذئاب ، والذي قال في بلاط الأمير هنري فيما بعد إنه كان يفضل أن يعود إليها على العيش بين الناس لو ترك وشأنه ، وقد بلغ من اتخاذ عادة هذه الحيوانات في السير ما وجب أن تربط فيه قطع من الخشب ليقف على رجليه معتدلاً ، ومثل ذلك حال الولد الذي وُجد سنة ١٦٩٤ في غابات لتوانية حيث كان يعيش بين الدببة ، فروى مسيو دو كوندريك أنه كان لا يبدؤ عليه أى أثر من العقل ، وأنه كان يسير على رجليه

ويديه ، وأنه كان خالياً من كل لغة ، فيخرج من الصوت ما لا يشابه أصوات أحد من الآدميين ، وكان وحشياً هائوفاً الصغير ، الذي جُلِبَ إلى بلاط إنكلترة منذ سنين كثيرة ، يلاقى جميع شذائد العالم ليُطبق المشى على رجلين ، وفي سنة ١٧١٩ وُجِدَ في جبال البرانس وحشيان آخران كانا يُحَوَّبان الجبال على مثال ذوات القوائم الأربع ، وأما ما يُمكن أن يُعْتَرَضَ به من أن هذا يَعْنِي تَجَرُّداً من الأيدي التي نَصِلُ بها إلى كثير من المنافع ، وذلك عدا ما يدل عليه مثال القردة من إمكان استخدام اليد على وجهين ، فُيْثِبَتْ ، فقط ، إمكان مَنَحِ الإنسان أعضائه غَرَضاً أَصْلَحَ من غَرَضِ الطبيعة ، لا كون الطبيعة قد أعدت الإنسان للسير على غير ما تُعَلِّمُهُ .

ولكنه يُوجَدُ ، كما يلوح ، أسباب كثيرةٌ وَجِهةٌ يُثْبِتُ بها كون الإنسان ذا رجلين ، وذلك أنه إذا ما أُثْبِتَ ، أولاً ، إمكان كونه في البُداءة على غير ما يَبْدُو لنا ، وأن يصبح في آخر الأمر على ما هو عليه ، فإن هذا لا يكفي لاستنباط وقوع هذا على هذا الوجه ، وذلك لأنه يَجِبُ ، بعد إثبات إمكان هذه التحولات ، أن يُثْبِتَ ، قبل التسليم بها ، احتمال وقوعها على الأقل ، ثم إذا أمكن ذراعي الإنسان أن تَصْلُحا رِجلين له عند الحاجة ، كانت هذه هي الملاحظة الملائمة الوحيدة لهذا النظام تجاه عدد كبير من الملاحظات الخالفة لها ، وأهمها هي : أن الوجه الذي يرتبط به رأس الإنسان في جسمه يَجْعَلُ عينيه ناظرتين إلى الأرض ، أى يَجْعَلُهُ في وضعٍ قليلٍ للملاءمة لبقاء الفرد ، وذلك بدلاً من توجيه نظره أفقياً كما هي عليه جميع الحيوانات الأخرى وكما يكون عليه هو نفسه إذا ما سار على رجلين لا على أربع ، وأن الذَّنَبَ

الذى لا ينفعه إذا مشى على رجلين مفيدٌ لذوات القوائم الأربع ، فلم تُحرِّمه
أية واحدة منها ، وأن تُدَى المرأة الحَسَنَ الوضع كثيراً لذاتِ الرجلين
التي تُنْسِك ولدها بين ذراعيها يكون سببُهُ لذات القوائم الأربع التي لم يضعها
شيء على هذا الوجه ، وأن المؤخَّرَ إذْ كان ذا ارتفاعٍ مُفْرِطٍ إذا ما قيس
بقَدَمي المُقَدَّم فإننا نزحف على الركبتين عند سيرنا على أرجلٍ أربع ، وهذا
كلُّه يجعل الحيوان سيئاً النسبة عسيرَ المشى ، وأنه إذا ما وضع الرجل
واليدَ على الأرض كان في الساق المؤخَّرة مفصلٌ أقلُّ مما في الحيوانات
الأخرى ، أى المفصلُ الذى يربط عظم الشَّظِيَّة بعظم القَصَبَة ، فإذا لم يُوضع
غيرُ طرف الرجل ، كما هو مُكرَّهٌ عليه لا ريب ، ظهر الرُّسْغ من الضخامة
ما لا يقوم معه مقام عظم الشَّظِيَّة ، وذلك من غير قولٍ عن كثرة العظام
التي يتألف منها ، وظهرت مفاصله مع مُشط القدم وعظم القَصَبَة من التَّدانى
ما لا تَمُنَّح معه الساق البشرية في هذا الوضع مثل ما تمنحه ذوات القوائم
الأربع من المرونة ، وبما أن مثال الأولاد قد أُحْدِثَ في سِنِّ لم تكمل فيها
القوى الطبيعية بَعْدُ ، ولم تشتدَّ فيها الأعضاء بَعْدُ ، فإنه لا يؤدى إلى
نتيجة مطلقاً ، وكذلك أودُّ لو أقول إن الكلاب لم تُعدَّ للمشى ، وذلك
لأنها لا تَصْنَعُ غيرَ الزحف بعد ولادتها بيضعة أسابيع ، وكذلك الوقائعُ
الخاصة غير ذات قوة كبيرة تجاه السَّير العامِّ بين جميع الناس ، حتى إن
الأم التي لا يتصل بعضها ببعض لم تستطع تقليد بعضها بعضاً ، وإذا ما ترك
ولدٌ في غابةٍ قبل أن يقدِّر على السير ، فَعُدَّى من قِبَل حيوانٍ ما ،
اتَّبَعَ مثالَ مُرضعه بممارسته المشى مثلها ، فالعادةُ تستطيع أن تَمُنَّحه من

التيسير ما لا يناله من الطبيعة ، وكما أن الشَّلَّ يَنْتَهُونَ بفعل التمرين إلى صنعهم بأرجلهم ما نصنعه بأيدينا فإنه ينتهي في آخر الأمر إلى استعمال يديه في عمل الرجلين .

الصفحة ٤٤ : إذا وُجِدَ بعضُ الأُردِياءِ من علماء الطبيعة من يُقيمُ مصاعبَ حَوَلِ افتراض هذا الخُصْبِ الطَبِيعِيِّ في الأرض فإنني أُجِيبُه عن ذلك بالعبارة الآتية :

« بما أن النباتاتِ تَسْتَخْلَصُ من الهواء والماء مادةً أكثرَ مما تستخلص من الأرض فإنها تُعيد إلى الأرض أكثرَ مما تستخلص منها إذا ما خَمِجَتْ ، ثم إن الغابة تُعَيِّنُ مياه المطر بوقْفِها الأُبْحَرَةَ ، وهكذا فإن طبقة الأرض التي تُفِيدُ النبات تَزِيدُ كثيراً في غايةِ تَحْفَظُ طويلاً من غير أن تُمَسَّ ، ولكن بما أن الحيواناتِ تُعيدُ إلى الأرض أقلَّ مما تستخلص منها ، وبما أن الناس يستهلكون كثيراً من الحطب والنبات للوقود وغيره من الاستعمالات الأخرى ، فإن الذي يَحْدُثُ كونُ طبقة الأرض النباتية في بلاد مسكونة تَنْقُصُ دائماً وتتحول في نهاية الأمر إلى أرضٍ كالبطرا العربية (بلاد الحِجَر) ، وككثير من ولايات الشرق الذي كان ، بالحقيقة ، أكثرَ الأقاليم عُمراناً في غابر الأزمان ، فلا يوجد هناك غيرُ المِلْحِ والرمال ، وذلك لأن المِلْحَ المستقرَّ في النباتات والحيوانات يبقى على حين يتحول جميع الأجزاء الأخرى إلى بخار » ، (التاريخ الطبيعي ، أدلة حَوَلِ نظرية الأرض ، المادة ٧) .

وإلى ذلك يُمكن أن يضاف الدليلُ الواقعيُّ بمقدار الشجر والنبات من كلِّ نوع فكانت طائفةً به تقريباً جميعُ الجزائر المهجورة التي اكتُشِفَتْ في القرون الأخيرة ، وبما يُخبرنا التاريخُ عنه من الغابات الواسعة التي وجب خَبَطُها في جميع الأرض كلما عُمرَتْ أو مُدَّت ، وإني أُبدي للملاحظاتِ الثلاثِ الآتية حَوْلَ ذلك ، فالأولى هي أنه إذا وُجِدَ نوعٌ من النباتات التي تستطيع أن تُعوِّضَ من التَّلَفِ بالمادة النباتية التي تنشأ عن الحيوانات وَفَقَ استدلال مسيو دو بوفُون كان ذلك ، على الخصوص ، آجماً تلتفُّ رؤوسُها وأوراقُها فتختصُّ بمياهٍ وأجخرةٍ أكثر مما تختصُّ به النباتات الأخرى ، والثانية هي أن تَلَفَ الأرض ، أي ضياعَ المادة الخاصة بالنبات ، وَجَبَ أن يُعَجَّلَ بنسبة ما تكون الأرض أكثرَ زراعةً ، ونسبة ما يستهلك أهلُها الذين هم أكثرُ مهارةً ، بفيضٍ ، محصولاتها التي هي من كلِّ نوع ، والملاحظة الثالثة ، وهي أهمُّها ، هي أن ثمراتِ الشجر تُجهِّزُ الحيوانَ بغذاء أكثرَ فيضاً مما تقدِّرُ عليه النباتاتُ الأخرى ، وهذه تجربةٌ قُتِّ بها بنفسى بمقابلي بين محصولاتِ أرضين متساويتين اتساعاً وخاصيةً فتكون إحداها مستورةً بشجر الكستناء ، وتكون الأخرى مزروعةً بُراً .

الصفحة ٤٤ : يُستخلص الفرقان الأكثرُ عموماً ، بين الأنواع النَّهَّامة من ذوات الأرجل الأربع ، من شكل الأسنان ومن تكوين الأمعاء ، فالحيواناتُ التي لا تعيش إلا من النباتات ذاتُ أسنانٍ مستوية ، كالفرس والثور والضأن والأرنب ، والحيواناتُ النَّهَّامة ذاتُ أسنانٍ حادة كالهرِّ والكلب والذئب والثعلب ، وأما الأمعاء في آكلة النبات فبعضها كالأمعاء الغليظة التي لا توجد في الحيوانات النَّهَّامة ، ويلوح ، إذن ، أن الإنسان ، صاحبَ لأسنانٍ وأمعاء كالتي في الحيوانات الآكلة النبات ، يجب أن يُعدَّ من هذا الصنف ، وليست المشاهدات التشريحية وحدها هي التي تؤيد هذا الرأي ، بل تجد آثارَ العصور القديمة ملائمةً له أيضاً ، قال سان جيروم : « رَوَى دِيسْيَارْكُ في كتبه عن قدماء اليونان أنه لم يوجد في عهد ساتورن ، حين كانت الأرضُ خصيبةً بنفسها ، إنسانٌ يأكل اللحم ، وإنما كان الجميع يعيش بالفواكه والبقول التي تنموُ نمواً طبيعياً » ^(١) ، ويمكن تأكيدُ هذا الرأي أيضاً بِرِحلاتٍ كثيرٍ من الشَّيَاح المعاصرين ، ومن ذلك أن فرَنسُوا كورِّيَال ذَكَرَ ، فيما ذَكَرَ ، كونَ مُعظم سكان لوكا الذين نقلهم الإسبان إلى جزائر كوبا وسان دُومينغ وغيرها مات لأكله

Lib. II, adv. Jovinian (١)

لحمًا ، ومن ثمَّ يُرى أنِّي أَهْمِلُ كثيراً من المنافع التي يمكنني
استغلالها ، وذلك لأنَّ الفريسة إذْ كانت مداراً وحيداً تقريباً لِمَا بين
الجوارح من نزاع ، وإذْ كانت آكلَةُ النبات تعيش فيما بينها بسلام دائم ، لو كان
الجنس البشريُّ من هذا النوع الأخير ، فإنَّ من الواضح أنَّ يكون للجنس
البشريِّ كثيرٌ تيسيرٌ للبقاء في حال الطبيعة وقليلٌ احتياجٌ وفرصةٌ
للخروج منها .

الصفحة ٤٥ : يَظْهَرُ أَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْ مُتَنَاوَلِ الْإِنْسَانِ الْوَحْشِيِّ جَمِيعُ
 المعارف التي تستلزم تأملاً ، وجميعُ المعارف التي لا تُكْتَسَبُ إِلَّا بِتَسْلُسِلِ
 الأفكار والتي لا تَكْمُلُ إِلَّا بِمُتَعَابَةِ ، وذلك عن عدم اتصاله بأمثاله ، أى عن
 عدم وجود أداة تَصْلُحُ لهذا الاتصال ، وعن عدم وجود احتياجاتٍ تَجْعَلُهُ
 ضرورياً ، وتقتصر معرفته وصنعتة على الوثوب والركض والقتال ورمى الحجر
 وتسلُّق الشجر ، ولكنه إذا كان لا يَعْرِفُ غَيْرَ هَذِهِ الْأُمُورِ فَإِنَّهُ يَعْرِفُهَا
 أَحْسَنَ مِمَّا نَعْرِفُ بِكَثِيرٍ ، نحن الذين ليس لديهم مثلُ احتياجه إليها ، وبما أنها تَتَبَّعُ
 تمرينَ البدن فقط ، وليست عُرْضَةً لِأَيِّ ثَقَلٍ ، ولا أَىِّ تَقَدُّمٍ ، من فردٍ
 إلى آخَرَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْأَوَّلَ اسْتَطَاعَ أَنْ يَكُونَ مَاهِراً فِيهَا مَهَارَةً آخِرَ أَعْقَابِهِ .
 وَتَطْفَحُ رِحَالُ السِّيَاحِ بِأَمْثَلِ بَأْسِ النَّاسِ وَقُوَّتِهِمْ لَدَى الْأُمَمِ الْبَرْبَرِيَّةِ
 وَالْوَحْشِيَّةِ ، وَلَيْسَ أَقَلٌّ مِنْ هَذَا مَا جَاءَ فِيهَا مِنْ ثَنَاءٍ عَلَى حَذَقِهِمْ وَخَفَتِهِمْ ،
 وَبِمَا أَنَّهُ لَا يُطْلَبُ غَيْرُ عِيُونٍ لِمُلَاحَظَةِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ يَحُولُ دُونَ
 تصديق ما يُؤَكِّدُهُ شُهُودُ عِيَانٍ فَوْقَ ذَلِكَ ، فَأَخْتَارَ اتِّفَاقاً بَعْضَ الْأَمْثَلَةِ
 مِنَ الْكُتُبِ الْأُولَى الَّتِي تَقَعُ تَحْتَ يَدِي .

قال كُولِين : « يُدْرِكُ الْهُوتُنْتُو صَيْدَ الْبَحْرِ خَيْرًا مِمَّا يَدْرِكُهُ أَوْرِيُو الْكَأَبِ ،
 وَيَعْدِلُ حَذَقُهُمُ الشَّبَكَةَ وَالشَّصَّ وَالنَّشَابَ فِي الْخُلُجَانِ وَالْأَنْهَارِ ، وَلَيْسَ

أقلَّ من ذلك براعتهم في إمساك السمك باليد ، ولا مثيل لمهارتهم في السباحة ،
ويوجد في طراز سباحتهم الخاصَّ بهم تماماً ما يُثيرُ الحيرة ، فهم يَسْبَحُونَ
مستقيمي البدن ناشري الأيدي خارجَ الماء ، فيَبْدُونَ كأنهم يَمْشُونَ على
الأرض ، وهم ، عند ما يَبْلُغُ اضطرابُ البحر غايته ويَصْبِحُ الموجُ كالجبال ،
يَرْقُصُونَ على مَتْنِهِ صاعدين هابطين كقطعةٍ من الفلين .

وقال المؤلفُ نفسه : « إن الهولنديَّ ذُوو حَذَقٍ عجيب في الصيد ،
وتَفُوقُ الخيالِ خِفَّتَهُم في العدو » ، وَيَعْجَبُ من كونهم لم يسيئوا استعمال
سرعتهم في الغالب ، وهذا ما يَحْدُثُ أحياناً مع ذلك ، كما يُرى من المثال
الذي يُقَدِّمُهُ عن ذلك ، فقد قال : « نَزَلَ مَلَّاحٌ هولنديٌّ إلى بَرِّ الكاب
وكَلَّفَ هُوَنتِيًّا بأن يتبعه إلى المدينة مع طَوَى تَبْعٍ يَزِنُ نحو عشرين
رَطَلاً ، فلما كان الاثنان على مَسَافَةٍ من الزمرة سأل الهولنديُّ المَلَّاحَ عن
معرفة الركض ، فأجاب الهولنديُّ بقوله : الركضُ ؟ أَجَلُ ، جيداً جداً ، فقال
الإفريقيُّ : سنرى ، وقد فَرَّ مع التَّبْعِ وغاب من فَوْزِهِ تقريباً ، وقد دُهِشَ
المَلَّاحُ من تلك السرعة العجيبة ، فلم يُفَكِّرْ في تَعَقُّبِهِ قَطُّ ، ولم يَرِ تَبْعَهُ
ولا حامله بعد ذلك .

« ولهم من البصر الحديد واليد السَّديدة ما لا يَدْنُو الأوروبيون معه
منها مُطلقاً ، فهم يُصَيِّبون بحجرٍ علامةً باتساع نصفِ فَلَسي على مَسَافَةِ مئة
خُطوة ، وأعجَبُ ما في الأمر هو أنهم يَأْتُونَ بِحركاتٍ وتَشْجَاجٍ مستمرة
بدلاً من أن يَجْعَلُوا الهدفَ نُصْبَ عيونهم كما نصنع ، فيَظْهَرُ أن يَدَا خَفِيَّةً
تَحْمِلُ حَجَرَهُم .

وما قاله الأب دوتريتر عن وحوش الأنثى يَقْرَبُ مما قيل عن هَوْتَنْتُو رأس الرجاء الصالح ، فهو يمتدح سَدَادَهُمْ في توجيه سهامهم إلى الطيور وهي طائفةٌ وصيدهم السَّمَكُ سَبْحاً مع غَوْصٍ ، وليس وحوش أمريكا الشمالية أقلَّ من هؤلاء صيناً بَقُوَّتِهِمْ وحَذَقِهِمْ ، وإليك مثلاً يُمكن أن يُحكَمَ به في أمرِ هنود أمريكا الجنوبية :

حُكِمَ في قَادَسَ في سنة ١٧٤٦ بالليمان على هنديٍّ من بُونُوسِ إِيْرَسِ فَعَرَضَ على الحاكم أن يشتري حريته بتعريضه حياته للموت في عيدٍ عامٍّ ، وقد وَعَدَ بأن يهاجم وحده أشرسَ ثَوْرٍ غيرَ حاملٍ من السلاح سوى حَبْلٍ بيده ، وبأن يُمَسِّكه بحبله من العضو الذي يُشَارُ إليه ، وبأن يُسْرِجَه ويُلْجِمَه ويَرْكَبَه ويَصَارِعَ وهو على هذا الوجه ثورين من أشرس الثيران يُخْرَجَانِ من حَظِيرَةِ المِيدَانِ ، وبأن يَقْتُلَ أحدهما بعد الآخر فَوَرَ أمره بذلك ، ومن غير أن يُعِينَه أحدٌ على ذلك ، وهذا ما أُجِيبَ إليه ، وَبِئْسَ الهنديُّ بوعده وُيُوقَقُ في جميع عَهْدِهِ ، ومن يُرِيدُ الاطَّلَاعَ على المِنْهَاجِ الذي اتخذه وعلى جزئيات المصارعة فليراجع الجزء الأول من « ملاحظات في التاريخ الطبيعي » لمسيو غُوْتِيَه حيث اقتبسنا خَبَرَ هذا الحادث (صفحة

الصفحة ٤٨ : قال مسيو دُوبوفُون : « إن مدة حياة الخيل تكون على نسبة مدة نُموّها ، كما هي الحال في جميع أنواع الحيوانات الأخرى ، فالإنسان الذي يتطلب أربعَ عشرةَ سنةً لنشوئه يمكنه أن يعيش ما يعدل ستةَ أو سبعةَ أمثال هذه المدة ، أى تسعين سنة أو مئة سنة ، والحصان الذي يتمُّ نموُّه في أربع سنين يُمكنه أن يعيش ما يعدل ستةَ أو سبعةَ أمثال هذه المدة ، أى خمساً وعشرين سنة أو ثلاثين سنة ، وتَبْلُغُ الأمثلةُ التي يُمكن أن تخالف هذه القاعدة من النُدرة ما لا ينبغي معه حتى عَدُّها استثناءً يُمكن أن تُستخرج منه نتائجُ ، وبما أن الخيل السميننة تنمو في مدةٍ أقلَّ مما تنمو فيها الخيلُ الدقيقة فإنها تعيش مدةً أقلَّ مما تعيش فيها تلك ، وهي تدخل دَوْرَ الهرم منذ دخولها الخامسة عشرةَ من السنِّ » ،
(تاريخ الخيل الطبيعى) .

الصفحة ٤٨ : أعتقد أنني أبصر في الحيوانات الجوارح وفي آكلة النبات
فرقاً آخرأ أكثر عموماً من الذى لاحظته في التعليق الخامس ، وذلك لأنه
يشمل حتى الطيور ، ويقوم هذا الفرق على عدد الصغار الذى لا يزيد على
الاثنين ، مطلقاً ، في كل نتاج من الأنواع التى لا تعيش إلا من النباتات
والذى يزيد على ذلك عادةً في الحيوانات النهماء ، وبسهل أن يعرف
ما تعينه الطبيعة في ذلك من عدد الثديى الذى يكون اثنين في كل أنثى
من النوع الأول كالفرس والبقرة والعنزة والوعلة والنعجة ، إلخ . . . والذى
يترجح دائماً بين الستة والثمانية في الأنثى الأخرى كالكلبة والهريرة والذئبة
والذئرة ، إلخ . ، وتبيض الدجاجة والإوزة والبطّة ، التى تعدّ كلها من الطيور
النهماء ، وكذلك اللقوة^(١) والبومة وأنثى الباز ، وترخّم بيضاً كثيراً ، أى
تقوم بأمر لا يتفق للحمامة ولا للقمريّة ولا للطيور التى لا تأكل غير الحبّ
فلا تلتقي ولا تحضن غير بيضتين ، ويقوم السبب الذى يمكن ذكره في
هذا الفرق على كون الحيوانات التى لا تعيش بغير السكّال والنبات تقضى
يومها كله تقريباً في طلب القوت فتضطّر إلى قضاء وقت كبير في الاغتذاء ،
ولا تستطيع أن تكفي لإرضاع صغار كثير ، وذلك على حين تقوم الحيوانات

(١) اللقوة : أنثى العقاب .

النَّهَامَةُ بطعامها في سُوءِ عَيْةٍ فيسهل عليها في الغالب أن تعود إلى صغارها وإلى صَيْدِهَا وأن تتدارك ما أُسْرِفَ من لَبَنٍ كثير، وَيُمْكِنُ أَنْ تُبْدَى فِي ذَلِكَ عِدَّةُ ملاحظاتٍ وتأملاتٍ خاصة، ولكن لا مكانَ هُنا لذلك، ويكفي أن أُبَيِّنَ فِي هَذَا الْقِسْمِ نِظَامَ الطَّبِيعَةِ الْأَكْثَرِ عُمُومًا، هَذَا النِّظَامَ الَّذِي يُجَهِّزُ بِسَبَبٍ جَدِيدٍ فِي إِخْرَاجِ الْإِنْسَانِ مِنْ طَبَقَةِ الْحَيَوَانَاتِ الْجَوَارِحِ وَصَفَهُ بَيْنَ الْأَنْوَاعِ الْآكِلَةِ الْنبَاتِ .

الصفحة ٥٤ : (حَسَبَ مؤلفٌ مشهورٌ خيرَ الحياة البشرية وشرَّها وقابل بين المقدارين فوجد المقدارَ الثانيَ يزيد على الأول كثيراً وانتهى ، بعد أن قَلَبَ جميعَ الأمور ، إلى أن الحياة البشرية ليست هِبَةً ذاتَ قيمة مطلقاً ، ولم يَعْتَرِني دَهْشٌ ، قَطُّ ، من النتيجة التي وَصَلَ إليها ، فقد استنبط جميعَ براهينه من نظام الإنسان المذنيِّ ، فلو رَجَعَ إلى الإنسان الطبيعيِّ لرأى أنه كان يُمكنه أن يَجِدَ نتائجَ مختلفةً جداً ، فيُنصِرُ أنه لم يكن لدى الإنسان من الشرور غيرُ ما أعطى نفسه إياه ، وليس من غير مشقة أن انتبهنا إلى جعل أنفسنا بالغى الشقاء ، فإذا ما نُظِرَ من ناحيةٍ إلى أعمالِ الناس الواسعة ، وما وقع من تَبَحُّرٍ في العلوم واختراعٍ في الفنون ، وما استُخدِمَ من قُوَى ، وما مُلِيَ من هَوَى ، وما هُدَّ من جبال ، وما حُطِّمَ من صخور ، وما جُعِلَ من أنهارٍ صالحاً للملاحة ، وما أُحْيِيَ من أَرْضِينَ ، وما حُفِرَ من بُحَيْرَاتٍ ، وما جُفِّفَ من مستنقعات ، وما أُقِيمَ على الأرض من مبانٍ ضخمة ، وما سُتِرَ بالسفن والملاّحين من بحار ، وإذا ما بُحِثَ من ناحيةٍ أخرى ، مع قليل تأمُّلٍ ، في المنافع الحقيقية التي نشأت عن جميع ذلك في سبيل سعادة النوع البشريِّ ، لم يَسَعِ المرءُ إلا أن يُصَدِّمَ بما يَسُود هذه الأمور من تفاوت عجيب فيرثي لعمى الإنسان الذي يَسُوقه بشدةٍ وراء كلِّ شقاء يُمكن أن

يصيبه ، وراء كل شقاء كانت الطبيعة الحسنة قد عُنيت بإقصائه عنه ، وذلك تغذيةً لزهوه السخيف وإعجابه الباطل بنفسه .

والناسُ خُشباء ، وتُغني عن الدليل تجربةٌ كثيفة دائمة ، ومع ذلك فإن الإنسان صالحٌ بطبيعته ، وأعتقد أنني أثبتُ ذلك ، فما الذي أفسده من هذه الناحية ، إذن ، إن لم يكن ما طرأ على نظامه من تحول ، وما أوجبه من تقدم ، وما اكتسبه من معارف ؟ ولْيُعْجَبُ المرءُ بالمجتمع البشريّ ماشاء ، وليس أقلّ من ذلك حقيقةً كونُ هذا المجتمع يُحمِلُ الناسَ على التباغض ، بحكم الضرورة ، بنسبة زيادة مصالحهم ، وعلى تبادل الخدم ظاهراً وضرراً بعضهم بعضاً بكلّ ما يَتَصَوَّرُ حقيقةً ، وما يُمكن أن يقال عن صلةٍ يُملي دأى كلٌّ فردٍ فيها قواعدَ مبانةٍ رأساً للقواعد التي يعطُ الدأى العامُ بها هيئةَ المجتمع وحيث يجدُ كلُّ واحدٍ حسابَه في شقاء الآخرين ؟ ومن المحتمل أنك لا تجد رجلاً مُوسِراً لا يَتَمَنَّى موته سرّاً ورثته الطامعون ، وأولاده في الغالب ، وأنت لا تجد سفينةً لا يكون غرقها في البحر حادثاً ساراً عند بعض التجار ، ولا تجد محلاً تجارياً لا يودُّ المدينُ السيئُ النية أن يراه محترقاً مع جميع ما يشتمل عليه من أوراق ، ولا تجد شعباً لا يسرُّ بمصائب جيرانه ، وهكذا فإننا نجدُ فائدتنا في ضرر أمثالنا ، فخرانُ أحدهم يُوجبُ غبطةَ الآخر دائماً تقريباً ، ولكن أكثر ما يكون خطراً هو أن تكون البلايا العامة مداراً أملٍ تجمع من الأفراد وموضع رجائهم ، فبعضهم يريد أمراضاً ، وآخرون يريدون فناءً ، وآخرون يريدون حرباً ، وآخرون يريدون مجاعةً ، وقد رأيت أناساً قباحاً يَبْكُونُ ألماً من طلائع سنةٍ خصيبة ، ويحتمل أن

كان حريقُ لندنَ ، الكبيرُ المشؤوم والذى قضى على حياة كثير من التمساء وأموالهم ، قد أسفر عن اغتناء أكثر من عشرة آلاف شخص ، وأعلم أن مُؤنَّينَ لامَ الأثنيِّ دِمَاسَ على معاقبته أحدَ العمال لبيعهِ بأثمانٍ مرتفعةٍ جداً توايَتَ فكان يَكسِبُ كثيراً عند موت المواطنين ، غير أن السبب الذى ذكره مُؤنَّينَ ينطوى على وجوب مجازاة جميع العالم فيؤيد ما ذكرته من أسباب كما هو واضح ، ولذا فليُطلَّعْ ، من خلال أدلتنا التافهة فى الرِّفق ، على ما يتَّع فى أعماق القلوب ، ولئنعم النظرُ فيما يجب أن تكون عليه حال الأمور التى يُضطرُّ فيها جميعُ الناس إلى مداراة بعضهم بعضاً وإلى تهادمهم مقابلةً ، والى يُولَدون فيها أعداء عن واجبٍ وشطَّاراً عن مصلحة ، وإذا ما أُجِبْتُ بأن المجتمع بَلَغ من التكوين ما يَكسِب الإنسان معه فى خدمة الآخرين رَدَدْتُ عن هذا بقولى إن من الحَسَن جداً ألاَّ يَكسِبَ أكثر من أن يُضَرَّهم ، ولا يُوجَد من الكسب الحلال ما لا يزيد عليه الكسبُ الحرام ، وما يُلَحَقُ بالجار من ضررٍ أكثرُ ربحاً من الخِدم ، ولا شئ يُطلَبُ غيرُ معرفة الوسائل التى يُطمأنُّ بها إلى عدم العقاب ، ولذا يستعمل الأقوياء جميعَ قواهم ، ويستعمل الضعفاء جميعَ حيلهم .

وإذا ما طعمَ الإنسان الوحشُ كان على وئامٍ مع جميع الطبيعة وصديقاً لجميع أمثاله ، وإذا ما ثار نزاعٌ حَوَّلَ طعامه فى بعض الأحيان لم يَلجأ إلى كَيْلِ الضَّرَبَاتِ قبل أن يقابل مقدماً بين صعوبة النصر وصعوبة عثوره على طعامٍ له فى مكان آخر ، وبما أن الزهو لا يجد له سبيلاً فى الصِّراع فإنه ينتهى ببعض لَكَمَات ، ويأكل الغالبُ ، ويبحث المغلوب عن

غذاء له في مكان آخر ، وتَسُود السَّلم ، ويكون الأمر على غير هذا لدى الإنسان المتمدن ، فتداركُ الحاجي هو أولُ ما يُطَلَب ، ثم يأتي الفائض ، ثم تأتي الأطايب فالثَرَوَات الواسعة ، ثم الرعايا فالعبيد ، ولا يكون لديه وقتُ إِبْطالة ، وأغربُ ما في الأمر كونُ الاحتياجاتِ كلما كانت مُلِحَّةً ودون الطبيعيِّ زادت الأهواء ، وشرُّ من ذلك أن يُستطاع قضاؤها ، وذلك أن ينتهي أمرُ البطل بأن يَضْرِب كلَّ عنقٍ حتى يصبح سيدَ العالم الوحيد بعد أن يكون قد ابتلع أموالاً وافرة وأحزن أناساً كثيرين ، فهذه هي خلاصةُ لوصف الحياة البشرية وصفاً أدبياً ، أو خلاصةُ لوصف المزاعم الخفية في قلب كلِّ إنسان متمدن .
وقابلوا ، من غير مُبْتَسِرَات ^{partiality} ، بين حال الإنسان المَدنيِّ وحال الإنسان الوحشيِّ ، وإبْحَثُوا ، إذا ما استطعتم ، عن مقدار ما فَتَحَ الأولُ من أبوابِ ^{inlets} جديدةٍ نافذةٍ إلى الألم والموت فضلاً عن خبثه واحتياجاته وبؤسه ، وإذا ما نظرتم إلى عذاب النفس الذي يُضْنِينَا ، وإلى الأهواء العنيفة التي تَهْكُنَا وتُحْزِنُنَا ، وإلى الأعمال القاسية التي يُرْهَقُ بها الفقراء ، وإلى الترفِّ البالغ الخطر الذي ينهمك فيه الأغنياء فيَهْلِكُ الفريقُ الأول عن احتياجٍ ويَهْلِكُ الفريقُ الثاني عن إفراط ، وإذا فكرتم في اختلاط الأغذية المُضَادِّ للطبيعة ، وفي تعليها بالتوابل تعليلاً ضاراً ، وفي الغلات الفاسدة والعقاقير المغشوشة ، وفي خِدَاعٍ من يبيعونها وغَوَايَةٍ من يُدَبِّرُون أمرها ، وفي سُوءِ الأوعية التي تُعَدُّ فيها ، وإذا ما أنعمتم النظر في الأمراض السارية الناشئة عن الهواء الفاسد بين زُمَرِ الناس المجتمعين ، وفي الأمراض التي تَصْدُرُ عن دقة طِرَاز حياتنا ، وفي انتقالنا مناوَبَةً بين منازلنا والهواء الطَّلقي ، وفي استعمال الملابس التي

تُتَّخَذُ أَوْ تُتْرَكُ مَعَ قَلِيلٍ تَحْفَظُ ، وَفِي كُلِّ مَا تَحَوَّلَتْ بِهِ شَهْوَتُنَا الْمُفْرِطَةُ إِلَى عَادَاتٍ ضَرُورِيَّةٍ مِنْ عُنَايَةٍ فَيُؤَدَّى إِهْمَالُهَا أَوْ الزَّهْدُ فِيهَا فِيمَا بَعْدُ إِلَى الْقَضَاءِ عَلَى حَيَاتِنَا أَوْ صِحَّتِنَا ، وَإِذَا مَا نَظَرْتُمْ إِلَى الْخَرَائِقِ وَالزَّلَازِلِ الَّتِي تَقْضِي عَلَى مُدُنٍ بِأَسْرَافِهَا وَتُهْلِكُ سَكَانَهَا بِالْأُلُوفِ ، وَانْخِلَاصَةُ إِذَا مَا جَمَعْتُمْ الْأَخْطَارَ الَّتِي تَصُبُّهَا جَمِيعُ هَذِهِ الْعِلَلِ عَلَى رُؤُوسِنَا بِاسْتِمْرَارٍ ، شَعَرْتُمْ بِالْثَمَنِ الْغَالِي الَّذِي تَحْمِلُنَا الطَّبِيعَةُ عَلَى دَفْعِهِ فِي مَقَابِلِ اسْتِخْفَافِنَا بِدُرُوسِهَا .

وَلَا أُكْرِّرُ هُنَا مُطْلَقًا مَا قُلْتُهُ عَنِ الْحَرْبِ فِي مَكَانٍ آخَرَ ، وَلَكِنِّي أَوَدُّ أَنْ يَكُونَ الْمُتَعَلِّمُونَ مِنَ الْإِرَادَةِ أَوْ الْجُرْأَةِ مَا يُطْلَعُونَ الْجَبُورَ مَعَهُ عَلَى تَفْصِيلِ الْقَبَائِحِ الَّتِي تُفْتَرَفُ فِي الْجِيُوشِ مِنْ قَبْلِ مَلِيزِمِ الْمِيرَةِ وَالْمَشَافِي ، فَهَنَّاكَ يُرَى أَنْ أَسْأَلِيهِمْ فِي الْغَشِّ ، غَيْرَ الْخَافِيَةِ كَثِيرًا ، تَتَوَارَى بِهَا أَنْضَرُ الْجِيُوشِ فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ جَدًّا وَيَهْلِكُ بِهَا مِنَ الْجُنُودِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَحْصُدُهُمْ سِلَاحُ الْأَعْدَاءِ ، ثُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ أَقْلٌ إِثَارَةً لِلدَّهْشِ أَمْرٌ مِنْ يَتَتَلَعَّبُ الْبَحْرَ فِي كُلِّ عَامٍ عَنِ الْجَمَاعَةِ أَوْ دَاءِ الْحَفَرِ أَوْ الْقَرَّاصِينَ أَوْ النَّارِ أَوْ الْغَرَقِ ، وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُحْسَبَ بِجَانِبِ التَّمَلُّكِ الْقَائِمُ ، وَمِنْ ثَمِّ بِجَانِبِ الْجَمْعِ ، أَعْمَالُ الْقَتْلِ وَالسِّمِّ وَقَطْعِ الطَّرِيقِ ، حَتَّى الْعِقَابُ عَلَى هَذِهِ الْجَرَائِمِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهُ دَرَّةُ الْأَعْظَمِ الشَّرُّورِ ، وَلَكِنْ مَعَ قَضَائِهِ فِي جَرَائِمِ الْقَتْلِ عَلَى حَيَاةِ اثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرٍ فَيَدْعُ وَقُوعَ هَلَاكِ فِي النُّوعِ الْبَشَرِيِّ ضَعْفَيْنِ ، وَمَا أَكْثَرَ الْوَسَائِلَ الْفَاضِحَةَ الَّتِي تُتَّخَذُ لَعَوْقِ وَلَادَةِ الْآدَمِيِّينَ وَمُخَادَعَةِ الطَّبِيعَةِ ، وَذَلِكَ إِمَّا عَنِ تِلْكَ الْأَذْوَاقِ الْبَهِيمِيَّةِ أَوْ الْفَاسِدَةِ الَّتِي تُعَدُّ سَبَّةً لِأَرْوَاعِ أَعْمَالِهَا ، وَإِمَّا عَنِ تِلْكَ الْأَذْوَاقِ الَّتِي لَمْ يَعْرِفْهَا الْهَمَجُ وَلَا الْحَيَوَانَاتُ مُطْلَقًا ، وَالَّتِي لَمْ

*Secret apportion**Corrupt imagination*

تنشأ في البلاد المتعدنة إلا عن خيال فاسد ، وإما عن تلك الإجهاضات الخفية التي هي ثمرة الفسق والشرف المغيب ، وإما عن إهمال جمع من الأولاد أو قتلهم ، هؤلاء الذين هم ضحايا بؤس آبائهم أو خجل أمهاتهم الشديد ، وإما عن بتر هؤلاء التعمساء الذين ضحى بقسم من كيانهم وبجميع عقبهم من أجل أغاني باطلة ، أو من أجل حسد بعض الناس ، بتراً يطعن الطبيعة طعنًا مزدوجاً في هذه الحال الأخيرة ، وذلك بما يعامل به أولئك الذين يألون منه ، وبما أعدوا له من عادة !

(ولكن أليس أكثر شيوعاً وخطراً ألف مرة أن تلحق الحقوق الأبوية بالإنسانية أذى)؟ وما أكثر القرائح المطمورة والميول المتهورة عن قسرة الآباء الفاسل ! وما أكثر الرجال الذين يمتازون في حال مناسبة ويموتون تعمساء مفضوحين في حال أخرى لم يرغبوا فيها قط ! وما أكثر ما فُصِمَ أو كُدِّرَ من زواجات سعيدة ، ولكن مع تفاوت ! وما أكثر الزوجات الطاهرات اللاتي فضحن بذلك النظام من الأحوال الناقص لنظام الطبيعة دائماً ! وما أكثر القرانات الأخرى الغريبة التي نشأت عن المصلحة وأنكرت بالحب والعقل ! وما أكثر الأزواج الصالحين الفضلاء الذين عوقبوا مبادلة لسوء تنوعهم ! وما أكثر ضحايا شح الآباء من الشبان والتعمساء الذين غاصوا في الرذيلة أو الذين قضوا أيامهم السود في الدموع والذين أنثوا في صلات لا انفصام لها مع أن الفؤاد يرفضها والذهب وحده هو الذي كونها ! ما أسعد أولئك اللاتي نزعتهن الشجاعة والفضيلة أحياناً من الحياة قبل أن يحملهن عنف شديد على قضائها في الجريمة أو القنوط !

فأَغْفِرَا لِي يَا وَالِدَيَّ الَّذِينَ أَرَّثِي لهما إِلَى الأَبَدِ ، لِمَا أَزِيدُ مِنْ آلامِكُمَا بِشُكْوَايَ ، وَلَكِنْ هَلْ تَصْلُحُ هَذِهِ الآلَامُ أَنْ تَكُونَ عِبْرَةً أَبَدِيَّةً هَائِلَةً لِمَنْ يُجْرُو ، حَتَّى بِاسْمِ الطَّبِيعَةِ ، أَنْ يَنْقُضَ أَقْدَسَ حَقُوقِهَا ؟

وَإِذَا كُنْتُ لَمْ أَتَكَلَّمْ عَنْ غَيْرِ هَذِهِ الْمَشَاكِلِ السَّيِّئَةِ التَّكْوِينِ الَّتِي هِيَ مِنْ عَمَلِ ضَابِطَتِنَا فَهَلْ يُفَكَّرُ فِي كَوْنِ الَّتِي يَهْيِمُنْ عَلَيْهَا الْحُبُّ وَالْعَاطِفَةُ سَالِمَةً مِنَ الْمَحَازِيرِ ؟ وَمَا يَقَعُ إِذَا مَا حَاوَلْتُ إِبْدَاءَ النُّوعِ الْبَشَرِيِّ مَهَاجِمًا فِي مَنْبَعِهِ وَفِي أَقْدَسِ جَمِيعِ الرُّوَاطِ حَيْثُ لَا يُجْرَأُ عَلَى سَمَاعِ الطَّبِيعَةِ إِلَّا بَعْدَ مُرَاجَعَةِ النَّصِيبِ وَحَيْثُ يَخْلُطُ الْارْتِبَاكُ الْمَدْنِيُّ بَيْنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَعَايِبِ فَيَصْبِحُ الزُّهْدُ احْتِرَازًا جَنَائِيًّا وَيُصْبِحُ رَفْضُ هَبَةِ الْإِنْسَانِ حَيَاتِهِ لَشَبِيهِهِ عَمَلًا إِنْسَانِيًّا ؟ وَلَكِنْ لَنَسْكُتَفِ بِالْإِشَارَةِ إِلَى الْمَرَضِ الَّذِي يَجِبُ عَلَى الْآخَرِينَ أَنْ يَعَالِجُوهُ ، وَذَلِكَ مِنْ هَتَكٍ لِلْحِجَابِ الَّذِي يُعْطَى جَمِيعَ هَذِهِ الْقَبَائِحِ .

وَلِيُضَفْ إِلَى جَمِيعِ هَذَا ذَلِكَ الْمَقْدَارُ مِنَ الصَّنَاعِ غَيْرِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي تُقَصِّرُ الْأَيَّامَ أَوْ تُنَوِّضُ الْأَبْدَانَ ، وَذَلِكَ كَأَعْمَالِ الْمُنَاجِمِ وَإِعْدَادِ الْمَعَادِنِ وَالْفِلْزِ^(١) ، وَلَا سِيَّما الرِّصَاصَ وَالنَّحَاسَ وَالزُّبُقَ وَالْكُوبَلَتُ وَالزَّرْنِيخَ وَالرَّهَجَ^(٢) ، وَتِلْكَ الصَّنَاعُ الْآخَرَى الْخَطِيرةُ الَّتِي تُؤَدِّي كُلَّ يَوْمٍ بِحَيَاةِ عَدِيدٍ مِنَ الْمُسَقِّفِينَ وَالنَّجَّارِينَ وَالْبَنَّائِينَ وَالْمُعَدِّينَ ، وَلَتَجْمَعَ جَمِيعُ هَذِهِ الْأُمُورِ كَمَا أَقُولُ لِيُرَى فِي قِيَامِ الْمُجْتَمَعَاتِ وَكُلِّهَا أَسْبَابُ مَا يَلَاظُهُ أَكْثَرُ مِنْ فِيلَسُوفٍ مِنْ نَقْصَانِ النُّوعِ .

وَلَا يَلْبَثُ التَّرَفُ ، الَّذِي يَتَعَذَّرُ تَلَاْفِيهِ لَدَى الْأَدْمِيينِ الطَّامِعِينَ فِي رَغَدِ

(١) اسم يطلق على جواهر الأرض كلها - (٢) سم الفأر .

عيشهم واحترام الآخرين لهم ، أن يُتِمَّ الشرُّ الذى بدأته المجتمعات ، والذى يُفقر البقية كلها ويُفقر الدولة عاجلاً أو آجلاً بحجة ما لا يصنعه من إطعام الفقراء .
 والترفُ علاجٌ أسوأ كثيراً من المرض الذى يزعمُ شفاؤه ، أو إنه فى ذاته أسوأ من جميع الأمراض فى كلِّ دولةٍ صغيرة أو كبيرة ، وذلك لأنه يؤدى إلى ظلم المواطن والزارع وهلاكهما تغذيةً لجوعٍ من الخدم والبائسين الذين يُوجدُهم ، وهو يشابه رياحَ الجنوب المحرقة التى تستر الكلاً والخضرة بالحشرات النّهامة والتى تنزع الغذاء من الحيوانات النافعة وتحمل القحط والموت فى جميع الأماكن التى تهبُّ فيها .

وينشأ عن المجتمع ، وما يؤدى إليه من ترفٍ ، الفنونُ العقلية والميكانيكية والتجارة والآداب وما إلى ذلك من الزوائد التى تُوجب ازدهار الصناعة وتغنى الدول وتُهلكها ، وسببُ هذا الخراب بسيطٌ إلى الغاية ، وذلك أن من السهل أن يُرى وجوبُ كونِ الزراعة بطبيعتها أقلَّ كسباً من جميع الصنائع ، فبما أن حاصلها ألزمُ ما يكون استعمالاً لدى جميع الناس فإن ثمنها يجب أن يكون مناسباً لمقدرة أشدَّ الناس فقراً ، ومن ذات المبدأ يمكن استخراجُ القاعدة القائلة إن الصنائع تكون رابحةً بنسبة نفعها المعكوس وإن ألزم الأشياء يُصبح أكثرها إهمالاً فى نهاية الأمر ، ومن ثمَّ يرى ما يجب أن يُفكرَ فيه من الفوائد الحقيقية فى الصناعة ومن النتائج الصحيحة لتقدمها .

وتلك هى الأسبابُ المحسوسة للبؤس حيث اليُسْرُ بدهور أكثر الأمم إثارةً للعجب فى نهاية الأمر ، وكلما اتسع مدى الصناعة والفنون وازدهر هجر الزارعُ المُزدرى ، المُثقلُ بالضرائب الضرورية لبقاء الترف والمحكومُ

عليه بقضاء حياته بين العمل والجوع ، حقوله لِيَبْحَثَ في المدن عن الخبز الذي يجب أن يَحْمِلَهُ إليها ، وكلما وَقَفَتْ رؤوسُ الأموال أَبْصَارَ الشعبِ الحُمْقِ عَجَبًا وجب أن يُؤَنَّ من رؤية الأريافِ مهجورة والأَرْضِينِ بائرةً والطُرُقِ الكبيرة زاهرةً بالمواطنين التَّعَسَاءِ الذين أصبحوا سائِلين أو سارقين مُعَذِّين تَلْتَمِ بِؤْسِهِمْ ، ذات يوم ، فوق الدَّمَنِ أو على المشانق ، وهكذا فإن الدولة التي تعتنى من ناحيةٍ تَضْعَفُ وتُفْقِرُ من ناحيةٍ أخرى ، وإن أقوى المَلَكِيَّاتِ تنتهى ، بعد كثيرٍ من الأعمال التي تكون بها مُوسِرَةً مُقْفِرَةً ، بأن تصبح فريسةَ الأمم الفقيرة التي تُغْرِى بالاستيلاء عليها والتي تفتنى وتَضْعَفُ بدورها حتى تستولى عليها وتُخْرِبَهَا دولٌ أخرى .

وَلِيَتَفَضَّلْ بآن يُوضَحَ لنا ذات مرةٍ من استطاع أن يُنتِجَ هذه الجحافل من البرابرة الذين غَمَرُوا أوربة وآسية وإفريقية قرونًا كثيرةً ، فهل كانوا مَدِينِينَ بهذا العدد العجيب من الأهلين لتقدم صنائعهم أو حكمة قوانينهم أو كمال ضابطتهم ؟ وَلِيَتَفَضَّلْ علماؤنا بأن يُبَيِّنُوا لنا من غير تفصيلٍ ما السببُ في كون هؤلاء الأدميين الجُفَاءَةِ القُسَاةِ العاطلين من المعارف والزاجر والتربية لا يتذابحون في كلِّ ساعةٍ تنازعًا حَوْلَ قُوَّتِهِمْ وصيدهم ، وَلِيُوضِحُوا لنا كيف أنه كان لدى هؤلاء البائسين من الإقدام ما يواجهون به وحدهم أناسًا بالغى المهارة كما كنا ، أناسًا ذوى نظام عسكريٍّ رائعٍ ودساتيرَ كثيرةٍ الإِتقان وقوانينَ شديدةٍ الإِحكام ، ثم لِمَ لا يَرَى ظُهُورُ مثل هذه المجموع التي أنتجها الشمال فيما مضى ، وذلك منذ كَمَلَ المجتمع في بلاده وعانى كثيرًا في تعليم الناس واجباتهم المتقابلة وفنَّ

العيش الرغيد الهادئ معاً ، وأخشى أن يتصدى للجواب عن ذلك في آخر الأمر رجلٌ يقولُ إن جميع هذه الأمور العظيمة ، أى الفنون والعلوم والقوانين ، قد اخترعت من قِبَل الناس كوابد نافع لمنع زيادة النوع زيادةً مُفْرِطَةً ، وذلك خشيةً أن يصبح العالمُ المُعْدُّ لنا من الصَّغَر ما لا يستوعب معه سكانه .

ثم ماذا ؟ أيجب أن يُقَصَّى على المجتمعات ، وأن يُبْطَل مالى ومالك ، وأن يُرْجَعَ إلى العيش مع الدَّيْبَةِ في الغابات ؟ إن هذه نتيجةٌ لمنهاج خصوصى الذين أودُّ أن أسبقهم قبل أن أدعَ لهم خِزْيَ استخراجها ، وأنتم ، أيها الذين لم يَسْمَعُوا صوتَ السماء قَطُّ ، والذين لم يَعْرِفُوا لنوعهم من الأغراض غيرَ قضاء هذه الحياة القصيرة في سَلام ، والذين يستطيعون أن يتركوا وسط المدن مُكْتَسَبَاتِهِمْ ونفوسَهُم المضطربة وأفئدتَهُم الفاسدة ورغائِبَهُم الجالحة ، عودُوا ، فعليكم يتوقف طُهُرُكم القديمُ الأول ، واعزلوا في الغاب لتغيب عنكم ذكرى جرائم معاصريكم ولا تَحْشَوْا انحطاط نوعكم بعدولكم عن معارفه وصولاً إلى العدول عن نقائصه ، وأما الرجالُ الذين هم مثلى فأسفرتُ أهواؤهم عن ضياع البساطة الأصلية إلى الأبد فعادوا لا يستطيعون أن يَفْتَدُوا بالأعشاب والبلُوط ولا أن يستغنوا عن القوانين والرؤساء ، وأما أولئك الذين شَرَّفُوا في أيهم الأول بدروسٍ خارقةٍ للعادة ، وأما أولئك الذين يَرَوْنَ ، في تصميم الأعمال البشرية خُلُقِيَّةً ما كانت لتكتسبها قبل زمنٍ طويل ، سببَ مبدأ خَلْقِيٍّ بذاته متعذرٍ إيضاحه في منهاجٍ آخر ، وأما أولئك القانونون بأن الصوت الإلهى دعا جميع الجنس البشرى إلى العرفان وسعادة الإدراك

الساوى ، وأما جميع أولئك ، فإنهم يحاولون ، بممارستهم الفضائل التى يحملون أنفسهم على تطبيقها بتعلمهم معرفتها ، أن يستحقوا الثواب الأبدى الذى ينتظرونه عليها ، فهم يحترمون روابط المجتمعات التى يعدّون من أعضائها ، وهم يحبّون أمثالهم ويخضعونهم بجميع قوتهم ، وهم يطيعون القوانين وواضعيها والوزراء إطاعة وثيقة ، وهم ، على الخصوص ، يجلبون الأمراء الصالحين الحكماء الذين يعرفون كيف يحولون دون وقوع طائفة من سوء الاستعمال والشروع التى تكون معدّة لإرهاقنا ، أو كيف يشفون منها أو يُلطفونها ، وهم يثيرون غيرة هؤلاء الرؤساء الأكفيا بإطلاعهم غير خائفين ولا مُصانعين على عظمة عملهم وشدة واجبهم ، بيد أنهم ليسوا أقلّ ازدياء لنظام لا يمكن أن يبقى إلا بمساعدة أناس محترمين كثيرين يرغب فيهم ، غالباً ، أكثر من أن يُظفر بهم ، لنظام تصدر عنه كل يوم مصائب أكثر من الفوائد على الرغم من جميع الجهود .

الصفحة ٥٤ : تَجِدُ بين الناس الذين نعرفهم بأنفسنا ، أو بواسطة المؤرخين ، أو بواسطة الشَّيَاح من هم سُودٌ ، ومن هم حُمْرٌ ، وبعض هؤلاء الآدميين ذوو شعْرٍ طويل ، وليس لدى الآخرين غيرُ شعْرٍ مُتَجَعَّد ، وبعض هؤلاء الآدميين شعْرٌ تقريباً ، وليس لدى الآخرين حتى لِحَى ، وقد كان يوجد ، ولا يزال يوجد على ما يحتمل ، أممٌ مؤلفةٌ من أناس ذوي قَوَامٍ جُسَامٍ ، وإذا عَدَوْتَ قصةَ الأقزام التي قد تكون مبالغاً فيها عَلِمْتَ أن اللايون ، ولا سيما أهلُ غَرْوَنُلْفَدَة ، ذوو قاماتٍ تُعَدُّ دون ما للإنسان المتوسط ، حتى إنه يُزَعَمُ وجودُ شعوبٍ بِأَسْرَها ذاتِ أذنانٍ كذوات القوائم الأربع ، وإنا ، من غير أن نَتَقَّ ثَقَّةً عَمِيَاءَ بِرِحَلاتِ هِيرُودُتُس وكِثْرِيَّاس ، يمكننا أن نستنبط الرأى المحتمل كثيراً والقائل إنه إذ أمكن القيامُ بمشاهداتٍ صالحةٍ في تلك الأزمنة القديمة حين كان شَتَّى الشعوب تَتَّبِعُ طُرُزاً للحياة أكثرَ اختلافاً فيما بينها مما تَصْنَعُ في الزمن الحاضر فإنه كان يلاحظ في الوجه وديَدَن البدن من التنوع ما هو أدعى إلى وَقْفِ النظر كثيراً ، ولا يُمكن جميعَ هذه الوقائع ، التي يَسْهُل أن تُقَدَّم عنها أدلةٌ لا مِرَاءَ فيها ، أن تُدْهِشَ غيرَ أولئك الذين تَعَوَّدوا ألا يَرَوْا غيرَ الأمور التي تحيط بهم ، والذين يَجْهَلُونَ النتائجَ القوية لاختلاف الأقاليم والهواء والأغذية

وطراز العيش والعادات على العموم ، ولا سيما القدرةُ المُجَيَّرَةُ لذات العِلَل عند تأثيرها الدائم في سلاسل طويلةٍ من الأجيال ، واليوم إذ تَجْمَع التجارةُ والرحلاتُ والفتوح بين مختلف الشعوب أكثرَ من قبل ، واليوم إذ تتداني طُرُزُ عيشها بلا انقطاع عن كثرة الاتصال ، فإنه يُرى نقصُ بعض الفروق القومية ، ومن ذلك أن كلَّ واحد يستطيع ، مثلاً ، أن يلاحظ كونَ فرنسيِّ الوقت الحاضر عادوا لا يكونون أولئك البيضَ والشُّقرَ الذين وصفهم مؤرخو اللاتين ، وإن وَجَبَ أن يكون الزمانُ ، المضافُ إلى اختلاط الفرنسيين والنُورمان البيضَ والشُّقرَ ، قد استطاع أن يعيد ما قَدَرَتْ على نَزْعِهِ معاشرَةُ الرومان من تأثير الإقليم ولَوْنِ السكان ، وتَحْمِلُنِي جميعُ هذه الملاحظات حَوْلَ ما يُمكن ألفَ علةٍ أن تُحْدِثَهُ ، وأحدثته ، من الاختلافات في النوع البشريَّ بالحقيقة على الشَّكِّ في كون الحيوانات المشابهة للآدميين من البهائم كما ذهب إليه السَّيَّاح الذين لاحظوا من غير كثير تدقيقٍ ، أوراوا ، عما لاحظوه من بعض الفروق في التكوين الخارجي ، أو عن كون هذه الحيوانات لا تتكلم مطلقاً ، أن هذه الحيوانات ليست ، في الحقيقة ، من وحوش الناس الذين تفرَّق عِرْفُهُم في الغابات قديماً فلم تُنْتَحَ له فُرْصَةٌ لِإِنْمَاءِ أيةٍ واحدةٍ من مَلَكَّاتِهِ الكامنة ولم يَنْلُ أيةَ درجةٍ من الكمال ، ولم يَزَلْ في الحال الأولى من الطبيعة ، ولأَقْدَمُ مثلاً على ما أقول .

قال مترجم « تاريخ الرحلات » : « يوجد في مملكة الكونغو عددٌ من تلك الحيوانات الكبرى التي تُدْعَى الأرنغ أوتان في الهند الشرقية وتعدُّ

متوسطة بين النوع البشري والقرد الكلبى ، ويَرَوَى بِأَتْل أَنَّهُ يُرَى فِي غَابَات مَايُونَبَا بِمَمْلَكَةِ لُوانغُونُوعَانِ مِنَ الْغِيلَانِ يُسَمَّى أَكْبَرُهَا يُونْغُو وَيُسَمَّى الْآخَرُ أَنْجُوكُو ، وَيُوجَدُ شَبَهُ تَامٍّ بَيْنَ الْأَوَّلِ وَالْإِنْسَانِ ، وَلَسْكَنَهُ أَكْثَرُ مِنْهُ ضَخَامَةً وَأَعْلَى مِنْهُ قَامَةً ، وَلَهُ وَجْهُ إِنْسَانٍ وَعَيْنَانِ غَائِصَتَانِ ، وَلَهُ يَدَانِ وَخَدَانِ وَأُذُنَانِ بِلَا شَعْرٍ ، وَذَلِكَ عَلَى خِلَافِ حَاجِيهِ ذَوَى الشَّعْرِ الطَّوِيلِ كَثِيرًا ، وَهُوَ مَعَ كَوْنِ بَقِيَّةِ بَدَنِهِ ذَاتَ شَعْرٍ كَافٍ لَمْ يَكُنْ شَعْرُهُ هَذَا كَثِيفًا جِدًّا ، بَلْ هُوَ أَسْمَرٌ ، ثُمَّ إِنْ الْقِسْمُ الْوَحِيدُ الَّذِي يُمَيِّزُهُ مِنَ النَّاسِ هُوَ سَاقُهُ الْعَاطِلَةُ مِنَ الرَّبْلَةِ ، وَهُوَ يَمْشِي مُسْتَقِيمًا مُمْسِكًا شَعْرَ الرِّقْبَةِ بِالْيَدِ ، وَفِي الْغَابِ عَزَلْتُهُ ، وَهُوَ يَنَامُ عَلَى الشَّجَرِ حَيْثُ يَتَّخِذُ نَوْعًا مِنَ السَّقْفِ يَتَّقِيهِ الْمَطَرُ ، وَيَقُومُ طَعَامُهُ عَلَى الْفَوَاكِهِ أَوْ الْجَوْزِ الْبَرِّ ، وَهُوَ لَا يَأْكُلُ اللَّحْمَ مُطْلَقًا ، وَمِنْ عَادَةِ الزَّوْجِ الَّذِينَ يَجُوبُونَ الْغَابَ أَنْ يُوقِدُوا نَارًا فِي اللَّيْلِ ، وَهُمْ يَلْحَظُونَ أَنْ الْيُونْغُو يَأْخُذُ مَكَانَهُمْ حَوْلَ النَّارِ فِي الصَّبَاحِ ، وَهُوَ لَا يَنْصَرِفُ مَا لَمْ تَنْطَفِئْ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ مَعَ كَثِيرِ مَهَارَةٍ لَيْسَ مِنَ الْإِدْرَاكِ السَّكَافِي مَا يَدِيْمُهَا مَعَهُ بَأَنْ يَحْلِبَ حَطْبًا إِلَيْهَا .

« وَهُوَ يَسِيرُ زُمْرًا أحيانًا فَيَقْتُلُ الزَّوْجَ الَّذِينَ يَجُوبُونَ الْغَابَ ، وَهُوَ يَنْقَضُ حَتَّى عَلَى الْفِيلَةِ الَّتِي تَأْتِي لِلرَّغَى فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي يَسْكُنُهَا ، وَهُوَ يَسْلُغُ مِنْ إِزْعَاجِهَا بَضْرَبَاتِ السَّكْفِ أَوْ الْعَصَا مَا يُكْرِهِيهَا مَعَهُ عَلَى الْفِرَارِ مَعَ صَوْتٍ ، وَمَا كَانَ الْيُونْغُو لِيُؤْخِذَ حَيًّا مُطْلَقًا ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ مِنَ الْقُوَّةِ الْكَبِيرَةِ مَا لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ عَشْرَةُ رِجَالٍ أَنْ يَقْفُوهُ ، غَيْرَ أَنَّ الزَّوْجَ يَأْخُذُونَ عِدَدًا مِنْ صِغَارِهِ بَعْدَ أَنْ يَقْتُلُوا أُمَّهُ الَّتِي يَلْصَقُ الصَّغِيرُ بِجِسْمِهَا بِشَدَّةٍ ،

وإذا مات أحد هذه الحيوانات سَتَرَت الأخرى بَدَنَهُ بِكُدْسٍ من الغصون أو الأوراق ، وإلى هذا يُضِيفُ پُورْشاس أنه علم من الكلام الذى دار بينه وبين باتل كَوْنِ الْپُونُغُو قد خَطَفَ زِنْجِيًّا صغيراً فقضى هذا الزنجيُّ شهراً كاملاً فى مجتمع هذه الحيوانات ، وذلك لأنها لا تؤذى الناس الذين تغاضبهم ، ما لم ينظروا إليها كما كان الزنجيُّ الصغير قد لاحظته ، ولم يَصِفْ باتلُ النوعَ الثانى من الغيلان .

» ويقول دايه مُوَكِّدًا إن مملكة الكُونُغُو زاخرةً بهذه الحيوانات التى يُطَلَقُ عليها فى الهند اسمُ الأَرَنْغِ أوتان ، أى سكان الغاب ، والتى يسميها الإفريقيون كُوجَا مُورُو ، ومن قوله إن هذا الحيوان هو من شِدَّةِ الشَّبهِ بالإنسان ما أُلْقِيَ معه فى رُوعِ بعض السَّيَّاحِ إمكانُ ولادته من امرأة وقد ، أى وهم يَذْخُصُه حتى الزنوج ، وقد نُقِلَ أحد هذه الحيوانات من الكُونُغُو إلى هولندة وقُدِّمَ إلى أمير أورانج ، فردريك هنرى ، وقد كان له طولٌ ولِدٍ فى الثالثة من سِنِيهِ ، وَسَمَنَ متوسطاً ، ولكن مع تربيةٍ وحسن تناسبٍ ، وقد كان سريعاً نشيطاً جداً ، ذاسيقانٍ مكنتزة قوية ، وذامُقَدِّم عارٍ جميعه ، وذامؤخرٍ مستورٍ بشعرٍ أسود ، وكان وجهه يشابه وجه الإنسان عند أول نظرة ، ولكن مع أنفٍ أفطسٍ أو أحجن ، وكانت أذناه كأذنى النوع البشرى ، وكان نَدْيُهُ ضخماً ، لأنه أنثى ، وكانت سُرَّتُهُ غائرة ، وكانت كَتِفاه حسنتى الاتصال ، وكانت يداه مقسومتين إلى أصابعٍ وأباهم ، وكانت رَبَلَتَاهُ وَعَقِبَاهُ سَمِيتَيْنِ لَحِيمَتَيْنِ ، وكان يَمْشِي فى الغالب على ساقيه مستقيماً ، وكان قادراً على حَمْلِ أثقالٍ وَزِينَةٍ ، وكان إذا ما أراد الشرب

أَمَسَكَ غِظَاءَ الْإِنَاءِ بِيَدِهِ وَأَمَسَكَ أَسْفَلَ بِيَدِهِ أُخْرَى ، ثُمَّ أَخَذَ يُنَشِّفُ شَفْتَيْهِ بِلُطْفٍ ، وَكَانَ يَضْطَجِعُ لِيَنَامَ فَيَضَعُ رَأْسَهُ عَلَى وَسَادَةٍ وَيَتَغَطَّى بِمَهَارَةٍ يُظَنُّ مَعَهَا أَنَّهُ إِنْسَانٌ ، وَيَرَوِي الزَّوْجَ قِصَصًا غَرِيبَةً عَنْ هَذَا الْحَيَوَانَ ، فَيَقُولُونَ مُوَكَّدِينَ إِنَّهُ يَجْرُؤُ عَلَى مَهَاجَةِ رِجَالٍ مُسْلِحِينَ فَضْلًا عَنْ أَنَّهُ يَغْتَضِبُ النِّسَاءَ وَالْبَنَاتَ ، وَالْخِلَاصَةُ أَنَّ الظَّاهِرَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا هُوَ غَوْلُ الْقَدَمَاءِ ، وَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنَّ مِيرُؤَلًا لَا يَتَكَلَّمُ عَنْ غَيْرِ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ عِنْدَمَا يَحْكِي عَنْ اسْتَعَانَةِ الزَّوْجِ فِي صَيْدِهِمْ ، أحيانًا ، بِرِجَالٍ وَنِسَاءٍ مَتَوَحِّشِينَ .

وَكَذَلِكَ قَدْ حَدَّثَ عَنْ تِلْكَ الْأَنْوَاعِ الْحَيَوَانِيَةِ الْمِثَابَةِ لِلْإِنْسَانِ فِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْ « تَارِيخِ الرِّحَالِ » ذَلِكَ بِاسْمِ بِيغُو وَمَنْدَرِيلٍ ، وَلَكِنَّا إِذَا مَا رَجَعْنَا الْبَصَرَ إِلَى كُتُبِ الرِّحْلَةِ السَّابِقَةِ وَجَدْنَا فِي وَصْفِ أُولَئِكَ الْغِيلَانِ الْمَرْعُومِينَ مُطَابَقَاتٍ مَعَ النَّوعِ الْبَشَرِيِّ تَقِفُ النَّظَرُ ، وَفَرُوقًا أَقَلَّ مِنْ الَّتِي يُمَكِّنُ تَقْدِيرَهَا بَيْنَ إِنْسَانٍ وَإِنْسَانٍ ، وَلَا يُرَى فِي تِلْكَ الْعِبَارَاتِ مُطْلَقًا مَا يَسْتَنِدُ إِلَيْهِ الْمُؤَلِّفُونَ مِنَ الْأَسْبَابِ فِي رَفْضِهِمْ إِطْلَاقَ اسْمِ وَحُوشِ النَّاسِ عَلَى تِلْكَ الْحَيَوَانَاتِ ، وَلَكِنَّهُ يَسْهُلُ أَنْ يُظَنَّ قِيَامُ ذَلِكَ عَلَى غِبَاوَتِهَا وَعَلَى عَدَمِ كَلَامِهَا ، أَيْ عَلَى أَسْبَابٍ ضَعِيفَةٍ لَدَى مَنْ يَعْرِفُونَ أَنَّ الْكَلَامَ نَفْسَهُ غَيْرُ طَبِيعِيٍّ فِي الْإِنْسَانِ وَإِنْ كَانَ عُضْوُ الْكَلَامِ طَبِيعِيًّا عِنْدَهُ ، وَلَدَى مَنْ يَعْلَمُونَ مِقْدَارَ مَا يُمَكِّنُ الْإِنْسَانَ الْمَدْنِيَّ أَنْ يُرْفَعَ بِكُلِّ الْكَلَامِ إِلَى مَا فَوْقَ حَالِهِ الْأَصْلِيِّ ، وَيُمَكِّنُ أَنْ تَجْعَلْنَا الْأَسْطُرَّ الْقَلِيلَةَ ، الَّتِي تَحْتَوِيهَا هَذِهِ الْأَوْصَافُ ، نَحْكُمُ فِي دَرَجَةِ سُوءِ مَا لُوحِظَتْ بِهِ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتُ فِي مِقْدَارِ الْمُبْتَسِرَاتِ الَّتِي نُنْظَرُ بِهِ إِلَيْهَا ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ وَصِفَتْ بِالْغِيلَانِ مِثْلًا ،

ومع ذلك فإنه يُعْتَرَفُ بِوِلَادِهَا ، وفي مكانٍ يقول بَاتِّلُ إن الْهُونُغُو يقتل
 الزوج الذين يَجُوبُونَ الغابات ، وفي مكانٍ آخَرَ يُضَيَّفُ هُورْشَاسُ إلى ذلك
 قوله إنه لا يُصِيبُهُمْ بَأًى سَوءٌ ، حتى عند المفاجأة ، وذلك ما لم يُعْنَوْا بالنظر
 إليه ، وَيَتَجَمَّعُ الْهُونُغُو حَوْلَ النيران التي يُوقدها الزوج عندما ينصرف
 هؤلاء ، وينصرف الْهُونُغُو بِدَوْرِهِ عند انطفاء النار ، وذلك هو الواقع ،
 وَالآن إليك تفسيرَ الباحث ، « وذلك لأنه مع كثيرٍ مهارةٍ ليس من الإدراك
 الكافي ما يُدَيِّمُهَا معه بأن يَحْلُبَ حَطَبًا إليها » ، وأودُّ لو أعلم كيف أمكن
 بَاتِّلُ ، أو جامعَهُ هُورْشَاسَ ، أن يَعْرِفَ أن انصراف الْهُونُغُو كان نتيجةً
 لغباوته أكثر من أن يكون نتيجةً لإرادته ، وليست النارُ في إقليمٍ
 كاللَّوَانُغُو شيئاً ضرورياً للحيوانات ، وإذا كان الزوج يُوقدونها فذلك
 لتخويف الضواري أكثر مما للتدفئة ، ولذلك فإن من الأمور البسيطة جداً
 أن يَسَامُ الْهُونُغُو ، بعد طَرَبٍ حَوْلَ اللَّهَبِ أو بعد أن يَدْفَأَ ، من البقاء
 في عَيْنِ المكان دائماً ، وأن يَنْصَرِفَ سعيًا وراءَ القوت الذي يتطلب من
 الوقت أكثر مما يتطلب أكلُ اللحم ، ثم إن من المعلوم أن الحيوانات ،
 ومنها الإنسان ، كَسَلَى بطبيعتها ، فتأبى كلٌّ ما ليس من الضرورات المطلقة ،
 ثم إن من الغريب جداً ، كما يظهر ، ألا يَعْرِفَ الْهُونُغُو دَفْعَ حَطَبٍ إلى
 النار ، وهو الذي يُمْتَدِّحُ حِدْقَهُ وقوته ، وهو الذي يَعْلَمُ دفنَ مَوْتَاهِ وَصُنْعَ
 سُقُوفٍ من غُصُونٍ لها ، وأذكرُ أنني رأيتُ قرداً يقوم بذات الحركة التي
 يُنْكِرُ صدورُهَا عن الْهُونُغُو ، وبما أن أفكاري لم تُوجَّه من هذه الناحية
 في ذلك الحين فإنني أتيتُ عَيْنَ الخطأ الذي أُلِمْ عليه سَيَّاحُنَا وأهملتُ

البحث في هل كان مقصد القرد إبقاء النار في الحقيقة أو تقليد عمل الإنسان كما اعتقد ، ومهما يكن من أمر فإن الذي أحسن بيانه هو كون القرد ليس من جنس الإنسان ، لأنه محرومٌ خاصية الكلام فقط ، بل لعطل نوعه من خاصية التكامل التي هي صفة النوع البشري الفارقة أيضاً ، أي القيام بتجريبية لم تتمَّ حَوْلَ الْيُونُغُو والأورَنْغ أوتان بدقة تكفي لاستخراج عين النتيجة ، وقد يذهب أصفقُ الباحثين إلى أن الأورَنْغ أوتان وغيره كانا من النوع البشري مُدْلِينَ بِدَلِيلٍ أَيْضاً ، ولكن يجب أن تُعَدَّ هذه التجربة متعذرةً ، فضلاً عن عدم كفاية جيلٍ واحد للقيام بها ، وذلك لِمَا يجب من إثبات ما ليس سوى افتراض أنه حقيقٌ ، وذلك قبل أن يحاول بسلامة طَوِيَّةٍ أمرُ التجربة التي يجب أن يُوكِّدها الواقع .

وعن شَطَطِ تَصُدُّرِ الْأَحْكَامِ الْعَاجِلَةِ التي ليست ثمرة العقل الْمُنَوَّرِ ، وعن سذاجةٍ يَجْعَلُ سَيَّاحُنَا مِنَ الْبَهَائِمِ ، مَسْمَاةً بِأَسْمَاءِ الْيُونُغُو وَالْمَنْدَرِيلِ وَالْأورَنْغ أوتان ، ما كان القدماء يَجْعَلُونَهَا مِنَ الْآلِهَةِ مَسْمَاةً بِأَسْمَاءِ سَاتُورُس^(١) وَفُونُوس^(٢) وَسِلْفِين^(٣) ، ومن المحتمل أن يُرى ، بعد مباحث أكثر دقة ، كون هؤلاء من الآدميين ، لا من البهائم ، ولا من الآلهة ، وَيُظْهَرُ لِي ، إلى أن يَقَعَ ذلك ، أن هنالك من الأسباب ما يُرْجَعُ بِهِ الْأَمْرُ ، فوق ذلك ، إلى الراهب الأديب والشاهد العياني مِيْرُولَا الذي لم يَدْعُ ، مع كامل بساطته ، أن يكون من رجال الذهن غيرُ التاجر بَاتِلٍ وَدِرَافَةٍ وَبُورْشَاسٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْجَامِعِينَ .

(١) شخص نصفه الأعلى بشر والأسفل ماعز كما جاء في الأساطير - (٢) من الآلهة الريفية

كما جاء في الأساطير - (٣) إله الغاب والحقول كما جاء في الأساطير .

وأى حكم يأتيه مثل هؤلاء الباحثين حول الولد الذى وُجِدَ سنة ١٦٩٤
وتكلمتُ عنه آنفاً ، والذى لم يَظْهَرْ عليه أى دليل على العقل فكان
يمشى على رجليه ويديه ويُخْرِج من الأصوات ما لا يشابه أصوات الإنسان ؟
قال مُدَاوِمًا ذلك الفيلسوفُ الذى أُمَدَّنِي بذلك الأمر الواقع : « مضى
زمنٌ طويل قبل أن يستطيع النطق ببعض الألفاظ ، وهو قد فعل هذا
على كَمَطٍ همجى ، وهو لم يَكْدُ يَقْدِرُ على الكلام حتى سُئِلَ عن حاله
الأولى ، ولكنه لم يَذْكُرْ عنها شيئاً أكثر مما نذكرُ عما حَدَثَ لنا فى
المهد » ، ولو كان هذا الولدُ سَيِّئُ الحظِّ فَوَقَعَ فى أيدى سَيَّاحنا لم يُشَكَّ
فى أن هؤلاء كانوا ، بعد ملاحظة صمته وغباوته ، يذهبون إلى رَدِّه إلى
الغاب أو حَبْسِه فى حَوْشِ الوحوش ، ثم كانوا يتكلمون عنه تَكَلُّمُ
العارفِ فى كتبٍ للسياحة رائعة ، وذلك كما يتكلمون عن حيوانٍ ذى فُضُولٍ
مشابهٍ للإنسان بعض الشبه .

واعتقد أننا ، منذ ثلاثة قرون أو أربعة قرون ، أى منذ مدةٍ يَغْمُرُ
الأوربيون فيها أقسامَ العالم الأخرى وينشرون بلا انقطاع مجموعاتٍ جديدةً
فى الرِّحلات ، لا نَعْرِفُ أناساً غيرَ الأوربيين ، وكذلك يَظْهَرُ من
المُبْتَسِرَاتِ المضحكة التى لم تنطفئ قطُّ ، حتى بين رجال الأدب ، أن كلَّ
واحدٍ لا يَصْنَعُ ، تحت اسم دراسة الإنسان الفخْم ، غيرَ دراسة أهل بلده ،
ويُعَدُّ من العبث ذهابُ الأفراد وإيائهم ، ويظهر أن الفلسفة لا تَسِيحُ
مطلقاً ، وكذلك لا تَصْلُحُ فلسفةُ شعبٍ لشعبٍ آخرٍ إلَّا قليلاً ، وسببُ
هذا واضحٌ بالنسبة إلى البقاع القاصية على الأقلِّ ، وذلك أنه لا يوجد

غيرُ أربعةِ أنواعٍ ، فقط ، للآدميين الذين يقومون برحلات طويلة ، وهم :
 المَلَّاحون والتجار والجنود والمبشرون ، والواقعُ أنه لا ينبغي أن يُنْتَظَر
 كونُ الفرُقَاء الثلاثة الأولى من الباحثين الصالحين ، وأما الفريقُ الرابعُ
 المُتَفَرِّغُ للإلهام الرفيع الذي يدْعُوهم ، عند ما لا يكون محلاً لمزاعم الحال
 بجميع الأخرى ، فإنه لا ينبغي أن يُعْتَقَدَ أنه لا يقوم مختاراً بمباحث تُعَدُّ
 من الفضول المحض كما يَظْهَرُ ، ونُحوُّه عما أُعِدَّ له من أعمالٍ أكثر أهميةً ،
 ثم إنه لا يلزَمُ غيرَ الغيرة للتبشير بالإنجيل تبشيراً مُجْدِيّاً ، والربُّ يُنْعِمُ
 بالبقية ، ولكن دراسة الناس تستلزم مواهب لا يتكفَّلُ الرَّبُّ بإعطائها
 أحداً إياها ، وهي ليست من نصيب القديسين في كلِّ حين ، ولا يُفْتَحُ
 كتابُ رحلاتٍ من غير أن يُطْلَعَ فيه على وصفٍ للأخلاق والطبائع ،
 بيدَ أن من دواعي الخيرة أن يُرى فيه كونُ هؤلاء الناس الذين كَثُرَ
 وصفُهم للأمور لم يقولوا غيرَ ما كان يَعْرِفُه كلُّ واحد سابقاً ، ولم يُبْصِرُوا
 في الطرف الآخر من العالم غيرَ ما يَبْدُو لهم ملاحظته من غير أن يَخْرُجُوا
 من شارعهم ، فهذه الخطوطُ الحقيقية التي تَمَيِّزُ بعضَ الأمم من بعض ،
 والتي تُوجِّهُ العيون التي صُنِعَتْ لِتَرَى ، قد غابت عن عيونهم ، ومن ثمَّ
 جاء المثلُّ الخُلُقِيُّ الجميل الذي كَثُرَ تَكَرُّره في السيمياء ، وهو « إن الناس
 أكفلاء في كلِّ مكان » ، فبما أن الناس ذوو أهواء واحدة وعيوبٍ واحدة
 في كلِّ مكان فإن من غير المفيد بما فيه الكفاية أن يحاول وصفُ مختلف
 الشعوب ، وهذا يَعْدِلُ تقريباً إقامة الدليل على كون بطرس لا يمتاز من
 يعقوب لأن لكل واحدٍ منهما أنفًا وفماً وعينين .

ألا يُرى ، مطلقاً ، بَعَثُ تلك الأزمنة السعيدة التي لم تتفلسف الشعوب فيها قط ، والتي كان يساور أفلاطون وثاليس وفيثاغورس فيها ولعٌ شديد بالمعرفة فيقومون بأعظم السياحات للثقافة فقط ويَضْرِبُونَ في الأرض لإلقاء نير المُبْتَسِرَاتِ القومية عنهم ، وليتعلموا معرفة الناس بمطابقتهم واختلافاتهم ، ولينالوا هذه المعارف العامة غير الخاصة بزمن أو بلدٍ حصراً ، فَعَدَّتْ علماً شائعاً بين الحكماء ؟

أَجَلْ ، يُعْجَبُ بسخاء بعض محبي الاطلاع الذين قاموا ، أو سَحَلُوا على القيام ، عن سَعَةِ ، برحلاتٍ في الشرق ، وذلك مع علماء ومصورين لرسم قياساتٍ أَوْفَتْ كتاباتٍ أو نَسَخِهَا ، غير أنني لا أكاد أتصور ، في قرنٍ يُبَاهَى فيه بالمعارف الرائعة ، عدم وجود رجلين متحدين غِنَى أحدهما بالمال والآخرُ بالنبوغ ، مُحِبَّيْنِ للمجد ، راغِبَيْنِ في الخلود ، فيُنْفِقُ أحدهما عشرين ألفَ دينارٍ من ماله وينفقُ الآخرُ عشرَ سنين من عمره ، للقيام برحلةٍ ذائِعَةٍ الصيت حَوْلَ الأرض لِيُدْرَسَ الناسُ والطبائعُ فيها مرةً ، لا الحجارةُ والنباتُ دائماً ، وَلِيَرَيَا معرفةَ سكانِ المنزل بعد أن قُضِيَتْ عدةُ قرونٍ في قياسه وتأمله .

وكان رجال الأكاديمية الذين جابوا أجزاء أوربة الشمالية وأجزاء أمريكا الجنوبية يَهْدِفُونَ إلى زيارتهما كمهندسين أكثر منهم فلاسفةً ، وبما أنهم مع ذلك ، كانوا جامعين للصفتين معاً فإنه لا يُمَكِّنُ أن يُعَدَّ مجهولاً تماماً ما كان قد شاهده ووصفه أمثال لاكوندامين ومويرتوي ، ولم يدعِ الصائغُ شاردان ، الذي ساح كأفلاطون ، شيئاً يقال عن فارس ، ويظهر أن الصين

قد دُرِستُ جيداً من قِبَلِ اليسوعيين ، وأبدى كَنُفُفِرَ فِكْرَةً سائغةً عن الشيء القليل الذي رآه في اليابان ، ولا نَعْرِفُ ، بجانب هذه الرحلات ، شعوبَ الهند الشرقية التي يَقْصِدُها أورييون أحرصُ على ملء جيوبهم مما على ملء رؤوسهم ، ، ولا يزال جميعُ إفريقية وأهلها الكثيرين المُشِيرِي العجب بأخلاقهم ولونهم يتطلب دراسةً ، وترى جميعَ الأرضِ زائراً بأهم لا نَعْرِفُ غيرَ أسمائها ، ثم ترانا نتصدى للحكم في الجنس البشري ! وَلَنَفْتَرِضَ أن رجلاً مثل مُونْتِسِيكو أو بُوفُون أو دِيدِرُو أو دُوكْلُو أو دَالْتْنِر أو كُونْدِيَاك أو أناساً من هذه الجبلة قد ساحوا لتثيف أبناء وطنهم فوصفوا ، بعد تدقيقٍ كما يَعْرِفُون أن يَفْعَلُوا ، تركيا ومصرَ والمغربَ وسلطنة مَرَّاكش وَغِيْنِيَّةَ وبلادَ الكُفْرَةِ وداخلَ إفريقية وسواحلها الشرقية والمَلَبَّارَ ومغولية وضيْفافَ الفَنجِ وممالكَ سيام وِيَغُو وجاوة والصين وبلادَ التتر ، ولا سيما اليابان ، ووصفوا في النصف الثاني من الكرة الأرضية بلادَ المكسيك والبيرو والشيلي والأراضى الماِجلانية ، وذلك من غير نسيان البَدْتَاغُون الحقيقيين أو الزائفين ، والتُّوكُومَان والپَرَاغُوَاي ، إذا أمكن ، والبرازيل ، ثم الكرايب ، وفلوريدة ، وجميعَ البقاع الوحشية ، أى قاموا بسياحةٍ أهمَّ من الجميع ، بسياحةٍ يجب أن تتمَّ بأعظم عناية ، ولنفترض أن أولئك الجبابرة وضعوا ، على مَهْلٍ ، وبعد الرجوع من تلك الأسفار التي تستحقُّ الذكر ، تاريخاً طبعياً وأدبياً وسياسياً عما يكونون قد شاهدوه ، فإننا نرى بأنفسنا ظهورَ عالمٍ جديدٍ من تحت أقدامهم فتتعلَّمُ معرفةً عالمنا على هذا الوجه ، أى إننى أقول إن مثل هؤلاء الباحثين إذا ما قالوا عن حيوانٍ

إنه إنسانٌ وعن آخرٍ إنه بهيمٌ وَجَبَ تصديقُهُم في ذلك ، ولكن من
البساطة العظيمة أن يُرَكَّن فوق ذلك إلى سائحين غِلاظٍ يحاول أن يُبَلِّغَ
حَوْلَهُمْ ، أحياناً ، عينُ السؤال الذي يذهبون إلى حَلِّهِ بحيواناتٍ أخرى .

الصفحة ٥٥ : يَظْهَرُ لى هذا من الوُضوح بمكان ، فلا أَقْدِرُ أن أنصور
 المصدر الذى يستطيع فلاسفتنا أن يستخرجوا منه جميع ما يَعْزُونه إلى الإنسان
 الطبعى من الأهواء ، وإذا عَدَوْتَ الضرورة البدنية الوحيدة التى تقتضيها
 الطبيعةُ نفسها وجدتَ جميعَ احتياجاتنا الأخرى ليست كما هى بالعادة ، أو
 برغائبنا ، التى لم تكن قَبْلَها من الاحتياجات قَطُّ ، فلا يُرْغَبُ فيما لا يُعْرَفُ
 مطلقاً ، ومن مِمَّ يُرَى أن الإنسان الوحشى ، إذ لم يرغب فى غير الأشياء
 التى يَعْرِفُها ، وإذ لم يَعْرِفْ غيرَ الأشياء التى تَقَعُ حيازتها ضِمْنَ مقدراته ، أو
 يَسْهُلَ عليه أن ينالها ، لا يكون ما هو أهدأ من روحه ولا ما هو أقصرُ
 من نفسه .

الصفحة ٦٠ : أجد في « الحكومة المدنية » لِلْمَوْلُكَ اعتراضاً يَبْدُو لِي أنه ظاهر الحقِّ فلا ينبغي لِي كَتْمُهُ ، قال هذا الفيلسوف : « بما أن الولادة لم تكن وحدَها غايةَ العِشْرَةِ بين الذكر والأنثى ، بل تَهْدِفُ هذه العِشْرَةُ إلى دوام النوع ، فإن من الواجب أن تدوم هذه العِشْرَةُ حتى بعد الولادة ، وذلك ، على الأقلِّ ، لمدة التي يقتضيها غذاء المواليد وبقاؤهم ، أى إلى حين قدرتهم على قضاء حاجاتهم بأنفسهم ، ونرى أن المخلوقات التي هي دون الإنسان تراعى بدقة واستمرارٍ هذه القاعدة التي اقتضتها حكمةُ الخالق البالغة حَوْلَ ما صَنَعَ ، ولا تدوم العِشْرَةُ بين الذكر والأنثى في هذه الحيوانات التي تعيش من العشب لمدةٍ أطولَ من عمل العاطفة ، وذلك لأن ثُدَيَّ الأم إذ كانت كافيةً لتغذية الصغار حتى الحين الذي تستطيع أن ترعى الكلاً فيه فإن الذكر يكتفى بالإلقاح ، ولا يَتَعَرَّضُ بعد ذلك للأنثى ولا للصغار التي لا يستطيع أن يساعد على تغذيتها ، ولكن العِشْرَةُ بين الحيوانات المفترسة تدوم مدةً أطولَ من تلك ، وذلك لأن الأم إذ كانت لا تستطيع أن تقوم بطعامها الخاصَّ وأن تُغْذِيَ في الوقت نفسه صغارها بما تَفْتَرَسُ ، أى أن تَسْلُكَ طريقاً للاغتذاء أكثرَ عُسْراً وأعْظَمَ خَطْراً مما يتطلبه الاغتذاء بالكلاً ، فإن مساعدة الذكر ضرورةً جِدّاً لحفظ أَسْرَهما

المشتركة إذا جاز لى استعمال هذا التعبير ، أى إنها لا تقدّر على البقاء بغير عناية الذكر والأنثى حتى تصبح قادرة على البحث عن فريسة ، ويلاحظُ الشيء عينه فى جميع الدواجن التى توجد فى أماكن يستغنى الذكر فيها عن العناية بتغذية الصغار لما تشتمل عليه من فيض دائم فى الغذاء ، ومما يُرى أن الصغار ، بيننا تكون محتاجة إلى القوت فى وكرها ، يأتى الذكر والأنثى إليها به حتى تصير قادرة على الطيران وعلى نيل ما تقتضى به

« وعندى أن المهمّ يقوم على هذا ، وذلك ما لم يكن هذا هو السبب الوحيد فى أن الذكر والأنثى فى الجنس البشرى ملزمان بعشرة أطول مما تقوم به المخلوقات الأخرى ، ويتجلّى هذا السبب فى قدرة المرأة على الحمل ، وفى كونها تصبح حُبلى وتضع ولداً قبل زمنٍ طويل من الوقت الذى يُمكن الولد السابق أن يستغنى فيه عن مساعدة أبويه فيستطيع أن يقضى حاجاته بنفسه ، وهكذا فإن الأب إذ كان ملزماً بالعناية بمن أوجب ولادتهم لزمنٍ طويل فإنه ملزمٌ أيضاً بإدامة العيش فى عشرة زوجية مع ذات المرأة التى ولدوا له منها ، وبأن يبقى ضمن هذه العشرة مدة أطول من عشرة المخلوقات الأخرى التى تستطيع صغارها أن تقوم بمعاش نفسها قبل حلول الزمن الذى تقع فيه ولادة جديدة ، فتقطع الصلة بين الذكر والأنثى من تلقاء نفسها فى أثناء ذلك ، ويصبح كلٌّ من الجنسين فى حلٍّ من الآخر حتى الفصل الذى تقضى عادته باقتران الحيوانات فيلزمها بأن تختار لنفسها زوجاتٍ جديدةً ، وهنا لا يُعجبُ كافياً بحكمة الخالق التى أنعمت على الإنسان بصفاتٍ خاصة يدبّر فيها المستقبل كما يدبّر الحاضر فقضت بأن

تدوم عِشْرَةُ الإنسان مدةً أطولَ كثيراً مما تدوم فيه عِشْرَةُ الذكر والأنثى بين المخلوقات الأخرى ، وذلك لكي تكون حيلة الرجل والمرأة أكثرَ تَقْتَنًا ومصالحهما أكثرَ اتحاداً ، وذلك وصولاً إلى نَيْلِ زَادٍ لأولادهما وترك مالٍ لهما ، فلا شيء يكون أكثرَ ضرراً بالأولاد من قِرَانٍ مبهمٍ غيرِ ثابتٍ أو من حَلِّ سَهْلٍ سريعٍ للعِشْرَةِ الزوجية .

ويَدْفَعُنِي حُبِّي للحقيقة ، الذي جعلني أُعْرِضُ هذا الاعتراض بإخلاصٍ ، إلى إضافة بعض الملاحظات إليه لإيضاحه على الأقل ، إن لم يكن كحلّه .

١ — ألاحظ قبل كل شيء أنه ليس للأدلة الأدبية قوةٌ كبيرة في موضوع الطبيعة ، وهى أنفعُ لبيان سبب الوقائع القائمة مما لَتَبَيَّن وجود هذه الوقائع الحقيقي ، والواقع أن هذا هو جنس الدليل الذى اتخذته مستر لوك في العبارة التى نقلتها ، وذلك أنه مهما يكن دوامُ قِرَانِ الرجل والمرأة نافعاً للجنس البشرى فلا يدلُّ هذا على كونه قد تَمَّ هكذا بفعل الطبيعة ، وإلا لوجب أن يقال إن الطبيعة أقامت المجتمع المدنى والفنون والتجارة وكلَّ ما يُزَعَم أنه مفيد للناس .

٢ — أجهل المكان الذى وَجَدَ فيه مستر لوك أن عِشْرَةَ الذكر والأنثى بين الحيوانات المفترسة أكثرُ دواماً مما بين التى تعيش من العشب ، وكون أحدهما يساعد الآخر على تغذية الصغار ، وذلك لأنه لا يُرَى أن الكلب والهرَّ والدَّبَّ والدَّبَّ أحسنُ معرفةً لأثناها من معرفة الحصان والكبش والثور والوعل وغيره من ذوات القوائم الأربع لأثناه ، وعلى العكس يلوح أن مساعدة الذكر إذا كانت ضروريةً للأنثى حِفْظاً لصغارها

كان هذا ، على الخصوص ، فى الأنواع التى لا تعيش إلا من العشب ، وذلك لأن الأم تحتاج إلى وقت طويل جداً للرعى ، ولأنها مكرهة على إهمال إنتاجها فى جميع هذه الفاصلة ، وذلك بدلاً من أن تلتهم فريسة الدُّبَّة أو الذُّبَّة فى دقيقة واحدة ، فىكون عندها من الوقت ما تُرَضِّع فيه صغارها ، ويؤيد هذا الاستدلال بما يشاهد من عدد الثديى والصَّغار النسبى الذى يميز الجوارح من آكلة النبات فتكملت عنه فى التعليق الثامن ، وإذا كانت هذه المشاهدة صحيحة عامة ، ولم يكن للمرأة غيرُ ثديين ، ولم تَضَعْ غيرَ ولدٍ دفعةً واحدة ، كان هذا سبباً قوياً مضافاً إلى ما تقدم للشكِّ فى أن النوع البشرى من الجوارح عن طبيعةٍ ، فيجب أن يُرجع إلى استدلال لوك لاستخراج النتيجة التى انتهى إليها ، ولا تجد ما هو أمتن من ذات التمييز الذى يطبَّق على الطيور ، فمن ذا الذى يُمكنه أن يُفنع نفسه بأن قران الذكر والأنثى بين العقبان والغربان أكثر دواماً مما بين القمارى ؟ ولدينا من الطيور الأهلية نوعان : البطُّ والحمام اللذان يُزوداننا بأمثلةٍ مناقضةٍ لمنهاج المؤلف رأساً ، فالحمام الذى لا يعيش إلا من الحَبِّ يَظَلُّ منضمّاً إلى أنثاه فيُعْذِّيان صغارهما بالاشتراك ، ولا يَعْرِفُ البطُّ ، الذى يُعَلِّمُ نَهْمَهُ ، أنثاه ولا صِغارَه وهو لا يساعد على غذائها مطلقاً ، ولا يُرى بين الدجاج ، الذى هو نوعٌ ليس أقلَّ ضراً مطلقاً ، أن الديك يبالى بالرَّخَم ، وإذا كان الذكر فى الأنواع الأخرى يشاطر الأنثى أمرَ العناية بتغذية الصَّغار فذلك لأن الطيور التى لا تستطيع الطيران فى البداءة ولا تستطيع أمُّها أن تُرَضِّعها أقلَّ استغناءً عن مساعدة الأب من ذوات القوائم الأربع التى يكفيا نَدَى أمِّها بعضَ الزمن على الأقل .

٣ - يُوجَد شكٌ حول الأمرِ الرئيسِ الذي يَصْلُحُ أساساً لجميع استدلالات مستر لوك ، وذلك لأنه إذا أُريد أن يُعرَف أن المرأة في الحال الطبيعية الصَّرفة هي ، كما يزعم ، أن تكون حُبلى ثانيةً ، وأن تَضَع ولداً قبل أن يستطيع الولد السابق أن يقوم بحاجات نفسه ، وَجَب وقوعُ تجاربٍ لم يَقُمْ بها مستر لوك ولم يَنْتَهَ إليها أحدٌ لاريب ، وإن سُكنى الزوج والمرأة في منزلٍ واحدٍ فرصةٌ تُدْخِلُ من حدوثِ حَبَلٍ جديدٍ ، فيَضَعُ أن يُعْتَقَد أن اللقاءَ العارض ، أو اندفاعَ المزاج ، يُسْفِر عن نتائجٍ كثيرةٍ الوقوع في الحال الطبيعية الصَّرفة كما تُسْفِر عنه العشرةُ الزوجية ، ومن المحتمل أن يساعد هذا البطء على جعل الأولاد أكثرَ قوَّةً ، وأن يُعوِّضَ منه ، مع ذلك ، بِخاصِّيةِ الحَمَلِ التي تكون أكثرَ دواماً في عمر النساء اللاتي لم يُسِنَّ استعمالها في شبابهن ، وأما من حيث الأولادُ فيوجد من الأسباب ما يَحْمِلُ على الاعتقاد بأن قواهم وأعضائهم تَنمو بيننا في وقت متأخر عن زمن نُموِّها في الحال الابتدائية التي أتكلَّم عنها ، وما هو واقعٌ من ضَعْفِ أصليٍّ ينتقل إليهم من بَنِيَةِ الأبوين ، وما يُؤْتَى من عنايةٍ في سَرِّ جميع الأعضاء ومضايقتها ، وما يُنْشَأون فيه من تَرْفٍ ، وما يَرْضَعُونَهُ من لبنٍ غيرِ لبنِ أمهم على ما يحتمل ، أمورٌ تباينُ تقدُّمَ الطبيعةِ فيهم وتعوقه ، وما يكون من تطبيقِ يُلزَمون به على ألف شيءٍ يُوجَّهُ إليه انتباههم باستمرارٍ ، على حين لا تُحْبَى قواهم البدنية بأى تمرينٍ كان ، يُمكن ، أيضاً ، أن يُسْفِر عن أُلْهيَّةٍ عظيمةٍ في نُشُوْهِم ، وذلك بأن يُتْرَكَ تمرينُ أبدانهم لحركاتٍ مستمرةٍ يُلَوِّح أن الطبيعة تطلبهم بها فيكونون في حالٍ يَمُشُّون وَيَسِيرُونَ

ويقضون حاجاتهم معها بأنفسهم قبل الأوان ، بدلاً من إرهاق نفوسهم وإتاعابها .
 ٤ — ثم إن مستر لوك يُثبِت ، فضلاً عن ذلك ، إمكان وجود عامل في الإنسان يظلُّ به مرتبطاً في المرأة إذا كان ذا ولد ، ولكنه لا يُثبِت ، مطلقاً ، وجوب ارتباطه فيها قبل الوضع وفي أثناء أشهر الحمل التسعة ، وإذا كانت مثل هذه المرأة لا تتألى بالرجل في أثناء هذه الأشهر التسعة ، وإذا ما أصبحت مجهولةً لديه أيضاً ، فلم يساعدها بعد الوضع ؟ ولم يُعِينها على تنشئة ولده لا يعرف أنه له ولم ينو ولادته ولم يُبَصِّرْها ، ومن الواضح أن يفترض مستر لوك ما هو مدار البحث ، وذلك لأن الأمر لا يدور حول معرفة السبب في بقاء الإنسان مرتبطاً في المرأة بعد الوضع ، بل حول السبب في ارتباطه فيها بعد الحمل ، فإذا ما قُضِيَ الوطر عاد الإنسان لا يحتاج إلى مثل هذه المرأة وعادت المرأة لا تحتاج إلى مثل هذا الرجل ، ولا يساور هذا الرجل أقلُّ همٍّ ، ولا أقلُّ فكرٍ عن نتائج عمله ، فأحدهما ينصرف من ناحية وينصرف الآخر من ناحية أخرى ، ولا يوجد من الظاهر ما يدلُّ على أنهما من الذاكرة ما يتعارفان معه ، وذلك لأن هذا النوع من الذاكرة ، التي يُفَضَّلُ بها فرداً آخر لعمل نسليٍّ ، يتطلب ، كما أثبتته في المتن ، تقدُّماً أو فساداً في الإدراك البشري أكثر مما يُمكن أن يفترض في الحال الحيوانية التي هي مدار البحث هنا ، ويمكن امرأة أخرى أن تقوم ، إذن ، بقضاء أوطار جديدة للرجل بسهولة كما عرِف سابقاً ، وكذلك يُمكن رجلاً آخر أن يقضى وطر المرأة ، وذلك عن افتراض كونها مُعْتَصِرَةً بذات الشهوة في حال الحبَل ، أى عن

أمرٌ يُمكن أن يُشكَّ فيه كما ينبغي ، وإذا عادت المرأةُ في حال الطبيعة
لا تُشعرُ بهوى الرجل بعد الحبَل عَظَمَ العائقُ لعِشْرَتِها مع الرجل كثيراً ،
وذلك لِمَا تَعُودُ غيرَ محتاجةٍ إلى الرجل الذى لَقَّحَها ، ولا إلى أى رجلٍ آخر ،
ولا يُوجَدُ في الرجل ، إذنْ ، أىُّ داعٍ إلى البحث عن ذات المرأة ، كما أنه
لا يُوجَدُ في المرأة أىُّ داعٍ للبحث عن ذات الرجل ، وتَسْقُطُ برهنةُ لوكٍ
متداعيةٌ ، ولم يَصْنُ هذا الفيلسوفُ مَنطَقَهُ من الخطأ الذى اقترفه هُوبزُ
وآخرون ، وقد كان عليهم أن يُوضِّحوا أمراً عن الحال الطبيعية ، أى عن
حالِ كان الناس يعيشون فيها منعزلين ، فلا يكون لدى الإنسان من العوامل
ما يعيش معه بجانب إنسانٍ آخرَ ، كما أنه لم يكن لدى الناس من العوامل
ما يعيش معه بعضهم بجانب بعض على ما يحتمل ، أى أن يأتوا ما هو شرٌّ ،
وهم لم يُفَكِّروا فى الانتقال إلى ما قبل عصور المجتمع ، أى إلى ما قبل
الأزمة التى يكون للناس فيها ، دائماً ، مُوجِبٌ يعيش به بعضهم بجانب
بعض ، والتى يكون للرجل فيها من الأسباب ، غالباً ، ما يعيش معه بجانب ذلك
الرجل أو تلك المرأة .

الصفحة ٦١ : أحتَرِزُ من الخَوْضِ فيما على أن آتِيَه من التأملات
 الفلسفية حَوْلَ فوائد نظام اللغات ومساوئه ، أى إنه لا يَقَعُ على أن أهاجم
 الأغاليط العامية ، وَيَكْثُرُ احترام الشعب الْمُتَقَفِّ لِمُبْتَسِرَاتِهِ فلا يُطَبِّقُ صابراً
 بدائى الزعومة ، وَلَنَدَعُ ، إِذَنْ ، يَتَكَلَّمُ أولئك الذين لم يُجْعَلْ من الجناية
 جُرْأَتُهُمْ على التزام جانب العقل ، أحياناً ، تِحَاكُ رَأْيِ الْجُمْهُورِ ، « فلو نفينا من
 العالمِ وباءَ كُلِّ هذه اللغات واختلاطها ، ولو تَمَسَّكَ الناسُ بِفَنٍّ واحدٍ وأمكنهم
 أن يُفَسِّرُوا كُلَّ شَيْءٍ بالإشارات والحركات ما نَقَصَ شَيْءٌ من سعادة الجنس
 البشرى » ، وَالْآنَ أَبْصَرْنَا أن الحيواناتِ الَّتِي يَدْعُوها العوامُ عَجَمًا وَاتٍ أَفْضَلُ
 منا حالاً من هذه الناحية ، فَهِيَ تُعَبِّرُ عن إحساساتها وأفكارِها من غير ترجمانٍ
 بما هو أسرعُ وأَسْعَدُ ، وَهَذَا ما يَعْجِزُ عنه الناسُ إِذَا ما اسْتَعْمَلُوا لُغَةً غَرِيبَةً
 على الخصوص . »

الصفحة ٦٦ : بَيَّنْ أَفْلَاطُونُ مَقْدَارَ لُزُومِ مَبَادِيءِ الكِمِيَّةِ ذَاتِ الأَجْزَاءِ
الْمُتَفَرِّقَةِ وَنَسَبِهَا فِي أَحْقَرِ الصَّنَائِعِ ، فَحُقِّقْ لَهُ أَنْ يَسْخَرَ مِنْ مُؤَلِّفِي زَمَنِهِ الَّذِينَ
كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ بِلَامِيدَ اخْتَرَعَ الأَعْدَادَ عِنْدَ حِصَارِ تَرْوَادَةَ ، كَمَا لَوْ كَانَ
أَغَامْمُونُ يَجْهَلُ مَقْدَارَ مَا لَدَيْهِ مِنْ سَيِّمَانٍ^(١) ، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ يُشْعَرُ بِتَعَذُّرِ تَعْيِينِ
مَا كَانَ قَدْ انْتَهَى إِلَيْهِ الْجَمِيعُ وَالصَّنَائِعُ أَيَّامَ حِصَارِ تَرْوَادَةَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ
لَدَى النَّاسِ عَادَةُ الأَعْدَادِ وَالْحِسَابِ ، غَيْرِ أَنْ ضَرُورَةَ مَعْرِفَةِ الأَعْدَادِ قَبْلَ نَيْلِ
مَعَارِفَ أُخْرَى لَا تَجْعَلُ تَصَوُّرَ اخْتِرَاعِهَا أَكْثَرَ سَهُولَةً ، وَلَمَّا عُرِفَتْ أَسْمَاءُ
الأَعْدَادِ مَرَّةً سَهِّلَ إِبْصَاحُ مَعْنَاهَا وَإِثَارَةُ مَا تَنِمُّ عَلَيْهِ هَذِهِ الأَسْمَاءُ مِنَ الأَفْكَارِ ،
بَيَّنَّ أَنْ اخْتِرَاعَهَا اقْتَضَى ، قَبْلَ تَمَثُّلِ هَذِهِ الأَفْكَارِ نَفْسِهَا ، تَعَوُّدَ التَّأَمُّلاتِ
الْفَلَسَفِيَّةِ وَالنَّظَرِ إِلَى الْمَوْجُودَاتِ بِجَوْهَرِهَا فَقَطْ مُسْتَقَلَّةً عَنْ كُلِّ تَصَوُّرٍ آخَرَ ،
أَيُّ اقْتَضَى ، تَجْرِيداً بِالْغَلْغَلَةِ الْمَشْتَقَةِ ، بِالْغَلْغَلَةِ مَا بَعْدَ الطَّبِيعِيَّةِ ، قَلِيلَ الطَّبِيعِيَّةِ إِلَى الْغَايَةِ ،
فَلَا تَسْتَطِيعُ هَذِهِ الأَفْكَارُ بَغْيَرَهُ أَنْ تُنْقَلَ مِنْ نَوْعٍ أَوْ جَنْسٍ إِلَى آخَرَ ، وَلَا أَنْ
تَصْبِحَ الأَعْدَادُ عَامَةً ، وَيُمْكِنُ الْوَحْشَ أَنْ يَتَأَمَّلَ سَاقَهُ الْيَمْنِيَّ وَسَاقَهُ الْيَسْرَى
عَلَى انْفِرَادٍ أَوْ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِمَا مَعًا تَحْتَ فِكْرَةِ الزَّوْجَيْنِ الَّتِي لَا تَتَجَزَأُ ، وَذَلِكَ
مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْكَرَ فِي حَيَازَتِهِ لاثْنَتَيْنِ ، وَذَلِكَ لَوْجُودِ فَرْقٍ بَيْنَ الْفِكْرَةِ التَّمَثِّلِيَّةِ

(١) الجهورية ، باب ٧ .

التي تصور لنا موضوعاً والفكرة العددية التي تُعَيَّنُهُ ، وأقلُّ من ذلك قدرتهُ
على الحساب حتى الخمسة ، وهو مع تطبيقه إحدى يديه على الأخرى يمكنه أن
يلاحظ كون الأصابع تتطابق تماماً ، وهو بعيدٌ من التفكير في مساواتها العددية ،
وهو لا يَعْرِف عددَ أصابعه كعدم معرفته عددَ شعره ، وهو إذا ما سَمِعَ شيئاً
عن العدد فقليل له إن أصابع رجله تُغْدِلُ أصابع يديه عدداً اعترته حيرةٌ ، على
ما يحتمل ، عند ما يقابل بينها فيرى صحة هذا .

الصفحة ٧٠ : لا يجوز أن يُخلط بين الأنانية وحبّ البقاء ، أى بين العاطفتين اللتين تختلفان طبيعةً ونتيجةً ، فحبّ البقاء فى ذاته شعورٌ طبيعىّ يدفع كلَّ حيوان إلى السهر على بقائه الخاصّ ، ويُسفر عن الإنسانية والفضيلة إذا ما وجهه الإنسان بالعقل وعدلّ بالرأفة ، وليست الأنانية غير شعورٍ نسبيّ مصنوع ناشئ فى المجتمع ، فيجمل كلّ فردٍ على الاكتراث لنفسه أكثر مما لغيرها ، ويوحى للناس بجميع الشرور ، التى يصنعونها مقابلةً ، ويُعدّ مصدرَ الشرف الحقيقى .

وأقول بعد ذلك إن الأنانية فى حالنا الابتدائية ، فى الحال الطبيعية الحقيقية ، غير موجودة ، وذلك لأن كلَّ إنسان ، على الخصوص ، إذ كان يعدّ نفسه الناظرَ الوحيد الذى يشاهدها ، السكّانَ الوحيد فى العالم الذى يُعنى بها ، القاضىَ الوحيد فى مزيته الخاصة ، فإن من غير الممكن أن يرسخ فى نفسه أى شعورٍ ناشئٍ عن مقايساتٍ لا يستطيع القيام بها ، أى إن هذا الإنسان لا يستطيع لذات السبب أن يكون ذا حقدٍ أو رغبة فى الانتقام ، أى متصفاً بهذه الأهواء التى لا يُمكن أن تنشأ عن رأيٍ فى إهانةٍ تتلقاها ، وبما أن الازدراء أو نيةَ الإضرار ، لا الشرّ ، هو الذى يُوجبُ الإهانة فإن الناس الذين لا يعرفون أن يُكرّم بعضهم بعضاً ، ولا أن يقيسوا بين

بعضهم وبعضٍ ، يأتون بضروبٍ من العنف مبادلةً عند ما تُلوح لهم فائدةٌ ،
وذلك من غير أن يَحْنَقَ بعضهم على بعضٍ مقابلةً ، وانخلاصة هي أن كلَّ
إنسانٍ ، إذ لا يرى أمثاله إلا كما يرى حيواناتٍ نوعٍ آخرٍ ، يستطيع أن
يختطف الفريسة من الأضعف ويتنزل عن فريسته للأقوى عَادًا هذه الأسلابُ
من الحوادث الطبيعية ، وذلك من غير أدنى حركةٍ في الغيظ والعُتُو ، ومن
دون هَوَى آخرٍ غير الألم أو السرور حَوْلَ حُسْنِ النجاح أو سوءه .

الصفحة ٩٤ : مما يَحْدُرُ ذكره إلى الغاية أن يُقْلِقَ الأوروبيون بالهم منذ سنين كثيرة جَلْبًا لوحوش مختلف بقاع العالم إلى طِراز حياتهم وألّا يستطيعوا كَسْب واحدٍ منهم حتى الآن ، ولو لَنَفَعَ النصرانية ، وذلك لأن مُبَشِّرينا وإن جعلوا أناسًا منهم نصارى أحيانًا لم يُحوِّلوا هؤلاء إلى أناسٍ متمدنين قَطُّ ، ولا شيء يستطيع أن يتغلب على ما يساورهم من مقتٍ متأصلٍ لانتحال طبائعنا وطِراز حياتنا ، وإذا كان هؤلاء الوحوش البأسون من الشقاء بمقدار ما يُزَعَمُ فَبَأَى فسادٍ في الرأى عريقٍ يَرِفُضُونَ باستمرارٍ أن يتمدّنوا مُقْتَدِينَ بنا ، أو أن يتعلموا العيشَ سَعْدَاءَ بيننا ، وذلك على حينٍ يُقَرَأُ في ألف مكانٍ أن فرنسيين وأوربيين آخرين لجأوا إلى هذه الأمم طَوْعًا وقَصُورًا حياتهم كاملةً بينها من غير أن يُطِيقوا تركَ طِرازِ عيشٍ بالغِ الغرابة كهذا ، وذلك على حينٍ يُرَى ، أيضًا ، مُبَشِّرون عقلاءُ يأسفون مع تَحَنُّنٍ على الأيام الهادئة البريئة التي قَصَّوْها عند هذه الشعوب المزدرة كثيرًا ؟ إذا ما أُجِيبَ عن هذا بأنها ليست من الذكاء الكافي ما تستطيع أن تَحْكُمَ به حكمًا صحيحًا في حالها وحالنا رَدَدْتُ بقولى إن تقدير السعادة هو من عمل الشعور أكثرَ من أن يكون من عمل العقل ، ومع ذلك فإن من الممكن أن يُرَدَّ هذا الجواب علينا بشدة أقوى من تلك ، وذلك لأن أفكارنا التي يتصرف فيها

الذهن ، حيث يجب أن يكون لتمثّل الذوق الذى يَحِدُّه الوحوش فى طراز عيشهم ، أبعدُ من أفكار الوحوش فى تمثّلهم طراز عيشنا ، والواقعُ أنه يسهلُ عليهم أن يَرَوْا بعد بعض الملاحظات أن جميع أعمالنا تتجه نحو غايتين فقط ، وهما أطايبُ النعم لذاتها والمكانةُ بين الآخرين ، ولكن ما الوسيلة التى تتصور بها نوعٌ ما يَحِدُّه الهمجى من لذةٍ فى قضاء حياته فى وسط الغاب ، أو فى صيد البحر ، أو فى النَّفْخِ فى مِزْمَارٍ ردىء من غير أن يَعْرِفَ استخراجَ لحنٍ منه ومن غير أن يبالى بتعلمه ؟

لقد جُأِبَ وحوشٌ إلى باريسَ ولندنَ ومُدُنٍ أخرى عِدَّةَ مرات ، وقد تراحم الناس ليعرضوا عليهم نفائسنا وثروَاتنا وأكثرَ صنائعنا نفعاً وأدعاها إلى النظر ، فلم يُبَيَّرْ جميعُ هذا غيرَ إعجابٍ سَخِيفٍ فيهم مع عدم إثارة أذى درجةٍ من الشهوة ، وأذكُرُ فيما أذكُرُ قصةَ رئيسِ أناسٍ من أمريكةِ الشمالية أتى به إلى بلاطِ إنكلترة منذ ثلاثين عاماً ، فعرضَ أمام عينيه ألفُ شىءٍ لتقدّمَ إليه هديةً منها يُمكن أن تروقه ، فلم يُوجدْ فيها ما يظْهَرُ أنه يبالى به ، وقد بدتْ أسلحتنا ثقيلةً عسيرةً عليه ، وقد جرّحت أحذيتنا رجله ، وقد ضايقته ثيابنا ، فرفضَ جميعَ هذا ، وأخيراً رُئِيَ أنه تناول غطاءً من صوف فظْهَرُ أنه مُرَّ باشمال كتفيه به ، وبُسِّئِلَ : « تلائمكم فائدة هذا الجهاز على الأقل » ، ويحيب : « أجل » ، يُلَوِّح لى هذا نافعاً نفع جلد الحيوان » ، ومع ذلك فإنه لم يكن ليقولَ ذلك لولبَسَ هذا وذاك عند المطر . ومن المحتمل أن يقال لى إن العادة هى التى تَرِيطُ كلَّ واحدٍ بطراز عيشه ، وهى التى تحوّل دون شعور الهمج بما هو حسنٌ فى طراز عيشنا ،

فعلى هذه الحال يجب أن يُرى أن من الخوارق القوية على الأقل أن العادة تنطوى على قوةٍ أشدَّ في إمساك الهمجِ ضمنَ ذوقِ يؤسهم مما في إمساك الأوريون ضمنَ تمتعهم بسعادتهم ، ولكننى لى أقدم جواباً عن هذا الاعتراض الأخير لا يُردُّ عليه بكلمة ، ولكننى من غير أن أستشهد بشبان الهمج الذين عنيَ بتمدينهم على غير جدوى ، وذلك من غير أن يحدث عن أهل غروينلندة وإيسلندة الذين سعيَ في تنشئتهم وتغذيتهم في ديناركة والذين هلكوا غماً وقنوطاً ، وذلك عن ضنى أو في البحر الذى حاولوا أن يعودوا به إلى بلادهم سبجاً ، أكتفى بذكرِ مثالٍ واحدٍ حُققَ جيداً فأقدمه إلى المُعجِبِينَ بالسياسة الأوربية ليدُرُسوه .

« لم تقدر جميع جهود المبشرين الهولنديين في رأس الرجاء الصالح على تحويل أحدٍ من الهوتينتوتو عن دينه ، وما حدث أن حاكم الكاب فإن درستيل أخذ واحداً منهم منذ طفولته ورباه وفق تعاليم النصرانية وأساليب العادات الأوربية ، وقد ألبس لباساً زاهياً ، وقد علم عدة لغات ، وما نال من تقدمٍ ناسب جيداً ما بذل من عناية لتربيته ، وعلق الحاكم أملاً كبيراً على ذكائه فأرسله إلى الهند مع وكيلٍ عامٍ انتفع به مستخدماً في أمور الشركة ، ثم عاد إلى الكاب بعد موت الوكيل ، وتمضى أيامٌ قليلة على رجوعه فيرى في زيارة قام بها لأناسٍ من أقربائه الهوتينتوتو أن يخلع ثيابه الأوربية ليلبس جلد شاةٍ ، ويعود إلى الأقوى بهذا اللباس الجديد حاملاً صرةً مشتملةً على ثيابه القديمة ، مقدماً إياها إلى الحاكم قائلاً : « تفضل ياسيدى بأن تعلم أننى عدلت عن هذا الجهاز إلى الأبد ، وأننى رجعت عن النصرانية لمدى

حياتي ، وأنتى عَزَمْتَ أن أعيش وأموت على دين آبائي ، وكلُّ ما أطلبه
من لطفك أن تترك لى العِقد والخنجر اللذين ألبسهما ، فسأحتفظ بهما حُبًّا
لك « ، وهو ، من غير انتظارٍ لجواب فإن دِرُسْتِل ، لم يَلْبَث أن توارى
فأرأى ، ولم يَرُ ثانيةً فى الكاف « ، (تاريخ الرحلات ، جزء ٥ ، صفحة ١٧٥).

الصفحة ١٠١ : يُمكن أن يُعترض على أن الناس في مثل هذا الاضطراب يتفكرون عند عدم وجود حدٍ لتفرقهم ، وذلك بدلاً من أن يتذبحوا بعناد ، ولكن هذه الحدود كانت في البداية حدود العالم على الأقل ، وإذا ما فكر في فرط الأهلين الذي ينشأ عن حال الطبيعة رُئي أن الأرض في هذه الحال لم تتأخر أن تُستَر بالآدميين المضطرين إلى البقاء مجتمعين على هذا الوجه ، ثم إنهم يتفكرون إذا ما استفحل الشر ، وقد وقع هذا التحول بين عشية وضحاها ، غير أنهم كانوا يُولدون تحت النير ، وكان من عادتهم أن يحملوه إذا ما شعرُوا بثقله ، وكانوا ينتظرون فرصة إلقائه عنهم ، ثم بما أنهم تعودوا ألف رفاهية كانت تحملهم على البقاء مجتمعين فإن التفرق لم يكن سهلاً كما في الأزمنة الأولى ، حيث كان كل واحد يحزُم من غير أن ينتظر موافقة أحد ، وذلك لعدم احتياجه إلى غير نفسه .

الصفحة ١٠٤ : رَوَى المريشال دوفيلار أن إفراط أحد متعهدي الميرة
 في الاختلاس آذى الجيش وأثار تدمره فعزّره بعنف وهدّده بالإعدام شنقاً ،
 فقال له المختلس بجرأة : « لا أبالي بهذا الوعيد ، ويسهل عليّ أن أقول لكم
 إنه لا يُصارُ إلى شَنْق رجل يتصرف في مئة ألف دينار » ، ويُعَقَّب المريشال
 على ذلك قائلاً بسداجة : « لا أعلم كيف وقع هذا ، ولكنه لم يُشْنَق قطُّ
 كما هو الواقع ، مع أنه يستحقُّ الإعدام على ذلك مئة مرة » .

الصفحة ١١٨ : يعارض العدلُ الأمرُ بتوزيع الجزاء والعقاب على أصحابهما هذه المساواة الوثيقة في الحال الطبيعية عندما يُعمل به في المجتمع المدني ، وبما أن جميع أعضاء الدولة مدينون لها بِخِدْمَةٍ تُنَاسِبُ مواهبهم وقواهم فإنه يجب أن يُمَارَزَ بين المواطنين وأن يُفَاضَلَ بينهم على حسب خِدْمَتِهِمْ ، وعلى هذا المعنى يجب أن تُحْمَلْ عبارة إيزوقراط^(١) التي يمتدح فيها أهل أثينة الأولين العارفين أن يميزوا جيداً ما هو أنفع بين نوعي المساواة اللذين يقوم أحدهما على إشراك جميع المواطنين على السواء في ذات المنافع ، ويقوم الآخر على توزيعها وفقّ مزية كلٍّ منهم ، ويُبْعَدُ هذا الخطيبُ تلك المساواة الجائرة التي لا تَجْعَلُ أياً فَرْقٍ بين الأشرار والأبرار فيقول مضيفاً إن هؤلاء السياسيين الماهرين يتمسكون تمسكاً قاطعاً بما يكفي ويعاقب كل واحدٍ وفقّ مزيته ، بَيِّنِدَ أنه لم يُوجَدْ ، أولاً ، مجتمعٌ لم يُفَرِّقْ فيه بين الأشرار والأبرار مهما كانت درجة الفساد ، وأما من ناحية الأخلاق ، حيث لا يستطيع القانونُ أن يُعَيِّنَ من التدابير الصحيحة ما يَصْلُحُ اتخاذه قاعدةً للقاضي ، فإن من الحكمة البالغة ألا يُتْرَكَ نصيبُ المواطنين ومقامهم بخيار هذا القاضي الذي يحفظ القانونُ عليه أن يحكم في الناس غير تاركٍ له سوى القضاء في

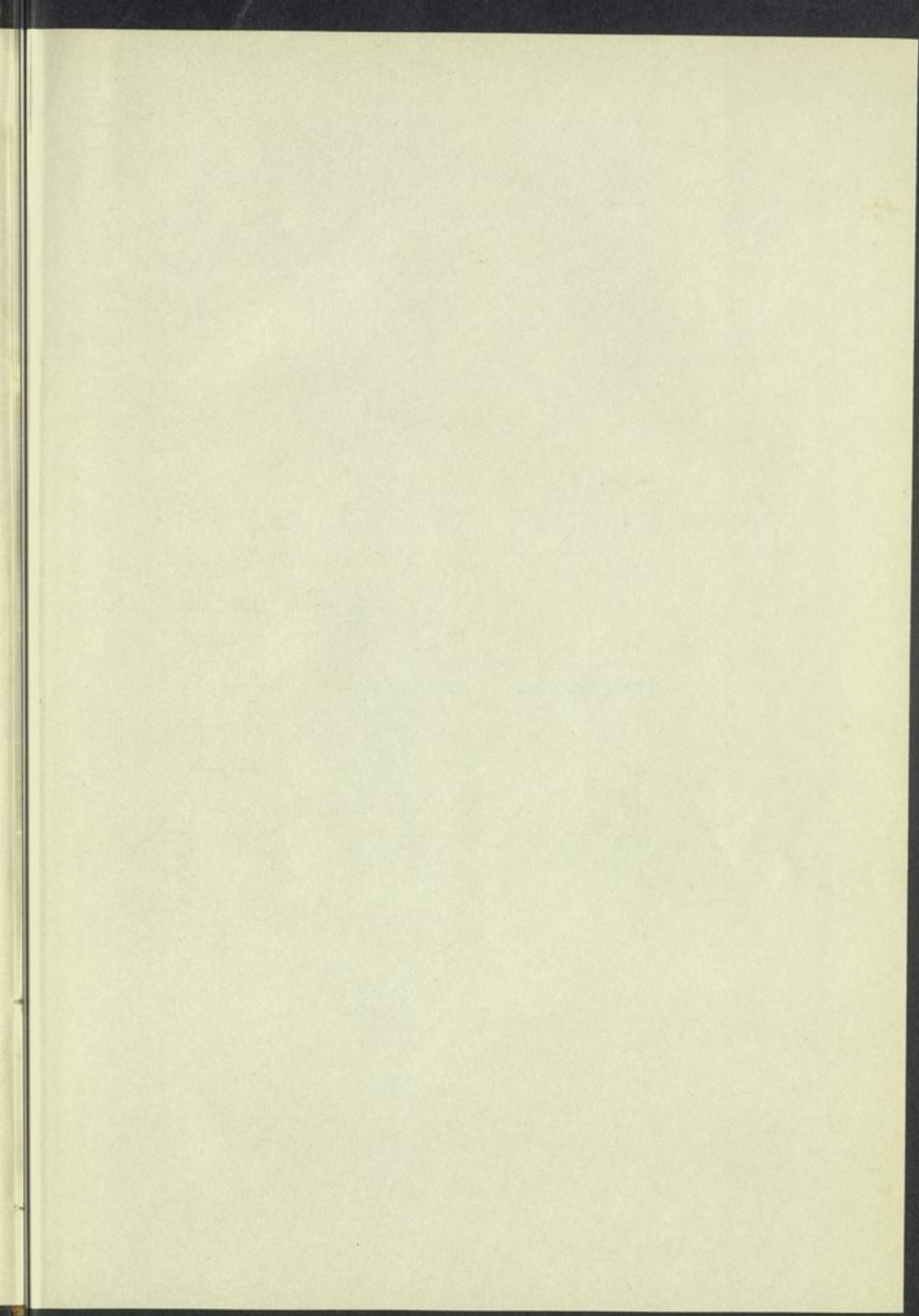
(١) Arcopagit, 8 ، طبعة كوراي .

الأفعال ، ولا تجد غير أخلاق الرومان الصافية ما يستطيع أن يطبق الرُّقباء ،
ومحاكم مثل هذه لا تلبث أن تُقلب بيننا رأساً على عقب ، وعلى التقدير
العام أن يضع فرقاً بين الأشرار والأبرار ، وليس المحاكم قاضياً إلا في الحقوق
الوثيقة ، وأما الشعب فهو القاضى الحقيقى فى الأخلاق ، هو القاضى العادل ،
حتى الخبير ، من هذه الناحية ، هو القاضى الذى يُخادع أحياناً ، ولكن من
غير أن يُفسد مطلقاً ، ويجب أن تُنظم مراتب المواطنين ، إذن ، وفق
الخدم الحقيقية التى يقدمونها إلى الدولة ، والتى تتقبل تقديراً أكثر
إحكاماً ، لا وفق مزيته الشخصية التى تدع للحكام وسيلة لتطبيق القانون
تطبيقاً مرادياً .

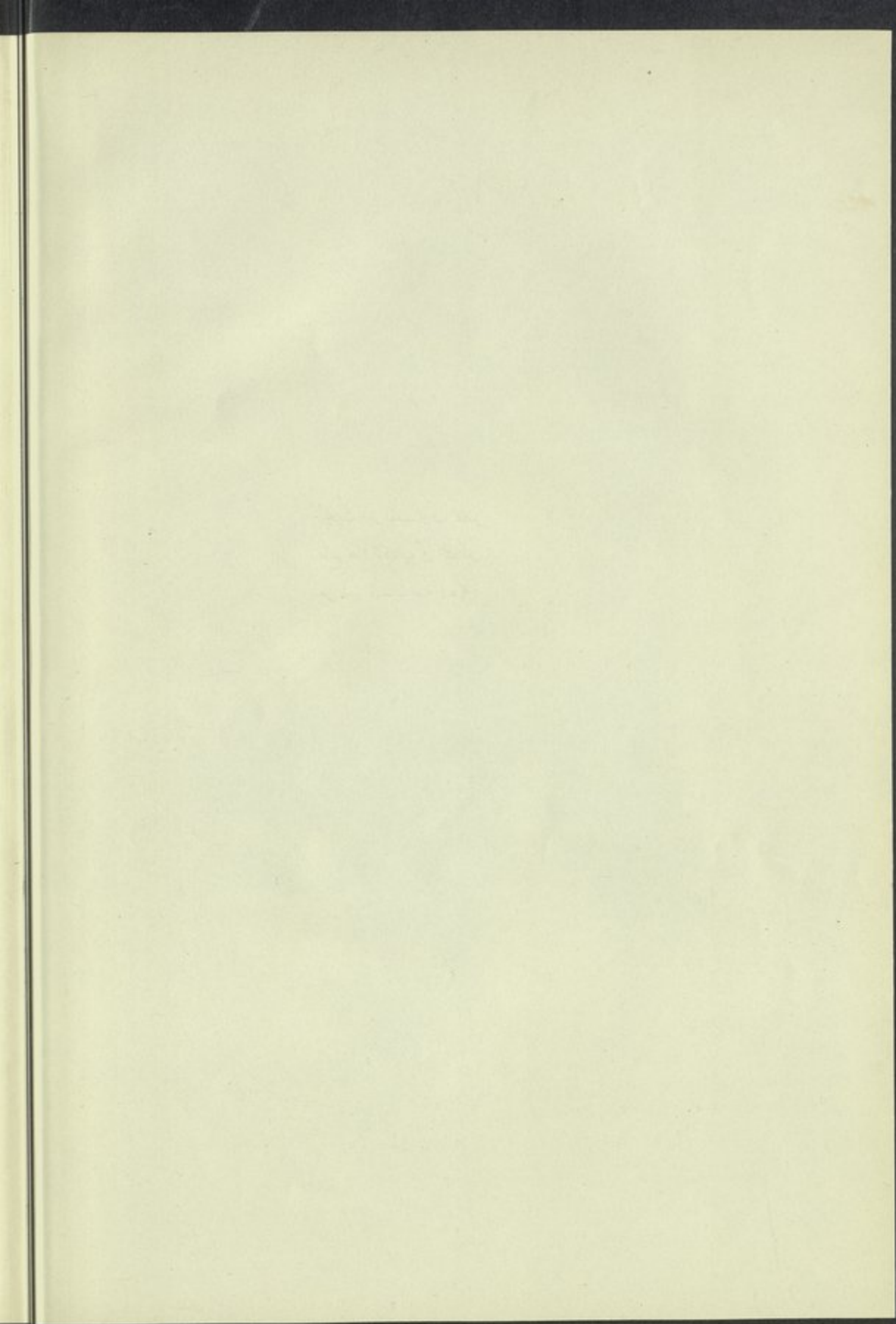
الفهرس

الصفحة

٥	.	.	.	.	.	مقدمة المترجم
١٣	.	.	.	.	.	رسالة في سؤال اقترحته أكاديمية دييجون
١٥	.	.	.	.	.	إلى جمهورية جنيف
٢٩	.	.	.	.	.	المقدمة
٣٧	.	.	.	.	.	كلمة حول أصل التفاوت
٤١	.	.	.	.	.	القسم الأول
٨٣	.	.	.	.	.	القسم الثاني
١٢٧	.	.	.	.	.	تعليقات



أنجزت دارالمعارف بمصر
طبع هذا الكتاب في الثلاثين
من شهر نيسان سنة ١٩٥٤



Commission internationale pour la traduction
des Chrétiens d'Orient, constituée par accord de
l'Union avec le Gouvernement Libanais intervenu
le 5-9 Décembre 1948

M. STEVEN PIERRE, Président
M. LONARD BARATY, Vice-Président
M. PIERRE E. BOUTRY, Secrétaire Général
THOMAS MORAY, Trésorier
ABDALLAH MAHMOUD
HASSAN TADOU

Commission internationale pour la traduction
des Chefs - d'Œuvre, constituée par accord de
l'UNESCO avec le Gouvernement Libanais intervenu
le 6-9 Décembre 1948

DR. STEPHEN PENROSE, *Président*

DR. EDMOND RABBATH, *Vice-Président*

MM. FOUAD E. BOUSTANY, *Secrétaire Général*

THOMAS MORRAY, *Trésorier*

ABDALLAH MACHNOUK

HENRI LAOUST.

J. J. ROUSSEAU

ORIGINE
DE L'INÉGALITÉ
PARMI LES HOMMES

Traduction Arabe

par

ADH. ELWATY

LE CAIRE

1921

COLLECTION UNESCO D'ŒUVRES REPRESENTATIVES

J. J. ROUSSEAU

ORIGINE
DE L'INÉGALITÉ
PARMI LES HOMMES

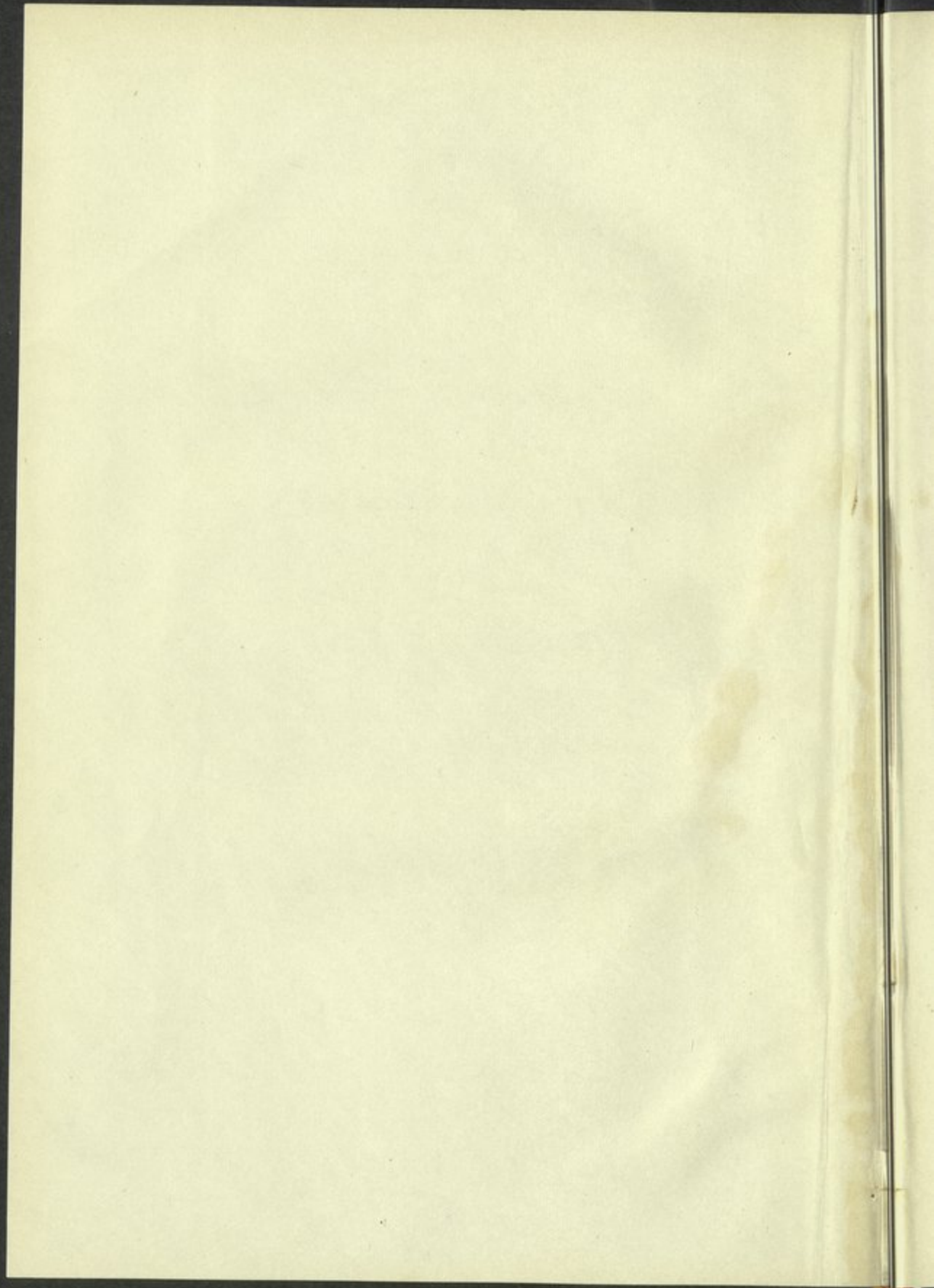
Traduction Arabe

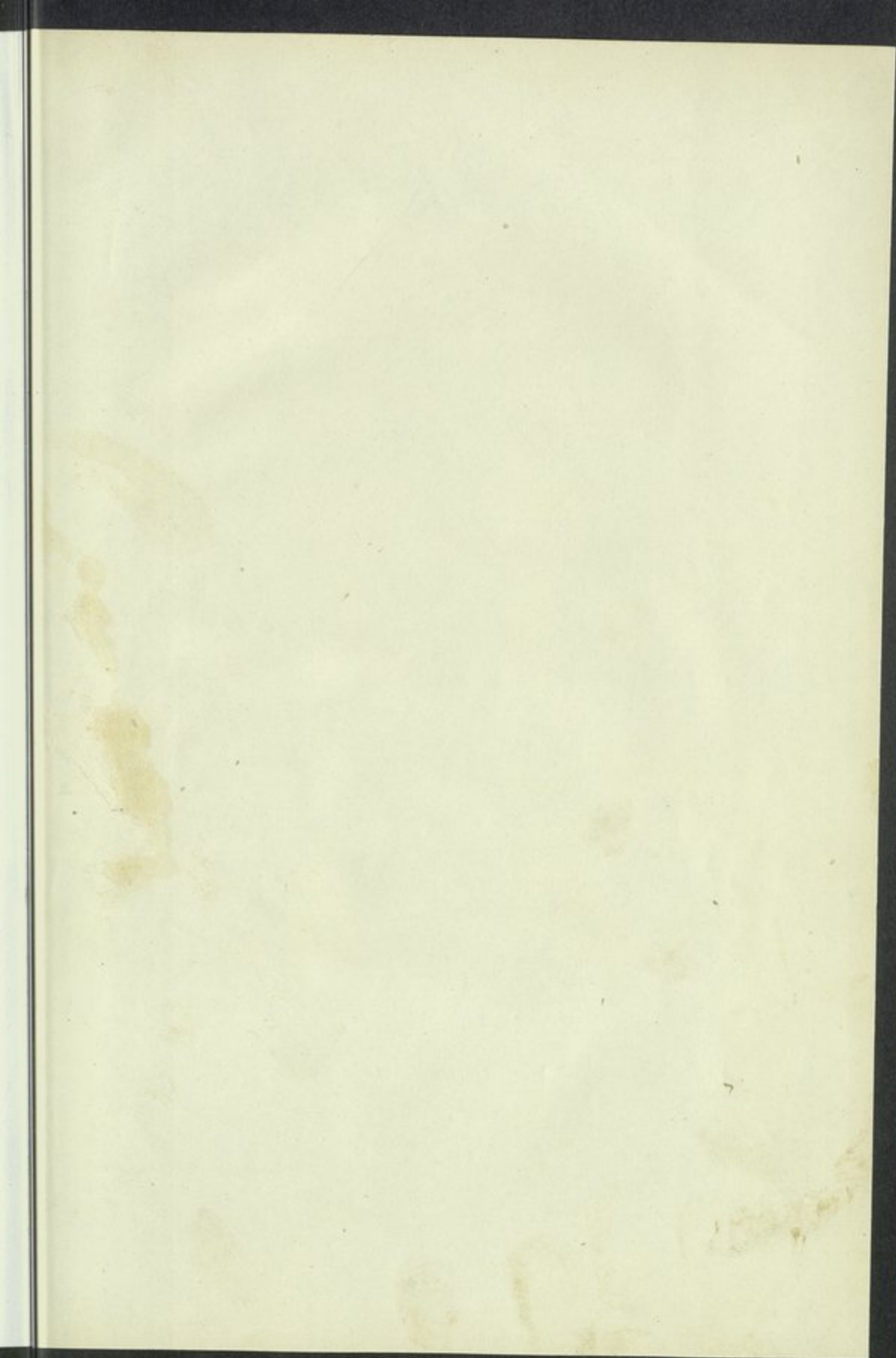
par

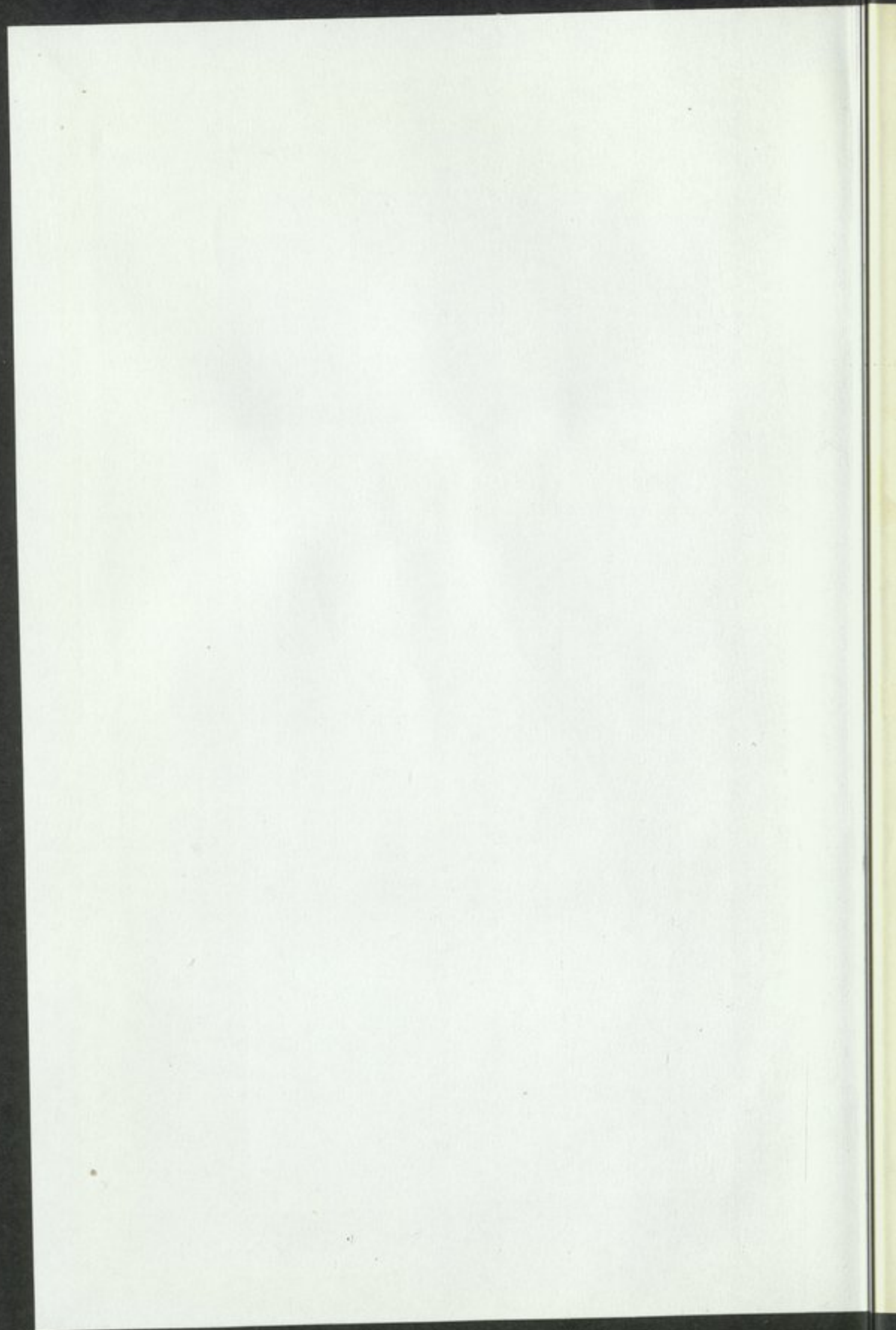
ADIL ZUAYTER

LE CAIRE

1954







AUB. LIBRARY

DATE DUE

[illegible]

AUB. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00469864

